انهيار الحضارة الإسلامية و إعادة بنائها

الجذور الثقافية والتربوية

بقلم

أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان

١٤٠١هـ-١٩٨١م
1401AH - 1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

انهيار الحضارة الإسلامية و إعادة بنائها الجذور الثقافية والتربوية

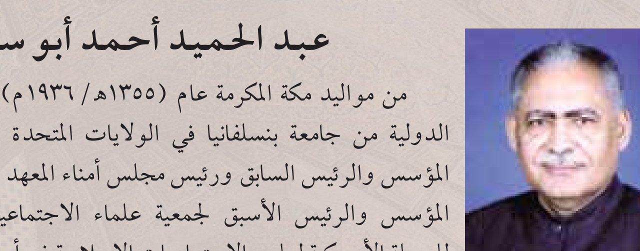
أ.د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان

1401AH - 1981AC

هذا الكتاب

محاولة لفهم غياب الجانب النفسي الوجداني في الخطاب التربوي الإسلامي للطفل؛ ليكون هذا الفهم أساساً لإرساء طاقات المبادرة والإبداع في البناء النفسي والوجداني. وهو أيضاً محاولةٌ لمعرفة الأبعاد الثقافية والفكرية التي أحدثت هذا التشوّه والغياب. ولمعرفة المفاهيم والمنطلقات التي تمكّن الأمة من استكمال هذا النقص. ولتحقيق هذا الهدف يوضِّح الكتاب الأدوات المنهجية والثقافية اللازمة للإصلاح التربوي، ويستجلي أهم أسس هذا الإصلاح ومنطلقاته، ويلفت النظر إلى مؤسسة الأسرة ودورها المحوري الفطري في تحقيق الإصلاح التربوي والتغيير الاجتماعي والحضاري.

إننا نرجو أن يفتح هذا الكتاب باب حوار جاد بنّاء، يتسم بروح الإخلاص والشجاعة، دونما خوف من جهالة الجهلاء ومزايدات أصحاب الأغراض والأمراض، والنظر في أعماق كيان الأمة الفكري والثقافي والتربوي؛ ليتعرف مفكرو الأمة وعقلاؤها على مكامن الداء فيها، ويبصّروا أبناءها وقياداتها بحقيقة أدواء النفوس، وتشوهات الفكر، وانحراف الممارسات، ويستكملوا للأمة رسم معالم المنهج العلمي الفكري التربوي الصحيح الذي يضع القدرة والمبادرة في يد أبنائها ومفكريها ومثقفيها، واعتماد مكامن طاقة الفطرة والعطاء والبذل في نفوسهم أساساً لانطلاقتها.



عبد الحميد أحمد أبو سليمان

من مواليد مكة المكرمة عام (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، دكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٣م. المؤسس والرئيس السابق ورئيس مجلس أمناء المعهد العالمي للفكر الإسلامي. المؤسس والرئيس الأسبق لجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين. المؤسس للمجلة الأمريكية لعلوم الاجتماعيات الإسلامية في أمريكا. من مؤسسي: اتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا، والاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، والندوة العالمية للشباب الإسلامي. أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية في جامعة الملك سعود (١٩٦٤-١٩٨٤م). مؤسس ومدير الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا (١٩٨٨-١٩٩٩م).

له العديد من الكتب والبحوث في مجالات الفكر الإسلامي المختلفة، منها: "النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية"، و"أزمة العقل المسلم"، و"أزمة الارادة و الوجدان المسلم"، و"الرؤية الكونية الحضارية القرآنية"، و"إشكالية الاستبداد والفساد في التاريخ الإسلامي"، و"الإصلاح الإسلامي المعاصر"، و"قصة جزيرة البنائين"، و"قصة كنوز جزيرة البنائين".



١٤٠١هـ-١٩٨١م
1401AH - 1981AC



ISBN 978-1-56564-645-2
9 781565 646452 >

انهيار الحضارة الإسلامية
وإعادة بنائها

الجذور الثقافية والتربوية

انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها

الجذور الثقافية والتربوية

بقلم

أ. د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان





© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية

الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية

تأليف: عبد الحميد أحمد أبو سليمان

موضوع الكتاب: ١- الحضارة الإسلامية ٢- انهيار الحضارات وبناؤها

٣- بناء الطفولة ٤- بناء الأسرة

٥- مدرسة إسلامية المعرفة ٦- دراسات إسلامية

ردمك (ISBN): ٩٧٨-١-٥٦٥٦٤-٦٤٥-٢

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١٦/٦/٢٨٧٢)

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من المعهد.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

The International Institute of Islamic Thought
P.O.Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703)471 1133, Fax: (1-703)471 3922
www.iiit.org/ iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان

ص.ب ٩٤٨٦ الرمز البريدي ١١١٩١
هاتف: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢١+ فاكس: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢٠+
www.iiitjordan.org

النشر والتوزيع



مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع
عمان - الأردن
هاتف: ٩٦٢٩٠٧٠٠٠٧٩٧+ - فاكس: ٩٦٢٦٤٦٣٩٠٠٧+
Email: majed_fawzi@hotmail.com

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبّر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ١١﴾

[الرعد: ١١]

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: "النَّاسُ مَعَادِنُ خِيَارُهِمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خيَارُهِمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقِهُوا"

[رواه البخاري]

الإهـــداء

إلــىٰ أَبــي وأُمِّــي حُبّــاً ودعـــاءً وإلىٰ أبنـائي، وكــلِّ الأَبْنَـــاءِ، أمــلاً ورجــاءً، وإلىٰ كــل أبٍ وأمٍّ مــــسلمةٍ، وإلىٰ كــلِّ مثقــفٍ ومـــــربٍّ مــسلمٍ، وإلىٰ كــلِّ عـــاملٍ مــســلمٍ مخلــصٍ؛ إلــيهم جميعــاً، حتــىٰ يأخــذَ رجـــالُ الأمــةِ ونـــساؤُها زمـــامَ المبــادرةِ في أيــدِيهم لنحمــلَ الرســالةَ، ونـــؤديَ الأمانـــةَ، ونــرسي لأبنائِنـــا والأمـــةِ والإنــسانِ قواعــدَ غــدٍ أهْــدىٰ وأفــضلَ، وبــشائرَ مــستقبلٍ إنـــسانيٍّ كـــريمٍ وبـــالله العـــونُ ومنــه الهدايـــةُ والتوفيـق والسـدادُ إنهُ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ.

المحتويات

الفصل الخامس

الأسرةُ المسلمةُ منبعُ الوجدان

الفصل السادس

خطـة العمل

المقدمـة

لم يأتِ هذا الكتاب عفوَ الخاطر، وإنّما جاء نتيجة قدرٍ كبيرٍ من البحث والتجربة، وهو -إلى جانب كتاب "أزمة العقل المسلم"- محاولة لفهم الأسباب التي حالت حتى اليوم دون نجاح مشروع الإصلاح الحضاري الإسلامي، وإحداث التغيير المطلوب في الأمة، على الرغم من مرور أكثر من تسعة قرون على صيحة أبي حامد الغزالي في "تهافت الفلاسفة" و"إحياء علوم الدين"، وعلى الرغم من مضي أكثر من قرن على رؤية الكواكبي في سمو مبادئ الإسلام ومقاصده وغاياته وقيمه في كتابه الشهير "أم القرى"، وصيحة اتهامه وغضبه على "أصل الداء وأُسِّ البلاء" في كتابه الأشهر "طبائع الاستبداد"، ومع ذلك فلا حلمٌ تحقق، ولا جورٌ تبدد حتى اليوم.

يوضح هذا البحث أنه ما زال هناك بعدٌ غائبٌ في مشروع الإصلاح الإسـلامي، لا يمكن للمشـروع الحضاري -من دونه- إحداث التغيير المطلوب الذي يفجر طاقة الأمة ويحرك كوامن طاقتها الوجدانية فيها، وهذا البعد هو الطفل الذي يمثل البذرة التي تحدد نوع الشجرة وطعم الثمرة.

هذا الكتاب، محاولة لفهم غياب الجانب النفسي الوجداني في الخطاب التربوي الإسلامي للطفل؛ ليكون هذا الفهم أساساً لإرساء طاقات المبادرة والإبداع في البناء النفسي والوجداني. وهو أيضاً محاولـةٌ لمعرفة الأبعاد الثقافية والفكرية التي أحدثت هذا التشوّه والغياب. ولمعرفة المفاهيم

والمنطلقات التي تمكّن الأمة من استكمال هذا النقص. إنّ استعادةَ هذا العامل أمرٌ ضروري في عملية التغيير الاجتماعي والحضاري، على طريق استعادة الوحدة بين المعرفي والنفسي الوجداني في بناء نفسية الطفل، وتمكين طاقات المبادرة والروح العلمية والإبداع في أصل طبع طفولة الإنسان المسلم وتكوينه النفسي والوجداني.

ولتحقيق هذا الهدف يوضِّح الكتاب الأدوات المنهجية والثقافية اللازمة للإصلاح التربوي، ويستجلي أهم أسس هذا الإصلاح ومنطلقاته، ويلفت النظر إلى مؤسسة الأسرة ودورها المحوري الفطري في تحقيق الإصلاح التربوي والتغيير الاجتماعي والحضاري، مما يجعل الأسرة"سيناء"[(١)] هذا العصر، شريطة أن يقوم المفكرون والتربويون وبقية مؤسسات المجتمع التربوية بدورهم في توعيتها وإمدادها بالأدبيات اللازمة، وأن يضعوا المبادرة لإرساء أسس التغيير في يد الأمة وفي يد أبنائها من الرجال والنساء، وذلك بالتوجّه إلى ما جُبل عليه الأبوان من دوافع الأبوة والأمومة الفطرية المكرَّسة لجلب ما فيه خير الأبناء وتحقيق مصلحتهم الروحية والمادية التي هي أساس بناء الأمة القادرة العزيزة الكريمة.

ولا بدّ من التعامل الجاد مع الأزمات الثلاث؛ أزمة العقل والمنهج، وأزمة الفكر والثقافة، وأزمة الوجدان والتربية، ولا سبيل من غير ذلك إلى تحقيق قدرة الأمة على إطلاق طاقاتها، وتجديد بنائها، وبلوغ غاياتها السامية،

---

(١) إشارة إلى دور الجانب التربوي لإعادة تربية وتأهيل بني إسرائيل على يد سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في تيه "سيناء" كما نص على ذلك القرآن الكريم.

وعلى أساسٍ من التوازن بين السياسي والفكري والتربوي في جهود حركات الإصلاح؛ بهدف تحقيق القدرة، وتحرير نفسية المسلم، وتفعيل وجدانه.

إن المسؤولين عن هذا الأمر هم المفكرون والمربون، وإن المفتاح الأهم لحركة التغيير السلمي الوجداني هو الدافع الفطري في قلوب الآباء والأمهات في حرصهم التلقائي الذي لا يدّخر شيئاً لتحقيق ما فيه مصلحة أبنائهم، وهم عدة الغد، ومادة المجتمع، وجيل المستقبل.

إنني أرجو أن يفتح هذا الكتاب باب حوارٍ جادٍ بنّاءٍ، يتسم بروح الإخلاص والشجاعة، دونما خوف من جهالة الجهلاء ومزايدات أصحاب الأغراض والأمراض، والنظر في أعماق كيان الأمة الفكري والثقافي والتربوي؛ ليتعرف مفكرو الأمة وعقلاؤها على مكامن الداء فيها، ويبصّروا أبناءها وقياداتها بحقيقة أدواء النفوس، وتشوهات الفكر، وانحراف الممارسات، ويستكملوا للأمة رسم معالم المنهج العلمي الفكري التربوي الصحيح الذي يضع القدرة والمبادرة في يد أبنائها ومفكريها ومثقفيها، واعتماد مكامن طاقة الفطرة والعطاء والبذل في نفوسهم أساساً لانطلاقتها.

هذه هي رسالة الكتاب، وهذه هي الغاية الأسمى لما طُرِحَ فيه من القضايا والتأملات، رجاء أن يسهم -ولو بقدر ضئيل- في إدارة الحوار واستكمال أدوات نجاح مشروع الإصلاح الحضاري الإسلامي الذي طال انتظاره، وتعاظمت -مع مظالم العولمة المادية واستكبارها- حاجة العالمية الإنسانية إليه.

واللهَ أسأل أن يوفق الأمة، وأن يوفق المفكرين والعاملين، وأن يشد أزرهم، وأن يهدينا وإياهم إلىٰ الصراط المستقيم، عليه توكلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير.

والعاقبـة للمتقين والحمد لله رب العالمين

الفصـل الأول:

القضية وجذور الأزمة

أولاً: القضية ودواعي البحث

قضية هذا الكتاب هي معرفة أسباب تدهور حال الأمة وقصور أدائها، ومن ثمَّ معرفة السبل الموصلة إلىٰ استنهاض همّتها واستعادة قدرتها، والبحث -انطلاقاً من محورية الطفولة- في نجاح مشروع الإصلاح. فإسقاط دور الطفولة وعدم فهمها من أهم أسباب أزمة الأمة، وقصور أدائها وعدم القدرة علىٰ تحريك كوامن الطاقة فيها. ويُرجع البحث ظاهرة إسقاط الطفولة من مشروع الإصلاح إلىٰ أمرين:

الأمر الأول: هو الخلل الذي أصاب منهج الفكر الإسلامي؛ إذ تم تغييب البُعد المعرفي الشمولي التحليلي الذي يتعلق بمعرفة "السنن الإلهية"[(١)] في الطبائع النفسية والكونية، وفي تفاعل عواملها المركبة رأسياً وأفقياً في الزمان والمكان.

وهذه السنن الإلهيـة (القوانين الطبيعية) هي التي يشـير إليها قول النبي ﷺ: "فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا."[(٢)] بمعنىٰ أنّ

---

(١) المقصود "بالسنن الإلهية" في طبائع الأحياء والجمادات هو ما يطلق عليه في الفكر المادي الغربي "القوانين الطبيعية".

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفىٰ ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص٣١٩٤، حديث رقم: ٣١٣٢.

للتربية والتنشئة أسساً نفسية هي سنن وقوانين إلهية، وأن طرق التعامل معها تحدد نوعية البناء النفسي للفرد، وتشكِّل معدنه وطاقاته، كالشجاعة والجبن والأمانة والخيانة.. وما إلىٰ ذلك. وهذه الطاقات يتم تسخير اجتماعياً -في اتجاهٍ أو آخر- بحسب الرؤية الكونية الاجتماعية لكل أمة ومجتمع. فجندي الجيش ورجل العصابة كلاهما من الضروري أن يتوافر فيهما الولاء والشجاعة للنجاح في أدوارهما؛ ولكن الجندي يسخرها في سبيل الدفاع عن الأمة، ورجل العصابة يسخرها للأذىٰ والإضرار بالناس.

وقد كان من نتيجة الخلل في منهج التفكير؛ ضعف الوعي بأهمية الدراسة العلمية النظرية والتجريبية للتكوين النفسي للإنسان، ودور مرحلة الطفولة فيه، ونوعية الخطاب النفسي التربوي المناسب لكل مرحلة من مراحل تلك الطفولة، وأثر ذلك في تكوين البناء النفسي للفرد المسلم. وهذا يوفر الدوافع الوجدانية النفسية اللازمة له حتىٰ يكون الناشئة أداةً فعالةً في الإصلاح والتغيير وتصحيح الرؤية الكلية الكونية الاجتماعية، وإزالة الانحرافات الناجمة عنها، واستعادة القدرة علىٰ إتقان الأداء ومواجهة التحديات علىٰ نحوٍ إيجابي فعّال.

والأمر الثاني: هو غياب الخطاب النفسي العلمي التربوي السليم الذي لا بدّ منه لبناء نفسية الطفل المسلم؛ مما جعله ينمو إنساناً مفتقداً لدفع البعد الوجداني الفعّال واللازم لتحريك الطاقة، وبذل الجهد، وتوفير الأداء الإيجابي الذي يُعَـدُّ شرطاً ضرورياً لامتلاك القدرة علىٰ مواجهة التحديات التي تواجه الأمة، بنجاح وفاعلية.

والخطاب النفسي العلمي التربوي السليم ضروري كذلك لتصحيح الانحرافات الموجودة في الذات وفي المجتمع، إنه خلل في منهج الفكر، وعليه؛ فإن هذا الغياب هو الذي يفسر عدم قدرة الإنسان المسلم والأمة المسلمة -حتى اليوم- على الاستجابة لمتطلبات مشروع الإصلاح الحضاري الإسلامي، وتصحيح الانحرافات، وضم الصفوف، وإتقان الأداء، على الرغم من سلامة غايات هذا المشروع ونبله، وتوافر الوعي المعرفي بأهدافه ومتطلباته لدى البالغين من أبناء الأمة.

لذلك فإن من المهم أن ندرك أنّ الأمر الثاني من أسباب عجز الأمة عن إصلاح ما أصابها، المتمثل في "خلل الخطاب التربوي" إنما هو ناجم عن الشق الأول، وهو القصور والتشوه المنهجي للفكر الإسلامي. وقد نجم هذا القصور عن عزل، أو اعتزال، رجال مدرسة الرسالة، وقادة الفكر في الأمة، عن ممارسة الحياة السياسية والاجتماعية العامة، التمترس بها، ودراستها، وفحصها. وأدى هذا إلى ضمور دور المصدر الثاني للمعرفة الإسلامية، وهو المعرفة الإنسانية، في إدراك السنن والطبائع الكونية والإنسانية، والوقائع الزمانية والمكانية، وتسخيرها بشكل عملي فعال في إدارة سياسة الأمة، وتدبير شؤونها، من أجل تحقيق أهداف الهداية الربانية الكلية للإنسان على هدي وعلم وبصيرة.

وغياب مصدر المعرفة الإنسانية في السنن والطبائع أدى في النهاية إلى شيوع عقلية المتابعة الآبائية، ومن ثم العجز عن إدراك طبيعة المتغيرات، وافتقاد القدرة على التعامل معها في تركيب النفس البشرية، وتنميتها، وإعدادها في مختلف مراحل الطفولة.

وخلال هذه المراحل تتشكل نوعية الدوافع النفسية الوجدانية، والمفاهيم المعرفية المنهجية التي تطبع عقلية أعضاء المجتمع ونفسيتهم ووجدانهم، وتصبح فيهم طبعاً أصيلاً يصدر عنه فهمهم واستجابتهم لما يدور حولهم من أحداث، وما يتصدون له من تحديات.

دواعي البحث:

إن دوافع البحث في هذه القضية المعرفية والتربوية هو الإحساس بأولوية الحاجة إلى إعادة بناء النفسية المسلمة، واستعادة قدراتها وطاقاتها الأخلاقية الحضارية الإبداعية؛ بهدف إنجاح المشروع الحضاري الإسلامي، وتحقيق أهدافه النبيلة.

ولهذه القضيّة أبعاد متعددة الجوانب، منها ما يتعلق بالإسلام من حيث هو رسالة إلهية سامية، ومنها ما يتعلق بالإنسانية المعذبة الحائرة المتصارعة، ومنها ما يتعلق بالمسلمين الذين هم في مجموعهم ضعفاء متصارعون وأذلاء مضطهدون مستعبدون.

لا تقتصر أضرار تخلّف الأمة الإسلامية وضعفها وتمزقها وعجزها وقصور أدائها على الأمة وحدها، ولكنّها تحجب أيضاً نور رسالة الإسلام العالمية وهدايته الكلية الروحية الأخلاقية، توحيداً واستخلافاً وإخاءً وسلاماً وعدالة ورحمةً، مما يعوق رسالة الإسلام عن أن تصبح رحم حضارة حقيقية، وسعادة روحية ومادية، وخيراً في الأولى والآخرة.

إن حجب الرسالة المحمدية الإسلامية الحضارية الكونية في عصر نضجت فيه مكونات عالمية دنيا الإنسان وإمكاناته؛ يُعَدُّ جنايةً عظمىٰ يقع وزرها علىٰ الأمة الإسلامية كلها عامة، وعلىٰ مثقفيها وقادة الفكر فيها خاصة.

إنّ ما أصاب الإنسانية -بسبب استعلاء الرؤية الكونية المادية الجاهلية العنصرية- من عالمية الحروب والصراعات، والتظالم ومآسي "الاستعمار"، سيكون أشد حدّة وأكثر ظلماً وقسوة. وستتعاظم هذه المظالم بتعاظم وسائل القويِّ وأدواته، في عالم يسوده التمايز، وجشع المادة، وقسوة المنافسة، واستكبار الأقوياء. فاستنقاذ الأمة الإسلامية، ليس استنقاذاً لـخُمسٍ مهمٍ من كيان البشرية وتاريخها فحسب، بل هو استنقاذ لمستقبل الإنسانية التي تتهددها وحشية الغاب، ونتن العنصرية، وتعاظم طاقات الخراب والدمار. وإن استنقاذ الأمة الإسلامية ليس قضية مشاعر ورغبات فحسب، بل هو أيضاً قضية عمل وجهد علمي منهجي منضبط منظم، يؤدي إلىٰ تنقية الإسلام مما شاب فهمه وثقافته، علىٰ مدىٰ تاريخ شعوب المسلمين، من موروثات تقاليدهم البالية، وانحراف ممارساتهم، وما ألحقوا به من خرافات آبائهم، وشعوذات سالف كهّانهم.

ولتنقية الإسلام والثقافة الإسلامية ومفاهيمها الأساسية لا بدّ من استعادة فهم القرآن الكريم، وإدراك مسيرته في تاريخ الأمة، ومعرفة العوامل والمنعطفات التي شكلت مسيرة الأمة ومسيرة الفكر والثقافة الإسلامية فيها، وبذلك تهتدي الأمة إلىٰ أسباب التلوث الثقافي والانحراف الاجتماعي في مسيرتها، وتتعرف علىٰ مجرىٰ هذه التلوثات والانحرافات حتىٰ تستطيع تصحيح المسار.

ثانياً: المنهج

الشمولية والجزئية في المنهج:

ويهدف هذا البحث إلىٰ النظر الموضوعي في السنن الإلهية في الكون والكائنات، وهو منهج إسلامي في غاياته الكلية الروحية والأخلاقية، فهو بذلك منهج كلي شمولي تحليلي تاريخي منضبط يلتزم الغايات الإسلامية الاستخلافية الخيرة.

والشمولية في البحث الاجتماعي أمر ضروري، لكونها تهدف إلىٰ فهم الظواهر وإدراك أسبابها الخفية، وإن النظر الجزئي في مثل هذه المجالات المعقدة التكوين، المتعددة الأسباب، كثيراً ما يضلل الباحث ويخل بأوزان الظواهر ومواقعها وآثارها، ويبسِّطها تبسيطاً مخلاً، تنتج عنه تصورات أقرب ما تكون إلىٰ الخيالات والأوهام.

ولعل صورة العلاقـة بين النظر الجزئي والنظر الكلي الشمولي في الدراسات الاجتماعية أشبه بمن يأتي بقطعة من الورق ويسكب عليها شيئاً من الحبر ويقف أمامها متأملاً بعين خياله فيما يتبدىٰ لتهيؤاته من رسوم وأشكال وصور لا وجود لها في الحقيقة، ولا بأس عليه في ذلك ما دام مدركاً أنها ليست إلا حبراً مسكوباً بشكل عشوائي علىٰ ورق صقيل.

وكثيراً ما يؤدي المنهج الجزئي في تأملاته وخيالاته -لمن لا يحسن استخدامه ولا يدرك حدود فاعليته- إلىٰ تصورات وهميـة، ونتائج اعتسافية لا تمت إلىٰ الواقع والحقيقة بصلة، وقد ينفعل صاحبها ويعجب مستنكراً من

انصراف السامعين عما يَعْرِضُ عليهم، ويستنكر عليهم عدم أخذهم ظنونه، التي يعتقد أنها حقائق، بالقدر اللازم من الجدية.

ويشبه هذه المفارقـةَ بين النظر الكلي والنظر الجزئي الحكمُ على الأمور دون اعتبارٍ لملابساتها الزمانية المكانيـة، فيؤخذ بها على أساس جزئي، وبانطباعات ذاتية لا يسندها نظر كلي، ولا إدراك صحيح لنسبية الدلالات في ملابساتها وتداخلاتها مع العوامل الأخرى المتفاعلة معها. ومن ذلك قول من يقول جزافاً إن مبلغ المليون مبلغ قليل أو مبلغ كبير. فإن كان هذا المبلغ مرتباً شهرياً لآحادٍ من الناس كان مبلغاً عظيماً، أما إن كان المقصود منه ميزانية لهيئة أو دولة فلا عجب أن يُعدَّ ضئيلاً.

ولذلك فإنّ معالجات أزمـة وجود الأمـة، وضعف أداء شعوبها وأبنائها، وعجز مشروعها الحضاري عن أن يحقق أهدافـه السامية، على مدى قرون عديدة، يوجب على الباحث اعتماد أكبر قدر من الشمولية التحليلية فيما يتعلق بظاهرة التمزق والعجز والتخلف التي تعاني منها الأمـة.

وضعف الشجاعة الأدبيـة والنظرة الناقدة، وتمكُّن كوابح الخوف والرهبـة من نفوس أبناء الأمة، صبغَ جلَّ معالجاتِـها بالسطحية والانفعالية والتزييف، ومنعها من النظر الفاحص والتحليل الجاد، حتى كاد الفكر والمفكر الإسلامي المعاصر يبدوان من كواسر حيوانات العروض البهلوانية التي بلغ بها الخوف والرعب نتيجة الترويض أن تنكر طبائعها، فأصبح العقلُ المسلمُ والفكرُ المسلمُ -بحكم هذه الكوابح الثقافية- هو ذاته حارسَ سجنه، وكاهنَ معبد تخلفه وعجزه.

ولعل في كوابح الثقافة والعقائد الهندوسية، وما ولدته تلك العقائد في نفوس معتنقيها من الخوف والرهبة النفسية على مدى قرون، ما يوضح تلك الظاهرة النفسية؛ إذ نجد من كوابح الثقافة الهندوسية ما يجعل مئات الملايين من فئة المنبوذين في الهند حراساً على بؤسهم وشقائهم.

لَكَمْ يأخذ النفسَ الأسى والحزنُ والألمُ، وهي ترى العديد من رجال الفكر الإسلامي يحجمون عن إبداء الرأي إلا في حدود المعتاد والمتوارث، وذلك بسبب تمكُّن الكوابح الثقافية التراثية من أنفسهم، رهبةً وخوفاً من ردة الفعل النفسية، غير العاقلة، التي تكررت وتمكنت على مر الزمن من عقلية جمهور أمتهم، والتي لن تسمح بالحوار الرصين الذي يفسح المجال لرؤى اجتهادية تجديدية ترتكز إلى الأسس والثوابت الأصلية في العقيدة والمقاصد، لا إلى موروثات العصور السالفة وما شاب كثيراً منها من التحيزات والتحزبات الغابرة.

لا بدّ للمفكر المسلم من التسلح بالشجاعة في إبداء الرأي، والتجديد في الفكر والنظر، ليواكب ما يطرأ في واقع الحياة من تغيّر، وما يتيحه تراكم المعارف والخبرات من الإمكانات، وما يطرحه من التحديات، وما يفرضه من التغيرات، حتى يتمَّ تنزيل المبادئ والقيم بشكل عملي فعّالٍ على واقع حياة البشر، وفي نسيج علاقاتهم ومعاملاتهم، وبناء مؤسساتهم.

الشمولية وبناء الأولويات:

والبحث الشمولي التحليلي بطبيعة الحال لا يأخذ -دون دليل- بأحادية العوامل المؤثرة في أي ظاهرة اجتماعية، بل يرى أن الأصل في التحليل هو

تعدد هذه العوامل، وأنّ من التبسيط المخل الاعتمادَ الجزئي -لأسباب ثقافية أو عاطفية، أو رؤية انتقائية أو خيار عشوائي- على عاملٍ واحدٍ بعينه، على مجموعة من العوامل والأسباب، مع تجاهل ما عداها من الأسباب الموضوعية المهمة المتعلقة بمختلف جوانب تلك الظاهرة. واعتماد نتائج النظر الجزئي التي تشحن عادة بالرموز العاطفية الموروثة لقهر عقول المخاطبين وضمائرهم؛ ويضع العراقيل المنهجية، ويحول دون النظر الناقد الجاد، والحوار الهادئ الرزين، لإدراك كنه القضايا، وتنوير العقول، وحل المشكلات، ومواجهة التحديات.

ومعرفة العوامل المهمة المؤثرة في أية قضية أو في أي مجال، ومعرفة تداخلاتها الرأسية والأفقية، أمرٌ على أكبر قدر من الأهمية لفهم الظاهرة الاجتماعية، وتتبع آثارها، ووضع الحلول الفاعلة للتعامل معها، إلا أن ذلك لا يمنع من ترتيب الأولويات في التعامل مع هذه العوامل، وفي ترتيب حل إشكالاتها.

بل إن من المهم في دراسة أية قضية أو ظاهرة اجتماعية، ليس النظر إلى مجموع العوامل المؤثرة فيها فقط، أو معرفة نوع التفاعل بينها، بل لا بدّ من التفرقة بين الأسباب الجذرية والمضاعفات المترتبة عليها؛ إذ إنّ كثيراً من المفكرين يُؤْخَذون بالمضاعفات، ولا يلقون بالاً -بالقدر الكافي- للأساسيات، فتدور رحى جهودهم في دوائر غير متناهية من العلاجات السطحية العرجاء العقيمة المكرَّرة. ومَثَلُ هؤلاء كمَثَل من يستنفد طاقته متفانياً في بذل الجهود المضنية من أجل علاج مرضى البلهارسيا؛ دون أن يلقي بالاً إلى أصل المرض

ومنشئه بمكافحة ما يلقىٰ في مصادر المياه من النفايات، التي تلوث الماء وتجعله مصدراً متجدداً للإصابة بالمرض وانتشار العدوىٰ. فالتصدي للمضاعفات أمرٌ لا يغني عن التصدي للأساسيات، وإنّ التصدي للاستعمار والعولمة وما يلحق بهما من الهيمنـة التسلطية العالمية الظالمة، يجب أن لا يعني مطلقاً التقصيرَ من جانبنا في التصدي –وبالدرجة الأولىٰ– لأسباب القابلية للاستعمار، والمواجهة الجريئة لأسباب القصور الذاتي والعجز والتخلف في كيان الأمـة.

وهكذا، فإنّ من المهم لنا في هذا البحث إدراك الصورة الكلية، ومعرفة العوامل الأساسية المؤثرة في أزمة تخلف الأمة وتمزقها وعجزها، والوقوف علىٰ نوع التداخل بين هذه العوامل، وإدراك عناصر تبادل التأثر والتأثير فيما بينها، رأسياً وأفقياً، في الزمان والمكان، وحصر المضاعفات الداخلية والخارجية التي ترتبت عليها وزادت من حدتها.

والإدراك الشمولي السليم لكل هذه العوامل المؤثرة يأخذ في حسبانه الدلالة الحقيقية الهامشية للمؤثرات العابرة التي لا تغير من الاتجاه الأساسي للخط البياني صعوداً أو هبوطاً؛ إذ إن مثل هذه الذبذبات العابرة –في كثير من الأحوال– يُغَضُّ الطرفُ عنها في رصد الحركة الكلية للخط البياني ومعرفة وجهة الحركـة الكلية فيه.

وأمر هذه الذبذبات والاهتمام بها لـه موضعه في مجال التطبيقات الميدانيـة الآنية، التي لا تتعلق بمثل هذه الدراسات والأبحاث، والتي ترصد توجهات حركات الحضارات صعوداً وانهياراً. فالغوص في خضم تفصيلات هذه الذبذبات يعتم الرؤية ويضلل الفهم، ويغرق الفكر في رمال متحركة

وتحركات واهمة، مما يدخله في بحث عقيم أشبه ما يكون باستباق الأحمق ظله ومطاردة الهر ذيله.

نحن لا نجافي الحقيقة إذا قلنا: إن فجوة "القدرة" الحضارية و"الأداء" المتميز -مع مرور الأيام- تزداد تفاقماً واتساعاً بين الأمة المسلمة والأمم المتقدمة، وذلك بسبب تسارع إمكانات العلوم والتقنيات الحديثة لدى تلك الأمم، مما يمكنها من إحكام قبضة التحكم والقهر والتخلف على كيان الأمة ومقدراتها، ويزيد بذلك نصيب أبنائها من الجوع والجهل والمرض والتخلف.

وفي عصر التحدي الغربي وانحطاط الدولة العثمانية، آخر كبريات الدول الإسلامية، نجد أن جهود الإصلاح والنهضة في العالم الإسلامي قد تعددت وتنوعت على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون، بدءاً بحركة الإصلاح الديني على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب (توفي ١٧٩٢م) في جزيرة العرب، وشاه ولي الله (توفي ١٧٣٦م) في الهند، والسلطان العثماني سليم الثالث (توفي ١٨٠٧م)، وما تلا ذلك من حركات الإصلاح الديني على يد أبي عبد الله محمد بن علي السنوسي (توفي ١٨٥٩م) في ليبيا، ومحمد المهدي في السودان (توفي ١٨٨٥م)، وخديوي مصر محمد علي باشا (توفي ١٨٤٩م)، والوزير العثماني خير الدين باشا التونسي (توفي ١٨٩٠م)، وسير سيد أحمد خان بالهند (توفي ١٨٩٨م)، وجمال الدين الأفغاني (توفي ١٨٧٩م)، والشيخ الإمام محمد عبده (توفي ١٩٠٥م)، والشيخ عبد الرحمن الكواكبي (توفي ١٩٠٢م)، والسيد محمد رشيد رضا (توفي ١٩٣٥م)، وحسن البنا (توفي ١٩٤٩م)، وابن باديس (توفي ١٩٤٣م) وابن عاشور (توفي ١٩٧٣م).

وتبع ذلك ما رافق حركات الاستقلال في كثير من البلاد الإسلامية، منذ أواسط القرن العشرين حتىٰ اليوم، من الجهود العمرانية المدنيـة، والحركات القومية العلمانية، وما نجم عن تلك الأفكار والحركات والجهود من تغيُّـرات فكرية وثقافية وعمرانية، إلا أنها في المحصِّـلةِ لم تتمكن كلها -فيما هو ملموس- من أن تنجح في تشخيص الأمراض الحقيقية للأمة، ووصف العلاجات اللازمة لانتشالها من وهدة التخلف، ومساعدتها في مواجهة تحديات العصر الرهيبة المتنامية.

وعلينا -لتحقيق ذلك- أن ندرك منطلقات هذا الفكر في الوقت الحاضر. وهي منطلقات ترجع في أساسها الفكري المباشر إلىٰ منطلقات الشيخ عبد الرحمن الكواكبي وفكره في كتابيه "أم القرىٰ" و "طبائع الاستبداد". وهو يعرض في (أم القرىٰ) جملة من مبادئ الإسلام الكبرىٰ، وقيمه الأساسية السامية، وفي مقدّمَتها مبدأُ التوحيد، وقيم العدل، والتضامن، والشورىٰ. ويلقي في (طبائع الاستبداد) اللوم فيما أصاب الأمـة من التخلف والانحطاط علىٰ كاهل الحكومات، وما تتسم به القيادات من الاستبداد والتبديد والفساد.

ومن المهم منهجياً ملاحظة أنه علىٰ الرغم من مضي أكثر من مائة عام علىٰ أطروحات هذين الكتابين، ومُضي أكثر من ثلاثة أرباع القرن علىٰ قيام الحركات الجماهيريـة الإصلاحية السياسية الإسلامية التي تستند إلىٰ هذه المقولات، وعلىٰ الرغم من توالي جهود الحكومات المدنية والحركات العلمانيـة، فإننا لم نجد الأمـة أقربَ إلىٰ بغيتها الآن مما كانت عليه قبل انطلاقها.

والسؤال المنهجي: لماذا لم تنجح هذه المنطلقات، ولماذا لم تفلح تلك المجهودات، على مدى هذا الزمن كله، في أن تحقق جل الغايات المرجوة منها؟

إن البحث العلمي المنضبط systematic هو المأمول أن يؤدي -بإذن الله- إلى تكامل الحلول، ودعم الجهود المبذولة لمواجهة الأزمة، وتخطي العقبات لتحقيق المطلوب وإصلاح الخلل. ولا يعني ذلك أن كل ما تحقق حتى اليوم كان بالضرورة خاطئاً، لكنه بكل تأكيد لم يكن كافياً لإحداث التغيير والإصلاح المطلوبين.

وإنّ جهود البحث والنظر والتنقيب الفكري المنهجي يجب أن تستمر في أداء دورها، وبعمق أكبر، وبجهد أعظم، وبشجاعة أوفر، بدون التفريط في الأساس المنهجي العقلي العلمي الإسلامي الناقد، حتى يستطيع الباحث أن يدرك مواقع الثوابت ومواقع المتغيرات، بعيداً عن الدعاوى الواهمة أو المنتفعة أو المغرضة. وهذا يعني منهجياً حيال القضية التي نحن في صددها أن هناك عاملاً أو عوامل ما زالت مجهولة يتوقف عليها تفعيلُ بقيةِ الجهود وفاعلية بقية العوامل، مما يعني أيضاً وجوب إعطاء الجهود الفكرية الحرية الكافية للبحث، وأن تنال القضية أولويّتها من جهود المفكرين والعاملين في هذه المرحلة الحرجة من حياة الأمة.

أهمية إدراك خصائص منظومة الذات العقدية والفكرية:

إن أول ما يلحظه الباحث في كثيرٍ من منطلقات النهضة ومشاريع الإصلاح المتأخرة في الأمة -بغض النظر عن الأسباب والدوافع- أنها انطلقت منذ البداية من التقليد والمحاكاة، إما باتجاه التاريخ، مع خطاب مشحون

بالرموز العاطفية، أو باتجاه تقليد الأجنبي الغالب. ومن الواضح أن فكر التقليد والتلفيق والمحاكاة لم يُفَعِّل الطاقات، ولم يحرك الدوافع، ولن يستطيع. ويبقى الأداء المسلمُ قاصراً، والكيان المسلم ضعيفاً عاجزاً مهضوماً مقهوراً ما بقيت الأمة وتوجهات مشاريع نهضتها منطلقة من التقليد والمحاكاة، لأنهما لا يعيدان صفحات التاريخ، ولا يحركان كوامن الطاقة.

أخطاء التلاقح الفكري بين الأمس واليوم:

لم تستطع الأمة في باكورة نشأتها توفير الجهد الهائل اللازم لإتمام الصهر الثقافي والتربوي للشعوب الوافدة على كيانها؛ بسبب الكمّ الهائل والسرعة الفائقة، وتسارعِ وقعِ الأحداثِ التي توالى بها اتساع الرقعة.

في كثير من الحالات أخطأ فكرُ الأمة، أو لم يستطع أن يقدر الأولويات ويوفر المطلوب في تلك المرحلة المبكرة عند التعامل مع موروثات شعوبها في القبليات والشعوبيات، وفي الأساطير وفلسفات الإلهيات. وكان لا بدّ في النهاية من أن يكون لذلك أسوأ العواقب التي ستستنفد طاقة الأمة، وتشوه رؤيتها، وتورثها السفسطات والحلوليات والتمزق والفتن وانحراف المؤسسات؛ ولتضعفَ في النهاية طاقتها العقدية والفكرية، وتفقدَ الدليلَ العقدي والإطار المنهجي الفكري الذي منحها التميُّزَ والتفرُّدَ والقدرة على التجدد وتصحيح مسار حركة المجتمع وتطوير مؤسساته.

ولتوضيح مفهوم خصوصيات الأمم وأبعادها الحضارية، فإن من المهم أن ندرك أن كل شيء في الوجود هو منظومة system بدءاً من الخلية إلى الذرة إلى المجرة. وكلّ منظومة لها خصائصها، وقواعد عملها، وحدود طاقتها، وإذا لم

تراقَب تلك الخصائص والقواعد والحدود فإن المنظومة تتحطم وتنهار.

والمثال الأقرب الملموس هو جسد الإنسان. فهو منظومة لها خصائصها وقواعدها وحدود طاقتها واعتباراتها، فلو استنشق الإنسانُ قدراً من الأكسجين من الأنف كان في ذلك حياة لـه، أما إذا أخذ منه حقنة -ولو كانت سنتيمتراً واحداً- في الوريد فإنها تقتله في الحال. فليست العبرة فيما تأخذه المنظومة أو تتركه فقط، ولكنها تكمن أيضاً في الكيفية التي تؤخذ بها الأمور وتتمثلها المنظومة. وكذلك الأمر بين الثقافات والحضارات، فإنه يجب ملاحظة الخصائص والقيم والمقاصد فيما يُؤخَذ وفيما يُرَدّ، وعلى أي الوجوه يُؤخَذ أو يُرَدّ، وهو الأمر الذي لم يسبر غوره المفكرون المسلمون بالأسلوب العلمي الفاحص الدقيق، ولم يولوه ما يستحقه من الأهمية والبيان.

والأمة اليوم، في التقاء فكرها الضامر ونظامها المهترئ بفكر الأجنبي المناجز، بمؤسساته المتطورة المتجددة -وهي ما تزال إلى حد بعيد غير مدركة بشكل علمي موضوعي طبيعة منظومة فكرها وخصوصيات كيانها-[(١)] أصبحت منبهرةً بقدرة مناجزيها والغالبين على أمرها، مما حال بينها وبين أن تدرك طبيعة منظومة فكرهم وخصوصيات كينونتهم.

إن الانسجامَ والتناغمَ بين ضمير الأمة الإسلامية ووجدانها من ناحية، وطبيعة فكرها وغايات حركتها ودليل نظامها من ناحية أخرى، أمرٌ ضروري

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. "الأمة بين شريعتين"، **مجلة إسلامية المعرفة**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٢٨، ٢٠٠٢م، ص١٢٣-١٤٨.

لتفجير طاقاتها وإثارة الحماسة في نفوس أبنائها. وإن عهدَ الرسالة وصدر عهد الخلافة الراشدة مثالٌ منيرٌ ومرشدٌ في تاريخِ الأمة.

أما الفكر الإسلامي المعاصر فيفتقد دليل الرؤية، ويتخبط في أوحال التفاعل العشوائي دون أساسٍ منهجيٍّ في تفاعله مع الحضارة الغربية، على غرار التفاعل العشوائي غير المنهجي الذي حدث في العصر الأموي والعباسي بين منظومة الفكر والحضارة الإسلامية ومنظومة الفكر والحضارة الإغريقية، التي كانت قد أفلستْ واستنفدت دورها. وذلك التفاعل، وإن أفاد الحضارة الإسلامية في تعلُّم إرث الصناعات الغابرة وحصيلة علومها الفيزيائية، إلا أنه أضرَّ بروح الحضارة الإسلامية في الجوانب الروحية والعقدية التوحيدية الاستخلافية والمنهجية السببية، وبطَّأ حركتها، وانتهى بها إلى غبشِ الرؤية الكونية الإسلامية، وسفسطةِ الإلهيات، والمنطقِ الصوري، وضياعِ المنهج الإسلامي العلمي التجريبي.

وهكذا غلب على الأمة إرث الإسرائيليّات وفكرُ الخرافة والأسطورة والشعوذة، فانتهت إلى المواتِ والخمود، وهو الأمر الذي يتكرر اليوم في صورة أخرى، بين منظومة الفكر والحضارة الإسلامية ومنظومة الفكر والحضارة المادية الغربية، دون أن ننتبه إلى الخطأ المنهجي الفادح الذي سبق أن ارتكبناه، ودون أن نأخذ من ذلك الدرس ما يستحقُّ من العظةِ والعبرةِ.

الفكر التربوي والتغيير الاجتماعي:

إنّ الغاية من هذا البحث هو أن توضع قضية الطفولة، ودور الفكر التربوي بشأنها -لكونه منطلقاً أساسياً في تحقيق التغيير الاجتماعي- على مائدة

الدراسة والفكر والنظر، وما يستتبع ذلك من قضايا تنقية الثقافة الإسلامية وتنقية مدخلاتها التربوية، واستكمال الفكر الإسلامي لأدواته المنهجية في دراسات السنن والطبائع والواقع في الزمان والمكان، وفي فهم النص والتاريخ، وإدراك ما يقدمانه من توجيه ودروس وعبر، بشكل يناسب الزمان والمكان.

وهكذا تسهم هذه الدراسات بشكل إيجابي فعَّال في تكوين عقلية الطفل المسلم، وفي بناء كيانه النفسي والوجداني، فيصبح خالصاً من التشوهات والانحرافات والشعوذات التي تفسد الرؤية الكونية للمسلم، وتُضعفُ الروح العلمية والطاقات الإبداعية لديه، وتقضي على معاني العزة والكرامة والإخاء والنصرة في تكوين نفسيته وعقليته.

إنّ الطفولة، بإدراك دلالاتها العلمية النفسية في إحداث التغيير الاجتماعي، هي البعد الغائب الأساس في إحداث التغيير النفسي الجمعي الضروري لاستعادة الرؤية، وتحريك الطاقة الوجدانية، ومواجهة التحديات.

ومهمة هذا البحث هي إلقاء الضوء على هذا البعد الغائب، وتوضيح أبعاده وتفاعلاته مع بقية العوامل، ومعرفة السبل العملية العلمية لاستكمال هذا النقص، وسد هذه الثغرة، بهدف التكامل مع ما يبذل من الجهود لبناء مشروع إصلاح الأمة ونهضتها، واستكمال أدواته، خدمةً للأمة والإنسانية، وتجليةً لهدي رسالة الإسلام في نظام القرية العالمية المعاصر.

إن عوامل القصور التي غلبت على نفوسنا قد جعلتنا في مؤخرة الركب، لذلك أرجو أن يحسن القارئ فهم غاية النقد، لأنّ البحث إنما يهدف فقط إلى

استكمال النقص وتكامل الجهد، وإن تقديرنا وإجلالنا لما سلف، أو رغبتنا في شدِّ عزيمتنا وحسن عرض بضاعتنا، يجب ألاّ تحول دون معرفة وجوه القصور فيما سلف من أمرنا، حتىٰ تُقالَ العثرةُ، وتُسَدَّ الثغرةُ، ويتحقق المأمولُ إن شاء الله تعالىٰ.

ومن الخطأ محاكمة الماضي بواقع الحاضر ومعطياته؛ بل يجب محاكمته إلىٰ واقع زمان أحداثه، حتىٰ يأتي التقدير حقيقياً ومتوازناً، وإنّ لنا أن نقدر بكل إجلال وإكبار إسهاماتِ الحضارة الإسلامية وعطاءَها في مجرىٰ تاريخ الإنسانية، علىٰ أن نحاكمها في ظل واقعها وظروفها، وإن قصرت عما نريده اليوم منها، أو عما كان يمكن أن تقدمه للإنسانية من عطاء.

لقد مثَّلت الحضارة الإسلامية فترة مضيئة، بكلّ المقاييس، وقفزة عملاقة في تاريخ الإنسانية، تشهد لذلك آثار تلك الحضارة وما أحدثته في حياة شعوب الإسلام من تغييرات، وما أسهمت به في تراث الحضارة الإنسانية المعاصرة من أسس ومناهج ومنطلقات. بل إنّ شروخ الضعف والوهن في بناء الحضارة الإسلامية حدثتْ بسبب تنكُّب هذه الحضارة عن منطلقات هدي الإسلام في شؤون الروح والأخلاق والاجتماع، وهو ما نسعىٰ اليوم لتداركه واستعادته.

ثالثاً: جذور الأزمة

إن الأمة في أزمة، وإنها من المحيط إلىٰ المحيط لا تنقصها الموارد المادية، ولا الموارد البشرية، فهي تبلغ بليوناً ومائتي مليون نسمة، أو ما يعادل خُمس

كامل كيان البشرية، وهي لا تنقصها القيم والمبادئ، ولا الغايات والمقاصد السامية التي يزخر بها الإسلام.

إذن ما الذي أصاب الأمة؟ وكيف انحرفت مسيرتها؟ وكيف تَعوَّق فِعْلُ دفع روح الإسلام فيها حتىٰ انتهت إلىٰ ما انتهت إليه من العجز والتخلف والضعف؟ ولماذا لم تنجح علىٰ مدىٰ القرون محاولات الإصلاح ومشاريع التغيير في استعادة عافية الأمة وتعديل مسارها؟

والجواب أنه لا يمكن أن يكون ذلك قد تم بسبب عدم الرغبة في الصلاح والإصلاح، فقد بُذِل الكثيرُ، وما يزال يُبذل، ولكن من الواضح أنّ عوامل التعويق والانحراف كانت كثيرة وعميقة الجذور، وأن سرعة وتيرة الأحداث كان سريعاً، وعلىٰ وقعٍ أكبر من الطاقة المتوافرة لملاحقته، بله تجاوزه أو الإسهام في رسم مساره؛ فأصبح الأداء أقرب إلىٰ ردود الفعل التي لا تسمح بالتحكم في الظروف، ولا بإمعان النظر في القضايا، ولا بفهم طبائعها ومتطلبات مواجهتها.

وإذا كان هدي الإسلام ليس لقوم بعينهم، ولا لزمان بعينه، ولكنه هداية للإنسانية جمعاء حتىٰ نهاية الوجود الإنساني علىٰ هذه الأرض، فإنه يصبح حقاً لكل فرد وكل قوم وكل جيل أن ينهل منه علىٰ قدر ما يطيق وما تؤهله نفسه للإفادة منه.

لقد كان عصر الرسالة تجسيداً لها، وتطبيقاً لمبادئها وقيمها في واقع حياة البشر، وإقامة الحجة علىٰ الناس كافة بإمكانية تطبيقها، وإقامة مبادئها وقيمها في الإخاء والحق والعدل والتكافل، في حياة البشر كافة.

إنها ليست مجرد أفكار وفلسفات وأحلام ورؤىٰ وخيالات، علىٰ غرار ما يأتي به الفلاسفة والحكماء المثاليون، بل هي رسالة حق وهداية إلىٰ البشرية، توضح لها الكليات، وتمدها بالقيم والمبادئ التي تهدي سعيها، وتنير طريقها، وتسدد فِعالها، وتصبغ -بقصد الخير- وجودها، يستوي في ذلك كلُّ البشر، وكلُّ الأجيال.

طاقة الدفع الإيماني الحضاري والتراكم المادي العمراني:

حين ننظر في مسيرة الدفع الإسلامي الأول، وما فجرته الرؤية الإسلامية وجيل الرسالة في كيان الأمـة الإسلامية والحضارة الإسلامية في التاريخ، وكيف تعوّقت وتعثرت مسيرة الرسالة بعد ذلك في واقع الأمة، وما تزال، يبدو لنا الأمر وكأن قيم الرسالة، ورؤيتها وروحها في الاستخلاف بالإخاء والعدل والبذل وإتقان الأداء، قد تعطلت في واقع الأمـة الإسلامية اليوم، أو كادتْ.

وهنا يجب ألا نخلط في فهم تاريخنا بين قوة الدفع النوعيـة من جهة، وتراكمات البناء والعمران والصنائع المادية من جهة أخرىٰ. وعلىٰ الرغم من أنّ قوة الدفع قد تكون في تناقص فإنّ تراكمات العمران والصنائع -لأمدٍ قد يطول- لا بدّ أن نجدها في تزايد علىٰ الأغلب، بفعل الوقت والجهد والموروث.

وتستمر هذه الصورة المضللة في فهم التاريخ إلىٰ أن يبلغ الضعف والظلم والانحراف والفساد في كيان الأمـة قدراً يجفف قاع المنابع، ويقضي علىٰ منطلقات روح المبادرة والإبداع والتجديد؛ فينهدم البناء، وتتصدع العرىٰ، وتنهار المؤسسات، وتندثر المعالم، وهناك فقط تتضح للناظر -دون جهدٍ-

رؤيـةُ العلاقة بين ضعف روح الدفع والنماء والتجديد من ناحية، وانحراف المسيرة وفساد الممارسات وانحطاط الحضارة من ناحية أخرىٰ.

وإذا كان انحرافُ مسيرة الأمـة الإسلامية عن خط الأداء الأمثل الذي رسمته تطبيقات الرسالة الإسلامية، بعد غياب الرسول ﷺ وانتهاء عهد الرسالة ودولة جيل الصحابـة، قد بدأ مبكراً؛ فالسبب في ذلك أن الناسَ من بعد جيل النبوة والرسالة، قد تُركوا لجهدهم في تمثل الرسالة، وأن كلَّ جيلٍ مرهونٌ بطاقة أفراده، وفق معطيات زمانهم ومكانهم وإمكاناتهم، ومتغيرات أحوالهم وتحديات عصورهم.

وكان هذا الأمر واضحاً في المسيرة التاريخية لرسالة الإسلام، فقد كان التناسب فيها عكسياً: بين قوة دفع الرسالة ونوعية الأداء من ناحية، وتراكم معالم عمران الأمـة وتراثها ومظاهر الحضارة فيها من ناحية. والمقصود بالتناسب العكسي أن قوة أي طرف من الأطراف ونموَّه يعني ضَعفَ الطرف المقابل وانكماشه، أي إنه في الوقت الذي تضعف فيه روح الإسلام يزداد توسع الملك وازدهار الصنائع والعمران.

لقد نزلت رسالة الإسلام علىٰ العرب وهم في حالةٍ من البداوة والجهالة؛ حيث لا دولةَ لهم ولا أنظمـةَ ولا عمرانَ ولا علومَ ولا صنائعَ، علىٰ عكس ما جاور الجزيرة العربية من حضارات الفرس والروم والهند وسالف حضارات الرافدين وبلاد مصر والشام.

وفي الوقت نفسه كانت دول الفرس والروم والهند وحضاراتهم تفلس وتغرق في المفاسد والمظالم والانحلال والتدهور، فجاءت رسالة الإسلام إلىٰ

العالمين، برؤيتها الكونية التوحيدية الخالصة السامية، وبقيمها ومبادئها ومفاهيمها الحضارية، فأوجدت آفاقاً واسعة، ومناهج علمية سننية راسخة، تشكل في مجموعها أسساً قوية لدفع الاجتماع الإنساني، وفتح أبواب جديدة ومبدعة في مجالات العلوم والمعارف الإنسانية والكونية، فأخرجت أمةَ العرب، وأخرجت معها الإنسانية، من الجاهلية والبدائية، ومن الفساد والمظالم، إلىٰ مرحلة جديدة من الحضارة في تاريخ الإنسانية، حضارة تلتقي فيها -بتكامل وانسجام- الروحُ والمادةُ، والعقلُ والوجدانُ والعلمُ، والغيبُ والشهادةُ.

وكان من الطبيعي أن يكون زخم روح الرسالة الإسلامية عند منابعها في عهد الرسالة وجيل الأصحاب قد بدأ قوياً كاسحاً؛ مما مكّن دولتها من اجتياح رقعة العالم المتمدن في أقل من ثلاثة عقود. ولقد غيرت من حال الشعوب التي حكمتها تغييراً عميقاً بلغ حداً غير مسبوق من التأثير والانبهار، كما غيّرت لغاتهم في شمال الجزيرة العربية وشمال إفريقيا وشرقها لتصبح اللغة العربية القرشية لغتهم الأم.

وإذا كان الدفع والتغيير الإسلامي للروح والعقل والوجدان عظيماً، فقد كان من الطبيعي في عالم الجزيرة البدائي أن يكون الأثر العمراني في البداية محدوداً، وأن يتزايد مع مرور الزمن ودخول الشعوب من أبناء الإمبراطوريات والحضارات الدائلة في الإسلام، وأن تتسع رقعة الملك وتزدهر الصناعات والعمران.

ومع مضي الوقت، وبسبب ما حملته الشعوب التي دخلت الإسلام من آثار تراثها وتقاليدها وفلسفاتها ودياناتها السالفة، كان من الطبيعي أيضاً أن

تضعف الروح الإسلامية، وينال الغبش والتلوث الفكري صفاء عقائدها ورؤيتها الكونية وثقافتها ومناهج فكرها، وأنظمة حكمها وعلاقاتها الاجتماعية، وأن يَعْلَقَ بها كثير من ممارسات الظلم والجور والاستبداد والخرافة والضلالات، فأصبح فكر شعوب الأمة ونظمهم وممارساتهم خليطاً من أساسيات الإسلام، ومما حملوه معهم من ثقافات، هي بقايا سالف ممارساتهم وتراثهم وعاداتهم وإحنهم وعنصرياتهم.

كيف بدأ ضعف الطاقة الإيمانية الأخلاقية:

يذكر لنا التاريخ، بما لا مجال للشك فيه، أنّ بدايات الانحراف قد ظهرت في العصر اللاحق لعصر الرسالة، حيث لم يعد الأصحاب الذين صفت معادنهم وسمت غاياتهم وخلصت مقاصدهم يمثلون جحافل جيش دولة الخلافة، وحرّاس نظامها، ومرتكز قاعدتها السياسية.

وهذا التغيير الجوهري، الذي أصبح الأعرابُ فيه جيشَ الخلافة وقاعدتها السياسية، هو الذي حوّل الخلافة بعد العهد الراشد إلى "ملك عضوض" بُنِيَ في كثير من جوانبه على قواعد الاستلاب وقهر العصبيات القبلية. وزاد الطين بلةً ما لحق بالأمة وثقافتها مع مرور الزمن من الشعوبيات والفلسفات والخرافات. لذلك كان من الطبيعي أن تتفاوت أجيال ما بعد الرسالة على مدى القرون في مدى تمثلها لروح الرسالة، وما انطوت عليه من طاقة على حمل الرسالة، والإفادة منها بحسب حالها والظروف التي مرت بها، وبحسب قدرتها على التغيير والتكيف والاجتهاد والتجديد؛ بما يستجيب لمتطلبات هداية رسالة الإسلام ومبادئه وقيمه

السامية، وعلىٰ ضوء ما يواجه الأمة في مختلف المراحل من التحديات.

لقد كان من أهم أسباب الانحراف السريع عن رؤيـة الإسلام الكونية، وعن قيمـه ومبادئـه السامية، وما أدىٰ إليه ذلك من هدم نظام الخلافة الراشدة، قصور الجهود عن إعادة تربية أبناء القبائل البدوية التي كوّنت جيش الفتح حين ضعف جيل الرسالة والصحابة، وانحلّت قبضتهم عن جيش الدولة، وما صاحب ذلك من أحداث وتغيُّـرات جسيمة تمثَّـلت بدخول شعوب وقبائل وأمـم كثيرة في الإسلام، وبزخمٍ وسرعةٍ هائلةٍ تفوق طاقـة الدولة وجيل الأصحاب في تدبرها ومواجهـة متطلباتها في "التربية" والتغيير.

كان الجنود من القبائل والأعراب قد تحلّوا بالقوة والشجاعة في الجهاد والذود عن حياض الأمة، ولكن لم تتوفر لهم الفرصة لإعادة تربيتهم، فتغيرت بهم طبيعة الجيش وطبيعـة الشعب، وطبيعـة القاعدة السياسية، لتجريَ الأيام بأحداث انقلابيـة متسارعة، كان لا بدّ لها من أن تنهيَ عهد الخلافـة الراشدة، وتنهيَ نمط حكمـه وتنظيمـه، وأن يستقر الأمر في النهاية لقيادات جديدة تمارس -ضمن هياكل بناء مجتمع الإسلام ومؤسساته- كثيراً من موروثات المفاهيم والتقاليد والظلامات والعصبيات والعنصريات القبلية والشعوبيات التي نشِّئوا فيها، ورُبُّـوا عليها.

وهكذا يستقر الأمر لملوك بني أُمية بسبب تغير القاعدة السياسية والعسكرية. ومما يوضح هشاشة ما زعم من انحرافات وأخطاء نسبت إلىٰ الخليفة عثمان بن عفان أو إلىٰ الخليفة الراشد علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن منهاج حكم معاوية ونظام ملكه الذي ارتكب من الأخطاء ما هو أضعاف ما

نسبته إلىٰ الخلفاء الراشدين، ومع ذلك استقر لمعاوية الأمر مما لا يفسر زوال خلافة الأصحاب الراشدة إلا تغيير القاعدة السياسية والعسكرية التي جنّدت من جيش الفتح من الأعراب وجموع القبائل.

لقد كان الحدث التاريخي المتمثل في انهيار نظام الخلافة الراشدة -ضمن معطيات أحداث ذلك العهد- هو الذي أحدث الشرخ الأول في دولة الإسلام ونظامه، بكل ما حمله ذلك الحدث من آثار عقدية وسياسية واجتماعية واقتصادية أصابت روح الإسلام ورؤيته، وعكَّرتْ صفاء قيمه ومبادئه، في الوقت الذي كان يتعاظم فيه ملك دولة المسلمين بالفتح، وتتسع فتوحاتها، ويزداد عدد رعاياها من ورثة الصنائع وأرباب فنون الحضارات والإمبراطوريات الدائلة في شمال الجزيرة وبلاد فارس والهند والروم.

السياسة والأخلاق والدين: انقسام القيادة ونشأة المدرسية النظرية:

وحين نتتبع مسيرة التوجه الفكري والعقدي للأمة، مع تطور هذه الأحداث فإننا نجد الجيل الأول قد تولاه الرسول ﷺ بالتربية والتهذيب، وتولاه الوحي الإلهي بالتوجيه والترشيد، ولذلك تمتع برؤية وروح وقدرة حضارية عالية مازجت ما جبلت عليه قبائل العرب من القوة والشجاعة والنبل والكرامة، فأخرجت جيلاً حضارياً فاعلاً، وكانت عظمة إنجازاته بقدر سلامة تكوينه التربوي، وسمو مفاهيمه العقدية والسياسية الأخلاقية.

وبإسقاط الخلافة الراشدة وغلبة قادة القوىٰ القبلية، أخذ الدور القيادي لرجال مدرسة الرسالة يتضاءل، ومعاقلهم تدك وتدمر، وشيئاً فشيئاً انتهىٰ الأمر، بعد مئة عام من الصراع الدامي، إلىٰ تهميش دورهم السياسي، وليتحولوا

تدريجياً بعده إلىٰ فئة نظرية مدرسية منعزلة في المساجد والزوايا والمدارس، وتتسم بالطهارة والزهد، في الوقت الذي أخذت تتزايد فيه الممارسات والعادات القبلية والشعوبية، وتتنامىٰ الإحنُ والحزازاتُ العنصريـةُ، وتقوىٰ من خلالها روح التسلط والاستبداد، وتتسع مجالات التبديد والفساد.

ومع إيغال العلماء في عزلتهم، وقد كانوا ورثة مدرسة الرسالة، كان من الطبيعي أن تضعف صلتهم بواقع المجتمع ومتغيراته والقدرة علىٰ التأثير في مسار سياساته وممارساته وتجديد مؤسساته، بل يظهر أثره علىٰ فكرهم ومناهج ثقافتهم، لتضعف لديهم ملكة التجديد والاجتهاد، وتتحوّل مدارس الخبرة والعمل إلىٰ مدارس الرأي، ثم تتحوّل مدارس الرأي إلىٰ مدارس النص، وتنتهي مدارس النص إلىٰ مدارس الجمود والتقليد.

وبسبب معارضة العلماء والمثقفين وعزلهم من قبل الصفوة السياسية؛ تبنت فئات من تلك الصفوة العلمية المدرسية (الفلاسفة) البديل الفلسفي الناهل من الثقافات الوافدة، دون منهج شمولي سليم يدركُ خصائص الأمـة ومكونات رؤيتها وعقليتها ونفسيتها العقدية والحضارية، لينغمسوا وينغمس معهم شطر مهم من الفكر والجمهور الإسلامي من خلال الفلسفة وعلم الكلام والفرق والتصوف الأعجمي، في متاهات الإلهيات الميتافيزيقية الإغريقية وضلالها وانحرافاتها وتساؤلاتها وتهويماتها ومنطقها الصوري.

وفي الوقت نفسه انتهىٰ العلماء والأمناء علىٰ تراث الرسالة إلىٰ جمود نصية العلوم والمعارف الفقهية الشرعية، وتجلَّتْ ثالثةُ الأثافي في تمادي فساد الصفوة الحاكمـة وجهالتها واستبدادها، وبذلك فقدت الصفوة السياسية -بعزل

وعزلة رجال العلم والشريعة- سندَها وقاعدتَها، ولم يعد لها قاعدة فكرية ثقافية تدعمها وتبصِّرها، فغرقت الأمـة في انحطاط وجمود واستبداد، وأسلمت عامّتها نفسها إلىٰ صوفية فلسفية حلولية خرافية، أخمدت جلَّ ما بقي فيها من طاقـة حضارية، وأسلمتها إلىٰ غيبوبة وخنوع وسلبية.

كلّ ذلك أدّىٰ إلىٰ تعميق الإرهاب المادي بسبب استبداد قادة الأمة وصفوتها السياسية الحاكمـة، وقد كرَّسه عجز الأمة عن مواجهة المتغيرات، وعدم القدرة علىٰ التصدي للتحديات، فكان إرهابُ العسف والخسف، والقضاء علىٰ كل معارضة، السبيل الوحيد للصفوة الحاكمـة للمحافظة علىٰ الحكم، وتحقيق الضبط والبقاء.

أما الصفوة المثقفـة الشرعية فإنها -بتدهور قدراتها العلمية، وضعف ممارساتها العملية، وعزوفها عن معارف السنن والطبائع والوقائع - أصبحت أشبهَ ما تكون بمدرسة حِرَفِيَّة هامشية؛ إذ لم يبق لها علىٰ الأغلب من دور في المجتمع إلا توجيه شؤون الحياة الفرديـة، وتولي ما يتبعها من وظائف الفتوىٰ والقضاء وإمامة المساجد، وكان لابد لهم لأداء دورهم من اللجوء إلىٰ الإرهاب والترهيب الروحي، وإضفاء القداسات علىٰ المنطوقات وشحنها بالرموز وشوارد النصوص؛ حتىٰ ما عاد بالإمكان رفع أخمص ولا سحب خطوة إلا بدليل من نص وسابقة وفتوىٰ وإجازة.

آثار الانقسام وانهيار المؤسسات وتغييب البعد الجمعي:

وهكذا انتهىٰ الأمر بالأمـة إلىٰ انهيار المؤسسات وتسلط الصفوات، وأصبح المسلمُ فرداً يتناوشه -نفسياً ومادياً، ومن كل جانب- إرهابُ الاستبداد السياسي،

وخطابُ الترهيب الديني، لِيُدْفَعَ وتُدْفَعَ معه الأمـة وعامتها إلىٰ الانطواء والسلبية، ويسلب من فؤاده ومن خيال الأمة ما كان لها من دوافع الإتقان والعمران والحضارة.

وزاد الطين بلة أن صفوة الفكر في الأمـة لم تنتبه بشكل علمي فعال إلىٰ أن السبيل الناجح للإصلاح والتغيير إنما يأتي أولاً من داخل الأمـة والمجتمع، ويبدأ بجوهر الذات ومنبع الفكر والوجدان، وهو إعادة التربية، وبذلك ضلوا السبيل حين ظنوا أن سبيلَ الإصلاحِ هو سبيلُ المناجزةِ والصراعِ والعنفِ، مما زعزع استقرار الأمة، ومزّق نسيجها الاجتماعي، وزاد من تمكين أسباب المظالم والقهر والاستبداد والتمزق.[1]

هذه هي الصورة الكبرىٰ لمجرىٰ تاريخ الأمة وعلاقاته العكسية، الذي انتهىٰ بها إلىٰ ما هي عليه من خمود وسلبية وتمزق وهوان.

وعلىٰ الرغم من ذلك فإنه يجب ألا يغيب عن وعينا أنّ حال الأمـة في كثير من لحظات تاريخها –وحال كثير من بلدانها– لم يكن في السوء سواء، فهو إن تردىٰ في مصرٍ من الأمصار فقد يكون أفضل حالاً في مصرٍ آخر.

ففي الوقت الذي كانت قد خمدت فيه شعلة روح العرب، واندثر رسم المسلمين في بلاد الأندلس، كانت طاقـة الإسلام تتفتّح من جديد علىٰ يد قبائل الأتراك، وقد دخلت الإسلام بصلابتها وشجاعتها، وكانت مزودة

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. **العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر السياسي الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية**. دمشق وهرندن: دار الفكر والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٢م.

بروح الحرية والإباء، لترسِّخَ الإسلام في بلاد الأناضول، وتنبثقَ عنها براعمُ الدولة العثمانيـة.

وإذا تراجعت طاقـة الفكر والإبداع في الأمة بتراجع روح الحضارة فيها؛ فإن ذلك لم يمنع -حتىٰ في عصور تفاقم الصراع والتمزق والانحطاط، بل ربما بسببه وما يمثله من التحدي- من ظهور عبقريات فكرية علمية وإصلاحية متميزة، منهم الغزالي وابن حزم وابن رشد وابن تيميه وابن خلدون في مجالات علوم الدين والشريعة والاجتماع، وكثير سواهم في مجالات العلوم الفلسفية والفيزيائية والصنائع وغيرها، فذلك أثـرٌ مما تبقّىٰ من أصل قوة الدفع، ومن جوانب الاستجابة للتحديات ومقاومة الآفات والأمراض، ومما جبلت عليه النفوس من دافع الإصلاح والعمران، وهي ظواهر ما زلنا نلمس آثار وجودها حتىٰ اليوم في روح الأمة، وفي تطلعاتها، وتفجرات غضبها، ومحاولات الإصلاح فيها.

لكن هذا لا يغير من طبيعة الصورة الكبرىٰ لتاريخ الأمة ولمسيرتها الحضارية التي كانت تدفع التاريخ علىٰ جبهات مختلفة؛ بما يؤدي إلىٰ ذبول دفع روح الإسلام، وإخماد طاقته، وتكدُّرِ صفاء الرؤية الكونية الحضارية وشموليتها، وبما يمزق صف الأمـة، ويمكِّن للفساد والاستبداد في كيانها، ويَسِم شعوبَها بالخمول والسلبية، ويحيل جموعَ أبنائها إلىٰ قطعان، وتنعدم فيهم المبادرة، ولا يرجون إلا لقمـة العيش، وسلامة البدن.

وكان لا بدّ من أن تصحو الأمة من غيبوبتها، وينكشف لها عوارها ومدىٰ ما أصاب روحها من الدمار، برغم مقاومـة روح الإسلام فيها علىٰ

مدى القرون، وذلك حين برز لها أعداءٌ مناوئون، وأقوامٌ لهم قدراتٌ حضاريةٌ ومهاراتٌ ماديةٌ وتقنيـةٌ، تدعمها منهجيـةٌ علميةٌ، وطاقـةٌ نفسيةٌ إبداعيةٌ، فأخذ الغزاة والمستعمرون، وكذلك قوَّاد الأمة، يسومون شعوبها ألوانَ الخسف والظلم والهوان.

الفصل الثاني:

تشخيص الداء

وإذا كنا قد استعرضنا في الصفحات السابقة الصورة الكبرى لمجرى التقهقر في دفع الروح الإسلامي الحضاري في الأمـة، على ما حققه ذلك الروح في العصور الماضية من التألقات والتراكمات العمرانية، فإن المطلوب اليوم هو معرفـة ما تمّ على وجه التحديد من تغيرات وانحرافات في فكر الأمة، وفي نفسيتها ووجدانها، وأثر ذلك في الإنسان المسلم فرداً أو جماعـة، ومعرفـة وجوه القصور التي أسهمت في تعويق جهود الإصلاح، لينتهي البحث بعد ذلك إلى محاولة الإسهام في العلاج واستكمال الأدوات؛ حتى تنال الأمة احترام الإنسانية وتقديرها، وتجد الآذان مصغية لما تطرحه من القيم السامية والتحديات الروحية والأخلاقية.

أولاً: تشوهات وانحرافات في فكر الأمة وثقافتها

السؤال المهم الآن هو ما أهم هذه التشوُّهات والانحرافات الفكرية والثقافية؟ وللإجابة عن هذا السؤال فإن من الممكن أن نتبين ستة أنواعٍ منها نتناولها بشيءٍ من التوضيح في الصفحات الآتية:

التشوّه الأول: تشوّه الرؤيـة الكُلّيـة

أول هذه التشوهات وأخطرها كان تشوه الرؤيـة الكونية الإسلامية، التي تشكل إطار فكر الأمـة وثقافتها؛ بحيث لم تعد رؤيـةً كونيّـة توحيدية شمولية إيجابية قادرةً على أن تقدم الدليل والهداية الكلية لفكر المسلم وضميره

وعلاقاته ونظمـه.

فالرؤية الكونية الإسلامية للإنسان تتلخص في ثلاث قضايا أساسية عامة هي:

- في الغيب: إيمانٌ بالله الخالق وحده لا شريك له.
- وفي الحياة: حسُّ المسؤولية، وقصد الخير والعدل، والسعي بالإصلاح والإعمار.
- وفي الآخرة والمآل: مواجهةُ المصير، وحصيلةُ العمل -برحمة الله - تكون وَفْقَ الجزاء العادل، "إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرٌ".

ولذلك نجد الإيمان والعمل الصالح -في الرؤيـة الكونية القرآنية- لا ينفصمان، فغاية الإيمان هو العمل الصالح، والعمل الصالح هو أعمال كلّ جوارح الإنسان، لا فرق بين عمل وآخر، حتى لو كان مثقال ذرة، حيث يتقرر نوعه وبعده الروحي على أساس قصد الخير منه وجهد الإتقان فيه. ولذلك كان وعدُ الله لعباده المؤمنين بالتمكين مشروطاً بالإيمان، وأن يكون مصحوباً بالعمل والأداء، وأن يكون العمل صالحاً مستصحباً روح الإحسان والإتقان والاجتهاد.

إن النوايا وحدها لا تكفي لاستحقاق الاستخلاف والتمكين في الأرض، فذلك له ثواب الآخرة، أما التمكين والاستخلاف في الأرض والتوفيق في العمل في الدنيا فمشروطٌ بالإحسان والإتقان والاجتهاد، فذلك المنهج هو الذي يهدي -بتوفيق الله- إلى السنن، وإلى وجوه الحق والحقيقة في

الأداء، وإلىٰ التوفيق في العمل والنجاح فيه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ...﴿٥٥﴾﴾ [سورة النور: ٥٥].

هذه الرؤيـة الكونية الشاملة الواضحة أصابتها علىٰ أيدي جمهرة المفكرين المدْرَسِيين المعزولين المنعزلين المنقطعين للدراسة والتأملات والأبحاث النظريـة، المركِّزين علىٰ حالات أفراد المجتمع وحاجاتهم، تشوهاتٌ خطيرةٌ، أسهَمَتْ -وبكل حسن النية، وعلىٰ المدىٰ الطويل- في ذبول روح الإسلام وقوة دفعها في رؤية الأمة، ومكَّنت لعوامل التخلف في كيانها كي تفعل فعلها؛ بحيث تخمد طاقـة التجدد فيها، وتسلم الأمـة إلىٰ حالة من السلبية وانعدام الوزن، وتُقْتَلُ فيها كل إرادة للبحث والتنقيب والتجدد والدفع، وتسلم نفسيتها وكيانها إلىٰ منحدرات المحاكاة والتقليد، ويُهدم فيها معنىٰ الجماعة والأمة وتكافلها، وتنهار مؤسساتها، وتتمزق وحدتها.

نلمس هذا بوضوح في الرؤية التي يقدمها الفقه والكلام، ويكون بها أسس التكوين التربوي والنفسي للفرد المسلم، فهي -في جوهرها- رؤية فردية لا رؤية جماعية، رؤية تنبثق من طبيعـة العلاقة بين العلماء والعامـة، وهي تتعلق بالشؤون الشخصية لا بالشؤون العامة، ولا بأنظمتها ومبادئ تسييرها وطبيعة مكوناتها وروابطها، وفي مثل هذه الرؤية وهذا الفكر لا يكون للتربية والمشاركة السياسية والعلاقة الجماعية وشؤون الحكم وموازين الإخاء والعدل والشورىٰ أي دور في تسيير الحياة العامة للأمـة. وهي في نهاية المطاف رؤية سلبية لا تتفاعل مع كل أبعاد الحياة ولا تنفعل بها، ولا تتابع

مجرياتها ومتغيراتها، ولا تدفع عجلة أدائها الحضاري.

فالهم الحاضر والشغل الشاغل للعاكف في المسـجد هو الانشغال بما يعبر عنه بمصطلح الرؤية القرآنية: "الذكر" و"الشعائر" التي تصبح في منطق هؤلاء المنقطعين إلىٰ الذكر والدرس في المساجد محصورةً في "العبادات" كما عبر عن ذلك مصطلح علم الفقه، فيسهبون في تفصيل أدق حركاتها وسكناتها، وينقسمون نحوها مدارسَ ومذاهب ويتوزعون بشأنها شيعاً وأحزاباً، فانصبّت علىٰ شؤون الحياة الفردية دون شؤون الحياة العامة أو السياسية، وليطلقوا عليها مصطلح "المعاملات" كما عبر عن ذلك علم الفقه.

والمقصود بالمعاملات مجموع المعالجات والضوابط الفقهية القانونية لشؤون تعاملات حياة الفرد المسلم، وما يتعلق بها من القواعد والعقود. وهذه تكاد تتجرّد من البُعد الروحي، لأن أداء أي معاملة أو عدم أدائها هو لأنها أمرٌ دنيويٌّ لا يتعلق بمزاولته ثوابٌ، ولا يكاد يلحق بتركه أو عدم مزاولته إثمٌ أو عقابٌ.

إنّ هذه الرؤيـة الفقهية واهتماماتها تختلف كلية عن الرؤية القرآنية التي تنظر إلىٰ الإنسان نظرة شمولية، لا تفرق بين مسؤولياته الفردية في حفظ النفس ومسؤولياته الجماعية في حفظ المجتمع والأمة، ويشمل بعدها الروحي كلَّ أعمال الإنسان، وتجعل من كل أعماله دون تفرق "عبادة" بحسب الغاية والقصد، حتىٰ إن كان ذلك من أعمال البضع وشهوات النفوس. فحياة الإنسان المسلم في الرؤيـة القرآنية كلها **ذكر وجهاد**، وكلها **تعبد وعبادة**.

فحياة المسلم في الصلاة والدعاء والصوم والزكاة وتلاوة القرآن وتعظيم الشعائر وأداء المناسك تحيي ضمير المسلم، وتعينه على أداء واجباته والوفاء بالتزاماته: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤]. ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة: ١٩٨]. ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾ [البقرة: ٢٠٣]. ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]. ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم ٢٣٩﴾ [البقرة: ٢٣٩]. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ٤٥﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ١٣٥﴾ [آل عمران: ١٣٥].

حياة المسلم هي في العمل والسعي في كلِّ شؤون حياته الخاصة والعامة وفق الرؤية القرآنية، وهي كلُّها جهاد واجتهاد في كلِّ شيء يفعله، جهاد في طلب العلم، وفي طلب الرزق، وفي تهذيب النفس، وفي القيام بواجبات العدل وحماية المستضعفين، والسعي في حاجات الأمة، والذب عن ديار المسلمين، وفي تبليغ دعوة الحق والدين.

إن هذا الجهاد والاجتهاد في شؤون الحياة الإسلامية من أهم غايات أعمال الذكر في حياة المسلم؛ لأن حياةَ المسلم كلٌّ لا يتجزّأ في قصد الخير وترشيد السعي اتباعاً وطاعةً للحقِّ سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ

صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

فبقدر ما كانت الرؤية الكونية الإسلامية صافية فعالة شمولية إيجابية؛ كانت رؤيةُ عصر العزلة والمدرسية -فكرياً- رؤيةً منكفئةً على نفسها في جُلِّ ممارساتها، وكانت ناقصةً، جزئيةً، سلبيةً، وكانت عملياً في حياة الناس ممارسةً قبليةً عرقيةً فرديةً أنانيةً. وسوف نرى فيما بعد آثار هذه التشوهات الخطيرة في مفاهيم الأمة الثقافية، وفي بنائها النفسي وأدائها الحضاري؛ بحيث بلغ بها الحال إلى ما هي عليه الآن من العجز والتخلف والهوان.

التشوّه الثاني: التشوّه المنهجي

والتشوه الثاني الذي نجم عن عزلة العلماء والمفكرين وعزلهم هو -في أحسن حالاته- تشوهٌ معرفيٌّ منهجيٌّ، حَوَّل الفكر الإسلامي إلى فكرٍ نظريٍّ؛ غارقٍ في تأملات نظرية مدرسية، لا تجد طريقها إلى الحياة الاجتماعية بالتنقيب والملاحظة والتجريب، وهو تشوه أدى إلى عقمٍ منهجيٍّ خطير، جعل المعرفةَ عمليةَ استظهارٍ وتقليدٍ ومحاكاة، يغيب فيها كل أثر فعّال لعنصري الزمان والمكان، ومعرفة سنن الطبائع في الخلائق والكائنات.

وقد ساعد على إحداث هذا التشوّه المنهجي -إلى جانب العزلة- الطبيعةُ النظريةُ الميتافيريقية الصورية للفلسفة والمنطق الإغريقي، وما أدى إليه الانبهار بهما وتأثيرهما على المناخ الفكري للأمة من إضعاف الفكر العملي

التجريبي، والفضولِ العلمي الذي دعت إليه المفاهيم الإسلامية: في النظر، وفي السير في الأرض، وفي التفكر والتدبر، وفي القياس والمقارنة. وقد أدّىٰ ذلك كلّه إلىٰ العجز الفكري والتوسع في طلب النصوص، وإضفاء قهر القدسية عليها، مداراة منهم لذلك العجز الفكري، كما ضَعُفَتْ أدواتُ الاجتهاد ووسائله الضرورية اللازمة لتوليد المعارف الإنسانية التي تتكامل مع معارف الوحي وهدايته، وتوليد المعارف اللازمة لنماء الأمة واحتواء المتغيرات، ولإمدادها بما تتطلبه من فكر قادر علىٰ مواجهة التحديات، والإفادة من الإمكانات.

وبسبب هذا التشوّه المعرفي المنهجي بقيت منطلقات العلوم الاجتماعية في الفكر الإسلامي علىٰ هيئة عناوين ومبادئ مجردة، وعلىٰ شكل مصادر ثانوية في ميدان علوم الفقه وأصوله، واقتصر مداها ودلالاتها النظرية علىٰ الحياة الفردية.

حتىٰ حين تهيأت الفرصة لأحد كبار علماء المالكية، بما تيسر له من الممارسة والاشتغال الواسع بالسياسة والحياة العامة، أن يفتح أمام الفكر الإسلامي باب المعرفة الإنسانية الاجتماعية، ويكشف -مبدعاً- الكثير الثمين من مكنونات أسرارها، ومغاليق أبوابها، وفهم طبائعها وعوامل تفاعلاتها ومتغيراتها، ومعرفة أوجه التأثير فيها في كتابه العَلَم "المقدمة"،[1] فإنّ هذا الفكر المبدع -وبسبب عقلية العزلة- قد هُمِّش، كما هُمِّش فكرُ كثيرٍ سواه من المبدعين.

---

(١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ، ١٣٣٢-١٤٠٦م) صاحب كتاب المقدمة.

ولم يكن كتاب ابن خلدون من قراءات العلماء، ولم تكن مواضيعه من اهتماماتهم، وبقي مشروع البحث في آيات العلم والمعرفة السننية الحية مشروعاً معطلاً لم يكتب له -مع جدب الحياة العلمية المدرسية النظرية النصية- النهوض، حتى صحت الأمة على كنوز المعرفة الاجتماعية التي شهدها الغرب -على أساسٍ من منطلقات ابن خلدون ومنهجه السنني في مجالات العلوم الاجتماعية في التاريخ وفلسفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد والتربية- والتي فتحت للغرب أبواباً وآفاقاً واسعةً مكنت لأممه من أن تزود ناشئتها بروح المبادرة والقدرة الإبداعية، وإقامة التنظيمات الاجتماعية، ومواكبة المتغيرات، ومواجهة التحديات.

ولا بأس أن نسوق هنا مثلاً نوضح به أثر تشوه المنهجية في رؤية طلاب العلم واهتماماتهم وأسلوب معالجاتهم للقضايا الاجتماعية، التي تُظهِر حقيقة عزلتهم في زوايا الحفظ والاستظهار. فقد كان أحد فضلاء المفتين في إحدى البلاد الإسلامية يلقي خطبة جمعة عالج فيها موضوع الطهارة، وكانت معالجته للموضوع -والحق يقال - بأسلوبٍ سلسٍ بليغٍ وضَّح فيه للسامعين معاني الطهارة الدينية وأحكامها، وما يزيلها وما لا يزيلها وفق أفضل ما تقرره وتعرضه كتب الفقه وأحكامه.

وبعد انقضاء الصلاة -وعلى عادة الرجل وكرم خلقه في استقبال الناس في مكتبه في المسجد- سلمتُ عليه وجلستُ إليه وذكرتُ لـه -بكل الأدب واللباقة وحسن المدخل اللائق بعلمه ومكانته وكرم خلقه- سروري من خطبته وبلاغة عرضه وسلاسته وشمول تعرضه لأحكام الموضوع الفقهية،

ذاكراً لـه أن الخطبة في رأيي كان ينقصها التعرض لموضوع النظافة وتحقيق الوقاية الصحيحة بشكل متكامل، مشيراً إلىٰ أن عدم إيضاح هذا الجانب وإغفاله قد يؤدي إلىٰ استهانة العامة بالنظافة وعدم الوعي بأهميتها، والنظر إليها علىٰ أنها قضايا ثانوية شخصية تثقل الكاهل بلا ضرورة، بل لعل بعض القضايا التي تمَّ عرض الموضوع من خلالها تحمل علىٰ قبول التلبس بالقذارة دون حرج شرعيّ، مثل النخامة التي قد تحمل أمراضاً معديةً، وكذلك بعض ما يلحق الثياب من القذارات التي لا تنقض فقهياً -لا صحياً- الطهارة ولا تزيلها، وبذلك نكون -ونحن نعلّم الناس الطهارة- قد علّمناهم علىٰ عدم المبالاة بالقذارة، وعلىٰ الاستهانة بالنظافة وبمتطلبات حماية الصحة العامة.

وكان حواراً علمياً ودياً بيننا تقبَّله فضيلته بصدر رحب، مما يدل علىٰ أننا في حاجة إلىٰ تبادل الرأي، وتوسيع دائرة المعرفة، وفهم إشكالات حياتنا وثقافتنا، وإصلاح منهج المعرفة، وإزالة العُزلات، وتجنب أحادية المعرفة.

ومن المهم هنا الإشارة إلىٰ أنه حتىٰ حين يشير بعضهم إلىٰ موضوع النظافة في مثل هذه المواقف فإنه يقف بها عند حد أخذ الزينة حين ارتياد المساجد للجُمع والجماعات. إن التوعية بشؤون النظافة والوقاية الصحيّة تُعَدُّ في الحقيقة جزءاً هاماً من الهدف من الطهارة التي عبر عنها سلوك الرسول القدوة ﷺ حينما كان يأمر بها المجتمع من حوله، حتىٰ إنه ﷺ حينما رأىٰ فِناء دار من دور المسلمين في حالة من الفوضىٰ أمرهم بنظافته والعناية به، محذراً إياهم من أن يتهاونوا في النظافة، ودعاهم إلىٰ العناية حتىٰ بأفنية دورهم، وألا يتشبهوا باليهود في إهمالهم للنظافة. ويبدو أن جزءاً كبيراً من الأمة قد أصيب

اليوم بما كان عليه اليهود من الأمراض النفسية والاجتماعية، التي كانت سائدة فيهم على عهد الرسول ﷺ.[1]

وبسبب التشوّه المنهجي أصبحت المعرفة نصيةً حرفيةً جزئيةً تقوم على التقليد والمتابعة والمحاكاة والاستظهار، وغرقت في التعقيد والحواشي والمختصرات. وجُزِّئَتْ المعرفة، وباعدت بين العقيدة وممارسة الحياة، فاختص فيها علمُ التوحيد بالعقائد المجرَّدة أو ما يسمى "علم الكلام" الذي اتسم في كثير من جوانبه بالجدليات والسفسطات اللاهوتية، وانفصل "علمُ الفقه" عن علم العقائد، واستقل بشؤون تفاصيل ممارسات الحياة الفردية، معتمداً في دراساته واجتهاداته على منهج يعتمد القياس الجزئي على ما سلف من حالاتٍ متفرقةٍ دون أن تؤخذ فيه الصورةُ الكليةُ في الحسبان، وأصبح جُلُّ ما يعتمد عليه المتأخرون هو المفاهيم اللغوية للنص، فتبذل غاية الجهد في طلبه، ولو بالتغاضي عن ضعف بعض الروايات أو غرابتها.

وهكذا أصبحت المعرفة النصِّية في عصور العجز والجمود والتقليد غايةً تُطلَب ليغطي قهرُ القداسة عجزَ المعرفة، وفي الوقت نفسه تُستخدَم مادةً

---

(١) فقد جاء في الحديث: "حدثنا محمد بن بشار، جدثنا أبو عامر القعدي، حدثنا خالد بن إياس، عن صالح بن أبي حسان، قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: "إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا -أراه قال- أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود، قال: فذكرت ذلك لمهاجر بن مسمار، فقال: حدثنيه عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، عن النبي ﷺ مثله، إلا أنه قال: نظفوا أفنيتكم". انظر:

- الترمذي، محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح «سنن الترمذي»**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج٥، ص١١١، حديث رقم: ٢٧٩٩.

تُحْشَىٰ بها رؤوس الطلاب دون عظيم دراية أو اهتمام بآثار تلك المعارف، ومدىٰ ملاءمتها للدارس، ودورها في تكوين عقليته وبناء نفسيته،[1] حتىٰ إننا نَعجب لما يباهي به بعضهم، من موهوم مناقب الأئمـة، من أنّ بعضهم قد جَشَّم بعض أبنائه استظهار عشرات الآلاف من النصوص المكذوبة، حتىٰ يعرف مكذوبَ الحديث، فلم يتنبهوا إلىٰ أن حفظ المكذوب والزائف من المعاني سيكون لـه أثره العقليّ السلبي علىٰ الدارس، وأن الأَولىٰ أن يبذلَ الطلابُ جهودهم في معرفة ما هو صحيح من الرواية وحفظه، وأن كل ما عدا الصحيح ليس صحيحاً، أما الزائف والمكذوب فلا نهاية لـه، وليس لزيادته حد، ويكفي في بابه إدراك غاياته ومآربه ومداخله ووسائله، مع استعراض نماذج منه، والتصدي لما يشيع منه، والرد عليه.

وأيضاً فإن من باب الغفلة عن الآثار النفسية للمعارف في فكر الأمـة، والإغراق في الاهتمام بكمِّ المعارف، ما نعيشه حتىٰ اليوم في مجال التعليم الديني، إذ تُحشىٰ رؤوس الأطفال بالمعلومات التي لا تناسب عقليةَ الطفل ولا بناءَه النفسي، ولا يقف ضررها عند حشو رأس الطفل بما لا حاجـة إليه،

---

(١) السنة النبوية مصدر غني ومهم، وهي نموذجٌ تطبيقيّ حيّ في واقع المجتمع الإنساني علىٰ عهد رسول الله ﷺ، ويثبت إمكانية تطبيقها في واقع الحياة البشرية، ولكن يجب أيضاً فهمها وفهم ظروف تطبيقاتها الزمانية والمكانية، حتىٰ ندرك حقيقة دلالاتها، ويجب الحرص علىٰ الصحيح منها فقط؛ فنُعمِل في تحقيقه كافة الأساليب العلمية من حيث نقد السند ونقد المتن، وأهمها اتساق معاني النصوص مع مبادئ القرآن الكريم ومفاهيمه ومقاصده. أما ما صحّت معانيه من النصوص التي لا يوثق بسندها فتكون من باب الآثار، ويستفاد من المعاني المشتملة عليها دون حاجة إلىٰ أن نضفي عليها أستار القداسة، لأن قبولها حينذاك يكون مستنداً إلىٰ فيها من المعاني، وفي ذلك الكفاية.

بل إنّ ذلك الحشو -وبهذا الأسلوب- يحرمه من أساليب التعليم والعرض التي تسهم في بنائه النفسي في مراحل نشأته ولين عوده، وبفوات هذه الفرصة التربوية الوجدانية -وهو في سن الطفولة المبكرة- تكون قد ضُيِّعَتْ فرصة بنائه النفسي السليم إلىٰ غير رجعة.

ومن أمثلة ما يُحشىٰ به عقل الطفل -وهو قليل الفائدة- ما يستظهره الطفل الصغير في المرحلة الابتدائية من مقادير الزكاة ونسبها في الإبل والبقر والغنم والزروع. فكثير من هؤلاء الأطفال لم يعد يرىٰ الإبل، ولعله لن يملك في أي يوم من الأيام بقراً ولا زرعاً ولا غنماً، فلماذا يحشىٰ رأسه بهذه التفاصيل الفقهية الجافة، وفي أمور لا تتعلق بواقع حياته. حتىٰ إن ألزموا مثل هذا الطفل استظهار زكوات عروض التجارة الرائجة من أسهم وعقارات وصناعات، فكم من هؤلاء سيصبح عاملاً من عُمّال جمع الزكاة؟ وهل سينفعه حين يكبر ويمتلك الأسهم والعقارات تذكّرُ ما استظهر من النسب والمقادير؟ أم أنه سيطلب القول اليقين في ذلك عند أصحاب الاختصاص؟

ولا يقف الضرر عند هذا الحد من حشو رأس الطفل بما هو قليل الجدوىٰ، وليس الأسوأ والأدهىٰ أن مرحلة الطفولة هي المرحلة التي يتم فيها البناء النفسي والوجداني الذي تتطبّع به النفوس، وتنشأ معه العواطف، وتتشكّل به المفاهيم، ويتكوّن عليه الوجدان، ولذلك فإن الأولىٰ في مراحل تنشئة الطفل، أن يتم تعليمه، في مجال الزكاة مثلاً، معاني التكافل والرحمة والتضحية والإيثار ومشاركة الضعيف والعاجز والمحتاج، علىٰ ألا يتم التعليم بمجرد التلقين، وإنما بكل الوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية، وبالأساليب

التربويـة العملية الفعَّـالة، ومنها مثلاً مخالطة المحرومين والعاجزين والمعوقين، وخدمتهم وتقديم العون لهم، وإدراك معاني حاجتهم ومعاناتهم.

إنّ تفويت فرصة التكوين النفسي، والاستعاضة عنه بمثل هذا الحشو المعرفي الذي يصبح هدفاً في حد ذاته، دون تنبُّه إلىٰ دور ما يقدم من معلومات، وعدم ملاحظة أثره السلبي في تكوين عقلية الصغار وتربية الناشئة، هو غفلة عن طبيعـة الطفولة ودور علاقـة المعرفي بالنفسي الوجداني في بناء الشخصية الإنسانية وتنميتها. وهذا واحد من موروثات التشوّه المنهجي الذي أصاب الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية في عصورها اللاحقة.

التشوّه الثالث: تشوّه المفاهيم

وثالث التشوهات الخطيرة التي أصابت الفكر الإسلامي والعقل المسلم نتيجة عزلة العلماء، وما نجم عن ذلك من عجز فكري وجمود وتوظيف لخطاب الترهيب، لإخماد روح المحاكمة والنقد، وإرغام العامـة -بسبب العجز الفكري- علىٰ استسلام المتابعة والقبول، هو تشوّه المفاهيم؛ لأنه ما كان بالإمكان أن تُخمَد روح المحاكمة، وطلب الاقتناع، وأن تستسلمَ عامة الأمة للإملاءات، إلا بأن يمتد التشويه إلىٰ كثير من المفاهيم الإسلامية الأساسية؛ بما يسهِّل المهمة، ويهيِّئ العقول والنفوس للخضوع والمتابعـة والاستسلام.

تشوّه مفهوم العبودية:

إنّ مفهوم "العبودية" يُعدُّ واحداً من المفاهيم الإسلامية الأساسية، وقد أدىٰ تشويهه إلىٰ تشويه كثير من المفاهيم الإسلامية الأخرىٰ؛ لتتضافر المفاهيم

المشوَّهة وتتمكَّن من إحكامِ القهر النفسي، وإلغاءِ العقل الناقد، والحجرِ علىٰ التفكرِ والبحثِ والاستقصاءِ، والاكتفاءِ بالدعاوىٰ ودغدغة الأحلام دون طلب النتائج وتقصي الآثار.

فالمسلمُ -كما أراد له الإسلام- عزيزٌ، وهو خليفةٌ مكرمٌ، وعبوديته لله هي مثار عزة وكرامـة، لأنها تعبير عن إرادة حرة في معرفة الحق واتّباع طريقه السوي القويم. والمسلمون المؤمنون هم عباد الله المخلصون، وليس صدفة أن الله سبحانه وتعالىٰ خاطب الإنسان في القرآن الكريم بلفظ (عِبَاد) -بكسر العين وفتح الباء- ومنها (عُبَّاد) -بضم العين وتشديد الباء المفتوحة-. فقد جاء اللفظ من (التعبيد) وليس من (الاستعباد) خلافاً للفظ (عبيد).

إنّ هذا أشبه باستعمال كلمة "الذل" في القرآن الكريم، فذل المرء لأبويه -بحكم طبيعة علاقته بهما في سياق القرآن الكريم- مشتق من التذليل والتيسير، وليس من المذلة والمهانة، يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٤].

أما أن يُخلَط بين خطاب الله للكافر المكابر الجاحد المحارب وخطابه للمؤمن المعبَّد المقبل عليه، وأن يصبحَ مفهومُ "عبوديته" مشتقاً من "الاستعباد"، ويصبحَ هذا المفهوم الأخير مشجباً لكل ألوان المهانة والتهديد والوعيد وقهر الضمير، وأداةَ تحقيرٍ، وسحقِ كرامـةٍ، وإلجامِ عقلٍ، وحاجزاً بين المخلوق والخالق، فهو خلطٌ لا أساس ولا داعي له، لأن الإنسان مخلوق محدود، والله هو الخالق المطلق، ولا مجال أصلاً للمقارنة بين المخلوق والخالق، ولا معنىٰ لإثارة مثل هذه الدعاوىٰ وتلك المقارنات في غير موضعها،

وإشهارها في مواجهة العقل المسلم المؤمن غير المكابر أو المعاند.

وبتشويه مفهوم "العبودية" وترويج هذه المقارنات أمكن التهوين من شأن العقل، وأصبحت تساؤلاته وتفحصاته موضع الاتهام، بالإنكار والعصيان، وقد أسهم هذا التشويه في قهر ضمير المسلم ومصادرة حقه في التفكير والنقد.

لقد أدىٰ هذا الموقف الاستعلائي من قِبَلِ طلبة العلوم الدينية، الذين قلّت بضاعتهم في العلوم الإنسانية وفي معرفة سبل تنـزيل معارف الوحي علىٰ واقع حياة الناس، إلىٰ انصراف كثير من المفكرين إلىٰ الفلسفات الدخيلة والموروثة من حضارات وثقافات الأمم الأخرىٰ التي دخلت الإسلام، دون منهج يهتدي به هؤلاء المفكرون في خوض غمارها، علماً بأنّ جُلَّ تلك الفلسفات والموروثات ترجع إلىٰ تهويمات ميتافيزيقية عارية عن الهداية الربانية، مما كرَّس صراعاً ومواجهةً موهومةً في الفكر الإسلامي بين "العقل والنقل"، وزاد من وهنِ عزم الأمـة، وضعفِ فكرِها، وتشتيتِ جهدِها، وانتهىٰ ذلك الصراع إلىٰ تشويه مفاهيم الإسلام لتغطيةِ عجزِ الفكرِ، وترويضِ العقل المفكر الناقد، والحطِّ من شأنه.

إنّ من المهم إدراكَ العلاقة بين المفاهيم الأساسية الإسلامية المتمثلة في مفهوم التوحيد، ومفهوم الإرادة، ومفهوم العبودية، ومفهوم الاستخلاف، ومفهوم التزكية، ومفهوم العمران.

فمفهوم التوحيد ليس قضية كهنوتية تقف عند أوصاف مجردة للذات الإلهية، ويتولىٰ فئات من البشر الحديث عنها بالنيابة، ولكنه مبدأ ديني،

ومفهوم إسلامي، له دلالته في حياة البشر، وفي فهم معنى هذه الحياة، وفهم الغاية منها.

مركزية مفهوم التوحيد ودلالاته الحياتية:

إن أهمية مبدأ التوحيد في الإسلام تتمثل في أنه يشكل إطاراً لفهم الحياة والكون، ويرسي مبادئ العلاقات الإنسانية والأسس التي ترتكز عليها، وإن أي إخلال بهذا المبدأ أو المفهوم له آثاره الخطيرة في معنى الحياة الإسلامية، ونوعيتها، والغاية منها.

فمبدأ التوحيد يعني وحدانية الخالق، وهذه الحقيقة تعني وحدة خلق الكون، ووحدة الحياة والإنسان، وغائية الخلق والكون وتكامله، لا تعارضه، وتعني قصد الخير في الخلق، فلا مجال للاستعلاء أو الجور أو الاستبداد بين البشر، وبذلك فإن مبدأ التوحيد يحتم التزام مبادئ العدل والشورى والمساواة في الحقوق، وفي الكرامة الإنسانية، وفي حرية الإرادة والمسؤولية الإنسانية.

ولبّ مفهوم العبوديّة هو الغائية الخيرية وحرية الإرادة والمسؤولية الإنسانية التي تتمثل في مبدأ التوحيد، وفي مبدأ الاستخلاف الذي ينبني عليه مفهوم التزكية ومفهوم الإعمار؛ إذ على الإنسان فرداً كان أم جماعة السعي إلى تحقيق غايات الخلق الخيِّرة، وفق ما أودع الله فيه من السنن، في النفس وفي الكون من حوله، على أساس هداية الوحي وسنن الفطرة التي أودعها الله في الكائنات.

وبهذا الفهم المتسق بين منظومة المبادئ والمفاهيم والرؤية الإسلامية الكلية يصبح مفهوم "العبودية" -كما عبّر عنه القرآن الكريم- مصدرَ اعتزازٍ

وقوة وثقة في ضمير المسلم، وفي بنائه النفسي والوجداني، وليس استعباداً للنفس الإنسانية، ولا مصدراً لأحاسيس المذلة والمهانة والخنوع والسلبية.

ومن المفيد في هذا المقام الاستعانة ببعض نصوص القرآن الكريم التي تصل القارئ الكريم بالمصدر الأساس لمبادئ الإسلام ومفاهيمه في التوحيد والعبودية والتزكية، وفي الاستخلاف والإصلاح والعمران، على النحو الآتي:

في التوحيد والعبودية والتزكية:

تجعل آيات القرآن الكريم مبدأ الوحدانية مبدأً أساسياً لقيام الكون وأساساً لصلاحه وحفظه، فالله هو الواحد وهو الخالق وإلا كان مصير الكون الفساد، وهو بذلك مصدر المعرفة بحال الكون الذي يهدي الخلائق والإنسان في مسالكه ودروبه، وله وحده حق التوجيه والطاعة في أمر الكون، وفي غايته وصلاح أمره، وعلى طريق الإيمان بالخالق والإحساس في الأداء يكون الصلاح، وتكون العزة وحسن المآل في الدارين.

يقول الله سبحانه وتعالى في تقرير مبدأ الوحدانية ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ويجعل الله سبحانه وتعالى الإحسان وتعبيد النفس سبباً للصلاح ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

والصلاح سبيل العزة في الدارين، يقول الله في كتابه العزيز: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

في الاستخلاف والإصلاح والإعمار:

ومن المفيد أيضاً أن نذكر بعض الآيات التي يفصل القرآن الكريم فيها سبيلَ الهدىٰ والصلاح، ومآلَ المستخلف المؤمن المتقن الصالح الذي يسعىٰ بالصلاح، كما يفصل فيها القرآن الكريم سبيل الجحود والضلال، ومآل الجاحد الضال. يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]؛ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤]؛ ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]؛ ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥]؛ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧]؛ ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]؛ ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٩]؛ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

وفي كتاب الله المزيد للمستزيد، كما أن في صحيح السنة -متناً وسنداً- كنوزاً من الهداية والتوجيه ما يزال الكثير منه ينتظر الجهود العلمية للإفادة منه

في تربية النشء، وإصلاح منهج فكره، وتنقية ثقافته، وحسن توجيهه.

التشوّه الرابع: تشوّه الخطاب

والتشوّه الخطير الرابع الذي أضر بالعقل والوجدان والنفسية المسلمة هو تشوّه الخطاب الإسلامي في عهد الفصام بين النخبة الفكرية الإسلامية والنخبة السياسية، وما أورثه هذا الفصام والعزلة من عجز فكري حوَّل فكر الممارسة والاجتهاد والتجديد والإبداع إلى فكرٍ مدرسي نصِّي مغلق، ينعدم -في عصوره المتأخرة- الاجتهادُ، ويقوم على التقليد، بحيث ينتهي إلى أن يصبح النص الضعيف، الذي قد لا يكون صحيحاً عند بعضهم، أولى من الرأي.

وتشوه الخطاب في تلك الظروف جاء نتيجةً حتميةً لفكر العزلة والفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية. ولا علاقة لذلك -في عمومه- بالنوايا؛ إذ تحول الخطابُ من خطابِ فكرٍ ونظرٍ وتدبرٍ واقتناعٍ وقدرةٍ على الاجتهاد والتجديد واحتواء متغيرات الزمان والمكان، إلى خطابِ إرهابٍ وقهرٍ وقمعٍ، اعتمد -في كثير من الأحيان- على أكداسٍ من روايات آحاد أصحاب "الغفلة" و"المدلّسين" و"الحكواتية" وأصحاب الأغراض، وعلى سوء التأويل لنصوص خطاب قُصِدَ به الجاحدون والكفار والمستكبرون والمحاربون، فأضاف خطاب الترهيب الديني -وهو على هذه الصورة- ضِغْثاً على إِبّالة في سحق روح العامة.

ولم تأتِ عبثاً مقالة أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -من مدرسة الرسالة- إلى مؤسس دولة المُلْكِ العضوض، حينما وقف معاوية بن أبي سفيان على المنبر

يخطب حول موارد الأمة وبيت مال المسلمين الذي يطلق عليه اسم "مال الله" -مستعيناً في ذلك بأدوات قهر القدسية- فيقف لـه أبو ذر معارضاً ومصححاً ومذكّراً إياه بحق استخلاف الأمة في مواردها وثرواتها ومساءلة حكامها والعاملين عليها، بشأن حسن التصرف بها، وأدائها إلىٰ أصحاب الحق فيها، قائلاً لـه: "بل مال المسلمين".

ليس عجيباً أن تصل الأمة إلىٰ ما وصلت إليه من التمزق والسلبية والتخلف إذا كانت نظرةُ المسلم إلىٰ المجتمع مغشاةً برداء مشاعر ضعف الفردية وانعدام الإحساس بأمن تكافل الجماعة، وكانت نظرتُه إلىٰ العمل والسعي في الحياة سلبيةً مفرغةً من بعدها الحضاري والإعماري ومن مدلولها الروحي. وعندما تتشوه مفاهيم المسلم تصبح هذه المفاهيم أداة حطٍّ من قيمة عقله، ووسيلةَ هدمٍ لثقة الإنسان بنفسه.

وليس عجيباً أن تصل الأمـة إلىٰ ما وصلت إليه من السلبية والتخلف وهي تعاني من إرهاب الصفوة الحاكمة، التي لا تعرف وسيلة للتعامل مع معارضي سياساتها وأصحاب الرأي المخالف لرأيها ومصالحها إلا سياسة الردع والقمع ونصب السوط والسيف والنطع، وفتح باب السجون للمعارضين، وما ذلك إلا بسبب عجزها عن احتواء المتغيرات، وافتقارها إلىٰ القاعدة الفكرية التي تعينها علىٰ التطور والاحتواء وحسن الأداء وكبح جماد الفساد.

فإذا أضيف إلىٰ الإرهاب السياسي وأغلاله وسجونه إرهابُ الخطاب الديني -المتمثل في جهنم ولظىٰ الجحيم وأهوال القبر ويوم الحشر: الذي ينتظر المؤمنين عقاباً لهم علىٰ صغير خطاياهم وكبيرها، وهي عذابات

تترصدهم في كل حركة وسكنة يتململون بها في لباسهم ومأكلهم ومشربهم- أدركنا بعض أسباب خمود روح الأمة وغيبوبتها وسلبيتها وعجزها، وأسباب تفجرات أحداثها.

ومن الأمثلة المباشرة التي تقرب إلىٰ ذهن القارئ بعض ما أصاب الخطاب الإسلامي من تشويه؛ ما شاهدته في مؤتمر إسلامي عالمي موضوعه عن الوحدة الإسلامية، وكانت المحاضرة عامة والقاعة غاصَّة بالحاضرين والمشاركين. ولأنّ الموضوع -فيما يبدو- لم يكن من معارف المتحدث وقدراته، فقد أخذت القاعة تتململ في متابعة الخطاب، وإذا بالمتحدث يتحول بالحديث -وبشكل مفتعل ومفاجئ، ودونما مناسبة واضحة- إلىٰ الحديث عن الموت، وكيف سيلاقيه هؤلاء البشر، وما ينتظر المسيء منهم. فكانت أمامي صورة حية مذهلة معبرة عن سوء استخدام خطاب التذكير، وتحويله إلىٰ خطاب إرهاب وتوعّد يلغي به المتحدث عقل المخاطب في محاولة يائسة منه للسيطرة علىٰ القاعة وعلىٰ جمهور المستمعين، وشل قدرتهم علىٰ النظرة الناقدة والمحاكمة الواعية لما يعرضه عليهم من خطابه وفكره.

ومن الأمثلة الفجَّة لأسلوب استخدام الإرهاب الفكري وسوء استخدام رموز القداسة؛ ما لجأ إليه أحدهم في خطبة الجمعة بشأن أمر من أمور الهيئة، وهو موضوع إطلاق اللحية، إلا أن ذلك الخطيب لم يكن لديه الشيء الكثير الذي يمكن أن يوضح به للجمهور الحكمة من إطلاق اللحية، فآثر فرض وجهة نظره بإرهابهم؛ وذلك من خلال تحويل هذه القضية الهامشية من كونها قضية من قضايا الهيئة، مثلها في ذلك مثل شعر الرأس

وأزياء اللباس، إلى قضية عقيدة وإيمان، وكفر وعصيان، حيث أنه افتراض أن حليقي اللحى هم بالضرورة منكرون للسنة، والمنكر لأمر النبي ﷺ منكر للدين، ومنكر الدين كافر.

والإشكال في الأمر هنا هو الفكر والمنهج الذي ما زال يسمح حتى اليوم لهذا اللون من الخطاب ومن التعليم باستخدام النصوص وتوظيفها وتوظيف قدسيتها بشكل عشوائيّ، دون تحقيقٍ علمي ومنهجية شمولية تتكامل فيها مصادر المعرفة، ودون تربية وتعليم ينشئ عقولاً واعية ونفوساً ناضجة تدرك أطراف القضايا المطروحة في واقع الحياة والمجتمع.

ولأن التربية وتعليم العقيدة والدين والثقافة كانت تمارَس بمثل هذا النوع من الخطاب كان أثر التعليم الديني -في أغلب الأحيان- ضعيفاً وغيرَ إيجابي، ومن الممكن استقراء ذلك وملاحظته في ضعف استجابة عامة أبناء الأمـة لما يلقى عليهم من مواعظ، كما يمكن تحسسه في عواطف الطفل نحو هذه المعارف وأساليب تلقينها وتعليمها.

يكفينا في هذا الموضع أن نشير إلى أنّ رسول الله ﷺ كان أباً وجداً ومربياً ناجحاً، وأنه لم يضرب طفلاً قطّ، لأنه كان حفياً رفيقاً بالأطفال والناشئة.

ومن الأمثلة التي توضح ترفق الخطاب النبوي بالناشئة، وإدراكه مداخل نفوسهم، ما وقع بينه وبين الفتى اليافع الذي بلغ الحِلْمَ وأقضَّ مضجعه ما استيقظ في جسده من نوازع الإنجاب والعشرة، وأتى إلى الرسول ﷺ يستأذنه في الزنا، فهدّأ الرسول من ثائرة من رأى في طلبه مجافاة لأدب خطاب رسول

الله ﷺ، وأمرهم ﷺ أن يفسحوا له، وأدنىٰ في رفق مجلسَ الفتىٰ منه. وما يهمنا تربوياً هنا أنه أخذ الفتىٰ بالرفق ولم يخاطبه خطاب تهديدٍ ووعيدٍ، ولا خطاب حرمةٍ وجحيم؛ لأن الفتىٰ لم يأتِ ليطلب معرفة حكم، ولكنه جاء يطلب حلاً ومخرجاً ممّا يعاني، ولذلك رأينا الرسول ﷺ -بفهمه لطبائع النفوس- قد بلغ أعماق نفس الفتىٰ وطبعه، وأقام منه علىٰ نفسه حارساً، ومن ضميره وازعاً وضابطاً، حين استثار كرامة نفسه ومروءة عرضه، فسأله إن كان يرضىٰ أن يُزنىٰ بأمه، ثم سأله إن كان يرضىٰ أن يُزنىٰ بأخته، ثم كرر عليه السؤال بشأن عمته وخالته، وكانت نفسه الأبية الكريمة ترفض دائماً تلك الخسة وذلك العار، فلفت رسول الله ﷺ نظر الفتىٰ إلىٰ الحقيقة التي ما كان يجب أن تغيب عن النفس الكريمة، وهي أنها لا يمكن أن ترضىٰ لغيرها ما لا ترضاه لذاتها، فقال له بكل الحب والتقدير لمعاناته النفسية: إنهن كلهن أمهات وأخوات وعمات وخالات، ودعا له فكان ذلك له قوةً نفسيةً ومانعاً ووجاءً.

إن من الضروري، إلىٰ جانب المنهجية الشمولية التحليلية المنضبطة، وتكامل مصادر المعرفة في التعليم الإسلامي، إيجاد آلية شورية منتخبة مؤهلة علمياً لكي تميز الآراء والاجتهادات، وتختار للأمـة الرأي الذي يرىٰ فيه أهل الشورىٰ -علىٰ أساس من العلم بثوابت الشريعة ومقاصدها وأحوال الناس- ما فيه صلاح الأمة، ويستجيب لأحوال النفوس وطبائعها، وما يناسب الظروف والمتغيرات، فيكون بذلك خطاباً شورياً، يكسب بمؤهلاته الشرعية والسياسية اقتناعات الشعوب، ويضم صفوفها، ويفجر طاقاتها، ويُحكِمُ نسيجَ علاقات مجتمعاتها.

هذا اللون من المناهج المعرفية العلمية الإسلامية حين يتكامل مع الآلية الشورية فإن ذلك هو الذي يوفر المناخ الذي يفسح المجال للاجتهاد والتجديد؛ دون آثار سلبية تجعل من الاجتهادات وسيلة إلىٰ تشتت الولاءات، وأداةً لمزيد من تمزق الصف وبلبلةِ النفوس، فيأتي التشريع، عقدياً وسياسياً، دليلَ حركة الأمة، فيتطوّر بتطوّر متغيّرات أحوالها، وعلىٰ أساس من هدي ثوابت دينها وطبائع الخلق، وحاجات المجتمع وإمكاناته.

إنّ مسحة الإرهاب التي أصابت الخطاب الإسلامي لم يقتصر أثرها علىٰ خطاب البالغين، بل امتد أثرها إلىٰ كل ألوان الخطاب، وبخاصة خطاب الطفل وتعليمه، فاصطبغ بمنهج الإملاء والاستظهار والمتابعة والقهر المادي والمعنوي، وتوظيف رموز القداسة لكبتِ روح النقد والفحص والتمييز، والخضوع الأعمىٰ لمفهوم مقولة: "من علمني حرفاً صرتُ لـه عبداً."

التشوّه الخامس: عقلية الشعوذة والخرافة

والعجيب أن تفشو عقلية الخرافة والشعوذة في أمـةٍ القرآن الذي جاء يدعو إلىٰ السعي والتفكُّر والنظر والتدبُّر والجدّ والإتقان والإحسان والاجتهاد والجهاد، وتتبع السنن، والأخذ في طلب الأمور بالأسباب.

إنّ من العجيب حقاً أن تنمو عقلية الخرافة والشعوذة في أمة رسولٍ لا تدع سيرة حياته وسنّته في تصريف شؤون أمته مجالاً لأي شك في جدية أخذه بالأسباب وتدبير الأمور، وسعيه بالجد والاجتهاد في كل ما تصدىٰ له.

بل إنّ سيرة حياته وأداء رسالته كان فيها بشرياً منوطاً باتّباع الأسباب، وكان التعبير القرآني عن طبيعته البشرية علىٰ أبلغ ما يكون من الوضوح

والجلاء، فكان ينال من الأعداء وينال الأعداء منه ومن قومه، ويحظىٰ بالنصر وتلحق به الهزيمة، وتعتوره أحوال الصحة والمرض، وينال منه الجوع والعطش، ويلحق برأيه -في غير أمر الرسالة- الصواب والخطأ.

إنه مبدع في التدبير والتخطيط وإدارة السلم والحرب: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠]. ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ ١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤].

كيف أمكن لحملة هذه الرسالة، وأتباع هذا النبي الكريم أن ينتهي كثيرٌ منهم إلىٰ التواكل والخرافة وسيطرة الشعوذة علىٰ عقولهم وخواطرهم؟!

التوكُّل والتواكل:

كان خطاب القرآن في آلاف آياته موجهاً إلىٰ القلب والعقل، يقيّم الحجة ويدعو إلىٰ العمل، ويلقي المسؤولية، ويأمر أمة محمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالجدّ والسعي والجهاد والأخذ بالأسباب: "اعقلها وتوكل."[(١)] ويؤكّد أنّ الله سبحانه وتعالىٰ هو: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾ [الأعلىٰ: ٢ - ٣]، ويقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٩﴾ [الكهف: ٨٩]، ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح** «**سنن الترمذي**»، مرجع سابق، ج٤، ص٦٦٨، حديث رقم: ٢٥١٧.

[النجم: ٣٩]. فبالعمل والسعي بأسباب الخلق وفطرة الطبائع، وبطلب السنن الإلهية الكونية، يتحقق التأهيل للحصول علىٰ الثمر، وليس في كل ذلك شيء من أوهام الخرافة والشعوذة، أو أي معنىٰ يتعارض مع أيّ معنىٰ من معاني التوكل والسعي واتّباع السنن الإلهية الكونية، التي لا بديل عنها في إدارة شؤون الحياة.

إنّ حقيقة التوكل والدعاء ونفعهما إنما تكون بعد أداء العمل وبذل الجهد والسعي والكدّ والاجتهاد، ويقصد بهما طلب عون الله بشأن كليات أمور الكون التي لا ندركها، ولا يسعها علمنا، ولا سيطرة لنا عليها، والله وحده يملك أمر علمها ومقاليد تصريفها. أمّا العجز والكسل والقعود عن طلب السنن والأسباب، ثم القعود والتلوي بلَوْكِ الدعوات، فذلك هو التواكل والانحراف عن طريق الإسلام وعن طريق السنن. فيستوي في ذلك من يلجأ إلىٰ ممارسات الشعوذة وطرقِ أبواب الدجالين والمشعوذين؛ فذلك هو الأذىٰ والزيغُ والضلالُ والوقوعُ في مزالق الكفر والشرك.

وقبل أن نتعرض لما بين أيدينا من قضايا تتعلق بأمر الخرافة والشعوذة؛ فإن من المهم أن نورد مثالاً يوضح العلاقة الإسلامية بين الجِدّ في السعي وطلب الأسباب، وبين الدعاء إلىٰ الله والتوكل عليه في طلب الأمور والسعي لكسبها. وهذا المثل هو مثل الطالب الذي يُلقىٰ عليه الدرس، وعليه أن يدرسه ويفهمه ويهضمه ويستذكره، وإلا فإنه بحسب سنة الأسباب لا نصيب له من النجاح. تلك سنة الله التي أودعها قوانين الطبائع، فلا بدّ من العمل والسعي وطلب الأسباب للحصول علىٰ الثمر. ولكن مجرد الاستذكار لا يكفي لتحقيق النجاح، ذلك لأن النجاح لا يرتبط بالأسباب المباشرة فقط؛ بل

يرتبط بما وراء ذلك من كليات أوسع وأعمّ. فقد يعوق الطالب حادث يمنعه من الذهاب إلىٰ الامتحان أصلاً، وقد يذهب إلىٰ قاعة الامتحان ولكنه يجد نفسه بعد أن سلم ورقة الإجابة أنه قد نسي الإجابة عن سؤال من الأسئلة، وقد يجيب عن كل الأسئلة لكنه يتبيّن أنه أخطأ في إجابته عن واحد منها. كل هذا أمور كلية لا يمكن للإنسان حساب مثلها مقدماً، وليس للإنسان فيها من وسيلة -إلىٰ جانب العمل- إلا التوكّل علىٰ الله صاحب الأمر ومدبر الكون، ودعاؤه بطلب العناية والتوفيق. هذا هو منهج الإسلام في الحياة، وهو معنىٰ التوكل الصحيح والدعاء المخلص.

الإرهاب والاستبداد والتخلف تربة الخرافة والشعوذة:

هذه التشوّهات التي ألـمّت بالعقل المسلم وفّرت التربة الصالحة لفكر الخرافة والشعوذة، حين وقعت جماهير الأمة فريسة مظالم الاستبداد والإرهاب السياسي والترهيب الفكري، فاتّسمت بالخنوع والسلبية، والانصراف تدريجياً عن خوض غمار البحث والتنقيب والبناء والإبداع؛ لتغرقَ في غمار الفقر والخرافة والجهل، وهنا يفقد الإنسان ثقته بنفسه، ويفقد زمام المبادرة في شؤون حياته، ويفقد التحكم في مقدرات عالمه.

إنّ من الطبيعي أن يجنح مثل هذا الإنسان، في غمار عجزه وآلام معاناته، صوب الخرافة والشعوذة، وما يروج لها من التأويلات والقصص والأساطير، فيعيرها أذناً صاغية، وتَروج لديه بضاعتها، ويستنجد في جهالاته بأوهامها الرخيصة المخدرة ضد ما يحيق به من الآفات التي لا يعرف، بسبب جهله، اسبابها، ولا يملك، بسبب عجزه، القدرةَ علىٰ شيء لدفعها، لأنّ ثقافته ونفسيته

وقدراته قد أصابها الكثير من العطب، وحرمها الكثير من قوة العقلية السننية، ومن نفسية الإبداع والمبادرة، ومن القدرة على البحث والتقصي والتنقيب؛ التي لم تكن أمـة من أمم الأرض أولى بها من أمـة كتاب القرآن العظيم.

الكارثة في توظيف الدين والقداسة لخدمة الخرافة والشعوذة:

وحتى يصبح المرض آفة، والحمى طاعوناً، والدمَّل سرطاناً، ويصبح التشوه عاهة، وحتى تمتد الجذور ويتوطن الداء ويستعصي العلاج أمام كل التحديات والنوازل والكوارث التي تحل بالأمة، فلا تعود تنبت علماً، ولا تثمر إبداعاً، ولا تتقن أداءً، فقد تم كلّ ذلك عن طريق إضفاء القداسة على كثير من الخرافات والشعوذات، وترويج الكثير من موضوع الآثار والأساطير والإسرائيليات، ويسوء استغلال بضع إشارات قرآنية تاريخيّة.

حين اكتمل نضج الإنسانية ومنهج فكرها ودليل حياتها، وأنزلت رسالة القرآن ونور هدايته للعقل الإنساني، في علاقته بالكون، وما أودعه الله فيه من الأسباب والأسرار، تغيرت تلك الأحوال، فتغير معها موقع الإنسان، ليصبح بعقله وعلمه هو الذي يتحكم وحده في عالمه، وليس لأحد من عوالم الكون الأخرى سلطان عليه يحاول من خارجه أن يتسلل إليه، أو يتحكم فيه، ولذلك ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٩]. بل إن القرآن الكريم قد وضّح أنّ ما كان عليه الكهنة والمشعوذون في تلك الحقب إنما كان، على وجه الحقيقة، وهماً وخداعاً للنفوس والأبصار: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ۝١١٦﴾ [الأعراف: ١١٦]. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦﴾ [طه: ٦٦]. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩]، وأنّه ما كانت لهم قدرة علىٰ النفع أو الضرر إلا أن يشاء الله، وتأثيرهم الضار إنّما هو بسبب ما يلجأون إليه حتىٰ اليوم من المكائد والحيل.

بل إن رسول الله ﷺ، وقد وُجِّهت رسالته إلىٰ العالمين، ومنهم عالم الجان والخفاء من العوالم الأخرىٰ في الكون، لم يَرَ الجنّ هو نفسه ولكنه أُخبر باستماعهم له، فلم يتصل عالمه بعالمهم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴿١﴾﴾ [الجن: ١]. كما أنّ إبليس وإن كان -كما أخبر الله في القرآن، وكما نحسّه جميعاً في أنفسنا- يستطيع الوسوسة للإنسان، إلا أنّه لا قدرة لـه عليه، ولا تحكم لـه فيه، إلا أن يصغي إلىٰ وسوسته وينصاع إليه خياراً وطواعية: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَـاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩].(١)

(١) من المغالطات التي يقع فيها بعض الدارسين ويلج منها المشعوذون؛ قضية المسّ. فالقرآن الكريم يتحدث عن "مس الشيطان" بعينه لا عمّا يتحدثون عنه من مسِّ الجن في وصف المرابين ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥]. ومن الواضح أنّ هذه صورة بلاغية تصف ضلال المرابي والعاصي لأمر الله بتخبطه في ضلاله وزيغه عن الحق، ولا علاقة لذلك بالأمراض العقلية والنفسية، فالمرابون في الدنيا وإن كانوا أهل زيغ وضلال إلا أنّهم عقلاء ومسؤولون، ولا علاقة لتخبطهم العقدي بالأمراض الجسدية العقلية والعصبية والنفسية، وهذا أيضاً واضح في تشبيه ثمر جهنم في ضرره وبشاعته وسوء منظره ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: ٦٥]؛ فالمشبه به يكون عادة معروفاً لدىٰ السامع. أمّا رؤوس الشياطين فممّا لا يعرفه أحد، وإنّما أريد به ما وقر في النفوس عن الشيطان من القبح والشر والأذىٰ. أمّا من يدعي أنّ أيّ مرض من الأمراض هو "مسُّ جانٍّ" فهو دجل وشعوذة لا دليل عليه ولا برهان.

لقد أراد الله بالإنسان في عصر الرسالة الخاتمة خيراً لا شراً، فخَلَّصَ لـه عالَمَه -بإذنه- من كل سلطة إلا سلطته وسلطة استخلافه، وجعله خالصاً لـه، يسخِّره ويعمِّره ويجلّي فيه إرادته ويمحِّص به معدنـه، بعمله وسعيه وحده، فما عادت هناك عوالم ولا أشباح تسيطر على عالمه، أو تشلّ، أو تنفي إرادته، وتدمر دوره، وتنفي مسؤوليته، أو تعبث به وتتركه عاجزاً مسلوب الإرادة. فالإرادة إرادته، والفعل فعله، والمسـؤولية مسؤوليته وحده: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]؛ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ۝١٦٤﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

ولكنّ هذه الرؤيـة القرآنية، رؤية العلم والتفكر والتدبر، ودليل السعي والعمل والجهاد والاجتهاد الذي يزن بميزان مثقال الذرة، اضطربت بعد أن عكر صفوَها فكرُ القهر والتخلف وعقل التقليد والانحطاط، فأخذت تعلِّق على مِشجب معدودِ الإشاراتِ القرآنية، والأحاديث النبوية الصحيحة، وصحيح تأويلها ومغلوطه -أكداساً من النصوص الآحادية الضعيفة والموضوعة- بفعلِ غفلةِ "الصالحين"، ودسِّ المشعوذين، وأصحاب الأغراض، ورواة الأساطير والإسرائيليات، لتعطي المشروعية لفكر الخرافة والشعوذة، وتُخدِّر الحس الإسلامي القرآني، وتسلم بعدها الأمة إلى مزيد من التخلف والجهل على أيدي المشعوذين الأفَّـاقين.

لقد كان أولىٰ لمن خاضوا في الحديث عن عوالم الغيبِ الجَانّةِ الخافيةِ عن حواس البشر، والتي لا مجال لحواس الإنسان وعقله الإحاطة بها، أن يقفوا عند محاكمةِ صحيح أخبارها من فاسدها، وتمييزه، ويلتزموا حدودَ الإشارات القرآنية ومقاصدها كما جاءت في السياق القرآني، فاكتفوا بذلك القدر وتلك المقاصد، ويلتزموا مناهج النظر الصحيح فيها، وهي التي تعتمد القواعد المنهجية الكلية ومقاصد الشريعة، وآثار الزمان والمكان، وما تواجهه الأمة من حقيقة التحديات وما تعاني من المشكلات.

ومن أهم القواعد المنهجية التي يجب -في رأينا- التزامها في الأمور الغيبية؛ قاعدة التواتر الذي يستحيل معه الكذب، لأنّ شؤون الغيب ممّا لا يمكن محاكمته إلىٰ العقل والخبرة والتجربة من شؤون الحس والعلاقات الإنسانية، ولذلك فإن من الضروري أخذها من المصادر المتواترة. ولو التزم الدارسون المقاصد والمبادئ في فهم المتون ونقدها، والتزموا دقة التحرير في اعتماد النص ونقد سنده، لجنَّبوا الأمة مفازة عظيمة وكبوة قاتلة، وجنبوها قهر قداسة كثير من المكذوبات والمحرفات والمزيدات والإسرائيليات، ومن سوء التأويل وقسره الذي ساعد علىٰ سَوق الأمة، في ظل العجز والترهيب والاستبداد، إلىٰ فكر الخرافة وإلغاء العقل، وأسلم الأمة إلىٰ دعاوىٰ الدحالين المشعوذين، ومكن لها في ركب العجز والتخلف والعجز والهوان.

الدعاء والرقية علاقة وجدانية، لا مهنة وتألٍّ علىٰ الله:

كذلك فإن من الأمور المؤسفة أن يكون الدعاء ورقىٰ القرآن الكريم ممّا يفتح به بعض الناس باب الخرافة واحتراف الشعوذة، حين يتحول الدعاء إلىٰ

مهنة وحرفة ووسيلة إلىٰ المال والجاه يخص بها بعض الناس أنفسهم، أو يخصهم الناسُ -عملياً، بوعي أو بدون وعي- بأمر القدرة الإلهية والوساطة بين الله وعباده في شفاء الناس وقضاء حوائجهم، والناس بذلك كأنهم قد حكموا لهم بصلاحهم وقربهم منه سبحانه وتعالىٰ، وخصّوهم باللجوء إليهم لقضاء حاجاتهم، وهم بذلك يتحكمون عملياً -مهما قالوا غير ذلك- في رحمة الله ويخضعونها لمقامهم وسلطانهم، ليصبح ذلك حرفة لهم ومقاماً وسلطاناً بين الناس، والله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

لا شك في أنّ الله سبحانه وتعالىٰ يسمع دعاء عباده، وهو يعلم سرائرهم ويكافئهم بحكمته علىٰ ذلك بما يستحقون. والمكروبون هم أولىٰ الناس بالإنابة إليه والتوجه إليه بالدعاء: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦] ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]. أمّا سؤال الوالدين الدعاء، أو من يَتَوَسَّمُ فيه الناسُ الصلاحَ من أهليهم وأهل جوارهم، فذلك أمر مستحبٌ، إذا تم بتلقائية وبروح التواصل والبر والمودة، لا بروح الدجل وادعاء مكانة هي بمنزلة التحكم في رحمة الله.

ومن المهم ألا يكون طلب الدعاء ممن يُتوسَّم فيه الصلاح أداةً لإعفاء الذات من التوبة، ومن العزم علىٰ الصلاح والتقرب إلىٰ الله حتىٰ يكون المرء أهلاً للاستجابة. فطلب الدعاء من الصالح يجب أن يكون مصحوباً ببذل الجهد لإصلاح نفوسنا، فيكون دعاؤه وسيلةً إلىٰ مزيدٍ من التقرب إلىٰ الله،

وليس وسيلةً للتهاون وغيبة الوعي.

وهكذا فإن طلب المكروبين الدعاء من آبائهم وأمهاتهم، وممن يعرف المرء من أصحاب الإخلاص والصلاح وعون أصحاب الحاجات، لا يحقق الهدف إلا إذا تم بتلقائية وفي صلة وجدانية، وفي النوازل وفي عظيم البلايا يمتدّ ليشمل عامة الناس، فإن ذلك من دواعي الاستجابة بإذن الله، ويقوي روابط الحب والتكافل والتعاون بين أبناء المجتمع، ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

مواصلة الجهود لتحرير النصوص والمفاهيم والتفاسير وتنقيتها:

إن ما يعاني منه منهج الفكر الغالب في الأمة من الجزئية اللغوية والنصية الحرفية التقليدية المستندة إلىٰ رؤىٰ وظروف تاريخية لا تتعلق بالسنن، ولا بالواقع الذي نعيشه، ولا بالتحديات والمشاكل التي نواجهها اليوم؛ ما يجعل فكر الأمة اليوم كالأحجية التي تمزق صورة معقدة إلىٰ أجزاء كثيرة متساوي، ويكون كالورق الذي تمزقه آلات تقطيع الورق، ويجعل من الصعب علىٰ من لا دراية له بكلية المطلوب أن يصنع من تلك المزق الصورةَ الصحيحةَ الأصلية، فينتهي جهل الناس بحلِّ الأحجية إلىٰ صور مشوهة عديدة، كل صورة منها تختلف عن الأخرىٰ، وكل نسخة تمثل مزقاً غير متناسقة؛ بحيث يصعب أن يملك واحد منهم صورةً تمثل الحقيقة كاملة، وهذا تماماً ما يحدث اليوم. ففي كلّ حكمٍ وفي كلّ أمرٍ ترتفع أصواتٌ لا تُعَدُّ، وبرؤىٰ وأسانيد متغايرة متنافرة، لا يعلم الناس في أيٍّ منها الحقيقة والصواب، ولدىٰ كلٍّ منهم قول يسنده نص، ودحضه عند الآخرين قول آخر ونص آخر.

إن المنهجية السليمة لا تسمح للأحداث والتطبيقات والملابسات الزمانية والمكانية أن تطغىٰ علىٰ المقاصد والثوابت والكليات، وأن تضلل الجهود لمواجهة المشكلات والتحديات، فلا تجد التفسيرات والمفاهيم الخاطئة والنصـوص المحـرفة والموضـوعة، والقصـص والأسـاطير والإسرائيليات، طريقَها إلىٰ فكر الأمة وثوابتها وكلياتها وثقافتها وممارسات جمهورها.

ترويج فكر الخرافة والشعوذة وكتبها جريمة دينية:

مـن الجـرم فـي حـق أمـة القـرآن واستخـلاف الإنسـان دينيـاً وفكرياً واجتمـاعياً أن يروج -في هذا العصر وأمام ما تواجهـه الأمـة من تحديات- أي شيء يعوق روح العلم والعمل والجـدّ والاجتهاد والأخذ بالأسباب وحمل المسؤوليات.

ومن الجريمة نشر بعض كتب العصور السالفة التي تخصّ ظروفاً وتحديات وسقوفاً معرفية سالفة، وكثير منها هو من باب أدبيات الخرافة والتخلف والانحطاط، ولكنّها تُلصق زوراً بالدين والتراث. فنشر مثل هذه الكتب دون فحصها وتنقيتها، وترويج مادتها باسم الدين بين الناس والناشئة، هو من باب الجريمة والجناية علىٰ عامة أبناء الأمة.

إنّ أقصىٰ ما يوليه العقلُ المسلم السليم مثل هذه الكتب هو أن تصبح من قِبَل أصحاب الاختصاص مادة بحث ودراسة وتأمل وفهم للظروف التي كتبت فيها ودوافعها، لا مادة يروّج لها بين عامة أبناء الأمة، فإنّ ذلك شعوذةٌ ودجل باسم التراث وباسم الدين، حتىٰ إن نُسب بعضها، إلىٰ بعض من نجلّ

من أهل العلم الذين أخطأوا -إن صحتْ نسبتها حقاً إليهم-[1] فهمَ بعض هذه القضايا، وكم من ظاهرة لم تكن مفهومـة في الماضي؛ أمكن بالبحث العلمي والدرس فهمها وحل ألغازها بما حققه العلم من تقدم في الوقت الحاضر، كما أنّ الكثير من هذه الدعاوىٰ قد اتضح كذبها وادّعاؤها.

إن التعلّق بالخرافات والأوهام وقصص الخوارق والأحاجي والألغاز وكاذبِ المعجزات، ونشرها، والخلط بين ماضي الإنسانية ودور الخوارق فيه، وحاضر الإنسانية القائم علىٰ هداية الوحي ومنهج العلم والعقل، كل ذلك لا يخدم إلا أعداء الأمـة، ولا ثمرة له إلا تدمير روح العلم والقدرة فيها، واستدامة ضعف الأمة وعجزها.

يجب حمايـة الأمـة والناشئة، وتحصينهم بالعقيدة الصحيحة وبالعلم الصحيح، من مثل هذا الفكر وهذه المواد الضارة، ووضعها -في كل ما يتعلق بالتربية والتعليم والإعلام- بعيداً عن أعين الناشئة والعامة وأسماعهم وأدبياتهم، وأن يتمَّ حفظ المواد السامة والضارة لدىٰ أصحاب الاختصاص بعيداً عن أيدي الصغار والجهال.

---

(١) نحن نعلم أنّ بعض أهل العلم السابقين تُنسَب إليهم مئات من الكتب التي يستحيل علىٰ الواحد أن يكتبها في حياته، وتفسير ذلك أنّ بعض الناس ينسبون كتبهم إلىٰ غيرهم من الأجلاء طلباً لترويج أفكارهم؛ ممّا يجعلنا نرفض كل دعوىٰ بنسبة كتاب أو آخر إلىٰ بعض أهل العلم إذا كان ذلك الكتاب ليس علىٰ شاكلة فكرهم ومقاصدهم.

تتقدم الأمم بالعلم والمعرفة لا بالخرافة والشعوذة:

لم تتقدم الأمم بفعل السحرة وجهود المشعوذين، ولا على أيدي أعوانهم الموهومين من مردة الجان والشياطين، وإنّما بما وهب الله الإنسان من العقل والمعرفة والقدرة والجهد، وفقاً لما قدر في الكائنات من الطبائع والإمكانات.

إنّ علينا أن ندرك طبيعة الظروف والعصور والمراحل الإيجابية والسلبية التي مرت بها الأمـة الإسلامية، وطبيعة عقليتها وإمكانات خطاباتها في الماضي، فكثير من ذلك الخطاب -حتى الإيجابي منه- إنّما ناسب زمانه ومكانه وثقافة عصره وإمكاناته. ولذلك فإنّ ترديده في ظروف عالم اليوم وتحدياته يلقى على عواهنه، وإن تَلقِّيه كما هو -دون فهم لخصوصيات- على أنّه من مكنون التراث الذي نسعى لتلبُّسه على حاله وهيئته، من أشد أنواع الجهل والغفلة، ولا يأتي من ذلك الخطاب إلا أشد الضرر، وليس عبثاً أن يقال إنّ من الخطأ "رواية" كل ما يقال، لأنّ "لكل مقام مقال"، وبعض ذلك المقال الذي تقبّله كثير من أبناء الأسلاف من الخطأ روايته وإشاعته وتداوله وإضفاء قدسية التراث عليه.

إنّ على مفكري الأمـة وعلمائها ألا يقعوا في حبائل المنهجيات الجزئية والحرفية؛ حتى يمكنهم أداء واجبهم في استنقاذ الأمـة، وأن ينطلقوا في إصلاح هذه التشوهات من منطلقات كلّيات الشريعة ومقاصدها، مسلحين بالمعارف والمباحث العلمية، التاريخية، والاجتماعية، والنفسية، والتربويـة، وبأسـلوب منهجي شمولي تحليلي منضبط systematic يجلو لهم طبيعة الرؤية الإسلامية الصحيحة وسبل تحقيقها في العالم المعاصر، كما يمكنهم من إدراك

مواضع الأحداث والنصوص في عهد الرسالة وما تلاه من العصور، وإدراك بُعْدَي الزمان والمكان، وأثر ذلك في فهم دلالة ما صح من الأحداث والنصوص، بحيث تكون مدققةً ومميزةً بأدق وأسلم الموازين المنهجية، لمعرفة ما خالط تفصيلاتها من خصوصيات المخاطبين بها -زماناً ومكاناً- في ثقافتهم وإدراكهم ونسيج علاقاتهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية.

فكثيراً ما يضل الفهم حينما يُنْظَرُ إلىٰ النصوص والأحداث علىٰ أنّها في فراغ، وكأنّ الراعي والمعلم والقائد، حين يتحدث إلىٰ قومه ويتعامل مع واقعهم، إنّما يتعامل مع كل البشرية في كل زمان ومكان، وليس إلىٰ أقوام وفئات وجماعات وأفراد بعينهم، تتفاوت قدراتهم ومداركهم وثقافاتهم وأمزجتهم وعاداتهم وتقاليدهم ومداخل نفوسهم، فتختلف ألوان الخطاب حتىٰ في المكان والزمان الواحد، وللهدف الواحد، من فئة إلىٰ أخرىٰ، ومن وجهٍ إلىٰ آخر، بحسب حال المخاطب، وبحسب الأولويات والمصالح والضرورات والقدرات التي يأخذها المتحدث والموجه في الحسبان، فما بالنا إذا تباعدت -علىٰ مدىٰ القرون- أحوال الزمان والمكان.

وعي الآباء أساس البناء:

لعل من المفيد أن نورد هنا مثالاً من الأمثلة علىٰ تفاوت الخطاب، بسبب طبيعة الثقافة والإمكانات، وطبيعة المخاطب، مما يوضح أهمية أسلوب فهم كثير من خصوصيات النصوص التي لا يفهم معها أتباع المنهجيات الجزئية والحرفية التقليدية سببَ عدم تجاوب الناس مع خطابهم، وهم يتلمسون مخرجاً يوفق بين ولاءاتهم النفسية وما يلقىٰ إليهم من جزاف القول والتوجيهات.

فالأمهات في مكة المكرمة -وفي ظني في كثير من البلاد الأخرى على عهد طفولة أجيالنا وما قبله من الأجيال- كانوا يتبادلون العديد من المفاهيم والأساليب التراثية التي اندثر كثير منها بتغير الظروف والإمكانات والثقافة. ومن ذلك أنهم كانوا يحرصون على تلقين أطفالهم أنّ في كل ثمرة رمانة "حبة من الجنة"، والرمان -كما يعلم القارئ- مما يجود نوعه في بلاد الطائف من جبال الحجاز، إلا أنه يترك بقعاً حمراء على الملابس تصعب إزالتها، ولأن من الصعب حفظ حباته دون أن تنتثر من يد الآكل؛ كانت فكرةُ أن في كل رمانة حبة من الجنة فكرة خرافية ذكية تجعل الطفل يحرص على البحث الدائب عما يسقط منها؛ كما تسهّل مهمة الأم في حفظ ملابس أبنائها وأثاث منزلها من التلوث. فقط عندما نتجاوز مرحلة الطفولة نستطيع أن نتبيّن أن "حبة الجنة" لم تكن إلا خرافة.

ولكنّ حرص الأم على حماية طفلها، واللجوء -بجهل- إلى الخرافة لتحقيق عاجل غرضها قد يكون له أحياناً أسوأ الأثر.

ومن ذلك ما كانت تلجأ إليه كثير من الأمهات، الجاهلات بنفسية الأطفال، وبمسميات تختلف بين بلدٍ وآخر، من تخويف الطفل من الانطلاق بعيداً عن عين رعايتها ورقابتها خوفاً عليه من الغوائل، خاصة في عتمة الليالي، وفي بيئات تكاد تنعدم فيها الإضاءة أو الحركة، حيث ينطلق في الظلمة "الهمّل" و"الحرامية" و"طلاب الرذيلة" و"قطاع الطرق" من شياطين البشر، فكانت الأمهات يُخوّفْنَ أبناءهن الصغار بأن هناك كائناً جنياً يدعى "الدجيرة" يخرج ليلاً في زيّ النساء، وأن الإنسان لا يستطيع أن يفرق بينه وبين المرأة الحقيقية إلا بأن رِجْلَه على هيئة حافر حمار. ونستطيع أن نتصور حال الطفل لو

اضطر للخروج من المنزل في الليل ولقي امرأة مقبلة عليه في الظلام في أحد هذه "الأزقة".

هذه الخرافة المرعبة، وما ترسخه في خيال الطفل الصغير، كفيلةٌ بأن تمنع الطفل من أن يفكر في تخطي عتبة الدار في ظلام الليل، وليت الأمر يقف عند هذا الحد، ولكن قد يتعداه إلى أضرار نفسية قد لا تزول ممّا تولّده عند الطفل من مشاعر الخوف من الوحدة ومن الظلام، وهذا النوع من التربية يشكل عاملاً من عوامل تمكين صفات الخوف والجبن في نفس الصغير حين يشب ويصبح في عداد البالغين. وعندها علينا أن ننتظر الأجنبي كي يجوب قفارنا وجبالنا ووديانا وكهوفنا، فيرسم لنا خرائطها ومواقعها ومواطن الثروة فيه، ويكون أعلم بها منا.

وكم هو مؤسف أن كثيراً من الوعاظ والكتاب ينشر على نحو مباشر أو غير مباشر نصوصاً لها آثار سلبية، خصوصاً حينما تكون نصوصاً دينية، وقد تكون غير صحيحة أو محرفة، أو لم تفهم ظروفها ولا دلالاتها، أو أنه قد أسيء فهمها وتأويلها.

مزيداً من الجهد في تحرير المفاهيم الأساسية:

لقد بدأ الأستاذ الإمام محمد عبده -بعد أن تعرض للتحدي العلمي الأوروبي، وتابعه عدد من العلماء والمفكرين- أمرَ التصدي في العصر الحديث لتنقية التراث من آثار الخرافة والشعوذة في العقل المسلم؛ وذلك بإعادة النظر في فهم النصوص وأدبيات التراث في هذا المجال، وأعاد عرض هذه الإشكالات من زاوية معطيات العصر ومفاهيمه ومعارفه وإمكاناته وتحدياته؛

وذلك بالدعوة إلى إعادة النظر في نصوص التراث وأساليب فهمها ونقدها وتأويلها، وإعادة صياغة الخطاب الإسلامي تبعاً لما طرأ في زمانه من المتغيرات والحاجات والإمكانات.

وعلى الرغم من جهود هؤلاء الرواد، التي مثلت بداية مهمة، فما زالت هناك حاجة ماسة إلى مزيد من الجهد، الذي يجب أن يكون منهجياً لإرساء الأسس والمفاهيم العامة الضرورية المطلوبة لتحرير العقل المسلم من فكر الخرافة والشعوذة، وعلى أسس متينة تليق بأمة "العلق" و"القلم" و"الحديد"، وفي عصر تجلية قدرة علم السنن التي لا تغيير لها ولا تبديل؛ فبالمنهجية العلمية السليمة تتوحد الرؤية ويتسع القدر المشترك، وبدون المنهج العلمي السليم تمتنع على الأمة الرؤية الصحيحة المشتركة، وتتلاشى القدرة على تحرير الأفكار والثقافة والمواقف بشكل موضوعي مقنع فعال.

ولذلك، فإنه من غير المجدي إدارة الحوار في أمر جوهري هام مثل مقاومة فكر الخرافة والشعوذة وتمكين العقلية العلمية؛ على أساس من المنهجية الجزئية أو الحرفية اللغوية، لأنه لن يكون هناك ضابط منهجي لحوارات الفكر وخلافات الرأي، ولا بد أن ينتهي الحوار إلى متاهاتٍ من القضايا الجزئية التي لا نهاية لها، ولا تقود إلا إلى الفوضى الفكرية، وإلى حِدَّة الخلافات الوهمية، وتطرف المواقف الزائفة، والهروب من النظر العلمي إلى الحكم على النوايا، وتراشق الاتهامات، وتوليد العداوات التي تمزق الصفوف وتضعف العزم وتدمر الحس الجماعي، وتقيم حواجز العزلة وعدم الاكتراث بين جمهور الأمة وصفوتها المثقفة.

إنني أدعو علماءنا ومفكرينا للاهتمام بالقضية المنهجية، والعمل على تنقية الثقافة مما أصابها من تشوهات وتلوث، وبخاصة فكرُ الخرافة والشعوذة والدجل، وإلى دراسة النصوص والتراث دراسة منهجية، لتحقيقها متناً وسنداً وشكلاً وموضوعاً، والاعتماد في ذلك على أسس مكينة من المقاصد والمنطلقات والتحديات؛ بحيث لا تترك مجالاً لأن تصبح الكلماتُ والإشاراتُ النصِّيةُ مشاجبَ ومداخل للسلبية والتواكل والخرافة.

ومن المهم في ختام هذه العجالة أن أضع أمام القارئ الكريم إطار المعالجة المطلوبة، والتذكير بمرتكزاتها الأساسية، ومرجعيات تلك المعالجة، ومعايير قياس نتائجها.

وهذه المرتكزات يجب أن تحكم كليات أي بحث في هذا المجال وتضبط نتائجه، وهي مرتكزات يحكمها جوهر رسالة الإسلام ومبادئه الأساسية: مبادئ التوحيد، والاستخلاف، والغائية الخيرة للحياة الإنسانية، ومبدأ المسؤولية الإنسانية على أساس العمل والسعي في الأرض وَفْقَ سنن السببية الكونية.

وأهم هذه المرتكزات التي جاء بها الإسلام وكليات الكتاب العزيز ونصوصه هي:

- إن القضية في أساسها ليست قضية وجود عوالم أخرى في الكون أو عدمها، وما يعنينا هنا هو علاقة هذه العوالم والكائنات -أيّاً كانت طبيعتها- بعالم الإنسان وتأثيرها فيه. ومن الواضح أن مبدأ المسؤولية،

ومبدأ الأخذ بالأسباب، لا يدعان مجالاً لهذه العوالم الأخرى لأن تتحكم بالإنسان أو بعالمه. كما أنه يجب أن نفرق بين مختلف عوالم الغيب والخفاء، فمنها ما لا نعلم من أمره شيئاً، ومنها ما هو من الكائنات الدقيقة التي تخفى عن أعين الناس، وكانت -وما تزال- تسبب للإنسان الكثير من الأمراض والكوارث، ومنها ما ينفع الناس، وقد كشف العلم اليوم أسرارها وآثارها.

- إن الشيطان من عوالم الغيب، وذريته -ومن هم من جنسه من الجان- ليس لهم على الإنسان أي سلطان.

- إن أعمال السحر والشعوذة هي من باب الحيل والأوهام.

- إن الإنسانية مع بدء الرسالة المحمدية العالمية دخلت دوراً جديداً من النضج والأداء، أصبح فيها الإنسان كامل الرؤية وموضع المسؤولية، وانتقل من عالم الطفولة الإنسانية وعالم الجهل وعالم الخوارق، عالم الكتاب والعقل والعلم والمعرفة والعمل وطلب الأسباب. لقد كشف بطاقة العقل والعلم -وما زال يكشف- أسرار عوالم الخفاء من الكائنات الدقيقة، وأزال بذلك كثيراً من أسباب عجزه وخوفه ورعبه، كما أزال العلم بكشوفاته العلمية كثيراً من وسائل الدجالين والمشعوذين ومدَّعي السحر، وذلك بالكشف عن كثير من القوانين الفيزيائية وخصائص المواد، وعن كثير من أسرار النفس الإنسانية، وعللها، وما يؤثر فيها.

- لو أن المشعوذين والدجالين ومدعي السحر كانوا على شيء من الحقيقة لأغنوا أنفسهم ونفعوها، ولكنهم يحتالون للاستيلاء على أموال المستغفَلين، والسيطرة عليهم، وإنزال الأضرار المادية والمعنوية بهم.

- إن مبادئ التكريم والاستخلاف والتسخير والمسؤولية تعني ضرورة تحكّم الإنسان بعالمه وحمل مسؤولية أفعاله في تسيير عالمه، وليس تحكّم عوالم الغيب والخفاء به.

- إن المحصلة النهائية التي ينتهي إليها كل بحث وفهم وتأويل لابد من أن تصل إلى الحقيقة القاطعة بأن ما يفعله المشعوذون والدجالون ومدعو السحر لا يؤدي إلا إلى ما يضر بالإنسان ولا ينفعه، وإن تتبعها والوقوع في شِراكها غفلةٌ وزيغٌ، وإن مزاولةَ دجلِها شرٌّ وكفرٌ.

التشوّه السادس: العرقية "دعوها فإنها منتنة"

نشـأتُ في مكة المكرمة، وفي أجوائها فتحتُ عيني على كل ألوان الناس وأجناسهم وسحناتهم، في الدار، وفي الجوار، وفي ساحات الحرم ورواقات بيت الله، هم مني وأنا منهم: إنسانيةً، ووطناً، وديناً، لا يفرق بين واحد وآخر إلا ما يحمله بين جوانحه من صفات وخصال.

لقد قرأ هذا الطفل في المنزل، وفي المدرسة، وفي بيت الله العتيق، كتابَ الله عزَّ وجلَّ، ودرس جملة من أمهات نصوص سنّة نبيه ﷺ، وجال بقلبه النابض وعقله الغضِّ في آيات الله ومعانيها، في وحدة الإنسان، وإخاء المسلم، وبرّ الرحم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا

﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]. ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢]. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

" كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى"؛ "لا يأتني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم"؛ "يا فاطمة بنت محمد إني لا أغني عنك من الله شيئاً"؛ " "لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"؛ " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، وكان الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"؛ "المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً"؛ "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى لـه سائر الجسد بالسهر والحمى".

وكان الطفل يقرأ ويتجول ذهنه في ضبابية وحيرة: في تاريخ الأمة، وفي صراعاتها، وصراعات قبائلها وشعوبها وأعراقها وألوانها، على غرار ما كان يجري في الأندلس، ولا يكاد خياله يعي معنى هذه القبليات والعصبيات، وهذه الشعوبيات والعرقيات. حتى إذا شبَّ وآذنَتْ شمسُ الطفولة وبراءتها بالرحيل، وغادر الطفل بيضة أرض الحرم إلى فضاء الجزيرة وبلاد العرب، ثم طوّف في أنحاء الأرض شرقاً وغرباً؛ حيث وجد

الناس عناصرَ وعرقياتٍ وقبلياتٍ وشعوبياتٍ وقومياتٍ وعصبياتٍ وألسنةً وألواناً وحدوداً وقيوداً وغربةً وتوجساً وكراهيةً. حينها بدأ ذلك الصبي يدرك عمق مأساة الأمة الإسلامية.

لقد جاء الإسلام برسالة وحدة الإنسان وعالميته، وهذا ما جعل منه كُلاً واحداً متكاملاً ينطلق من إيجابية جوهره: روحاً وقيماً وعدلاً وتكافلاً وتراحماً تَجسَّد في شريعة الرسالة، وفي مجتمع الرسالة، فكان مجتمعَ التوحيد والإخاء والعدل والرحمة، وكان مجتمعاً مُنَـزَّهاً عن "نتن" "جاهلية" العرقية والقبلية والشعوبية؛ حيث إخاء الإنسان ومواطنته وجوهره، فذلك هو القاعدة التي يستقر عليها الإنسان روحاً وجوهراً، لا فرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوىٰ، وتحمّلِ المسؤولية، وأداء الأمانة.

إنّ رسالةَ الإسلام وقيَمه وثقافته تتلاحم وتتداخل فيها دوائر الانتماء البشري، من النفس الواحدة، إلىٰ الرحم والأهل والدين والإنسانية، بروح العدل والبر، وتشمل الإنسان كل الإنسان. ولا غرابة في أنّ أبناء رسالة الإسلام وجيل الرسالة قد اتصفوا بأسمىٰ صفات المحبة والإيثار ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

العرقية العنصرية تلوث عقدي ثقافي اجتماعي خطير:

من المهم أن نفرق بين العصبيات والعنصريات الجاهلية من جهة وصلة الرحم الإسلامية من جهة أخرىٰ؛ فالعصبيات والعنصريات هي صفات حيوانية، وفرقةٌ وظلمٌ. أمّا صلة الرحم الإسلامية فهي رحمة وتواصل وعطاءٌ،

يأخذ فيها القوي بيد الضعيف، والكبير بيد الصغير.

ولهذا فإنّ الإسلام بقدر ما ينهىٰ عن العصبية والعرقية، ويؤكد علىٰ معاني العدل والإخاء الإنساني ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ فإنه يوصي بصلة الرحم، ويدعو إلىٰ البـرِّ بذوي القربىٰ توثيقاً للروابط الإنسانية، وإشاعةً لروح المحبة والتكافل والترابط في المجتمع، بل إنّ الإسلام يتوسع في هذه الروابط ليخلق إخاء الرضاع، ويتوسع في حقِّ قربىٰ الجار، وكل هذه الروابط هي روابط إخاء وتراحمٍ لا يشوبها ظلمٌ ولا جورٌ ولا عدوانٌ علىٰ حقٍّ ولا إنكارٌ لكفاءة.

ليس عبثاً أنّ أحد أركان الإسلام -الحج- هو في جوهره رمزٌ لوحدة الإنسان وإخائه؛ ويبدو ذلك جلياً حينما يتجرد المسلمون من كلِّ ما يمايز ويفرق بينهم؛ ليقفوا في يوم عرفة حاسري الرؤوس، في قطعتي قماش أبيض، لا فرق بين كبير وصغير، ولا غني وفقير، وبأي لغة نطق، وبأي لون ولد، كلهم إخوة، وكلهم لآدم، وكل واحدٍ منهم هو إنسانٌ أولاً وآخراً.

إذا شئنا أن نستعيد روح الإسلام، ووحدة الأمة، وسمو الرسالة، لا بدّ لنا من العمل من أجل تنقية ثقافة أبناء الأمة وعقائدهم وقيمهم من "نتن" العرقية وتظالمها وتلوثها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١]، ولا بدّ من إعادة قراءة واقعنا المعيش -بناءً علىٰ مفاهيم عهد الرسالة وممارساته- وتخليصه ممّا هو فيه من سوء الفهم والتأويل، ومن أحابيل أصحاب الأغراض، ومغالطات أصحاب الأمراض.

إن العرقية هي التجسيد القبيح لتشويه الرؤية الإسلامية وقيمها في شريعة النور الروحانية، حيث الوحدة والإخاء والتعاون والتكافل، وحيث "القوة للحقِّ" في مواجهة شريعة الغاب الحيوانية المادية حيث "الحق للقوة" بما تشتمل عليه من التمايز والتناقض والقسوة والافتراس الذي يعتمد سياسات قوة الأنياب والمخالب والعضلات Power politics والمصالح القومية National Interests.

عالم الحقِّ والنور وعالم الغاب والظلام:

ليست القوة مجالاً للتمايز بين عالم الحق والنور؛ وعالم الغاب والجور والظلام، ولكن التمايز بينهما يكون في موضع استخدام القوة لديهما، أهيَ للحق أم للباطل؟ وللخير أم للشر؟ وللعدل أم للظلم؟ وللتراحم أم للتظالم؟ وللإخاء أم للتمايز؟ ولتعبيد الخلق للخالق أم لاستعباد الخلق للمخلوقين وإذلالهم؟

وإذا كان لكل شجرة ثمرٌ، فثمرُ شجرةِ التوحيدِ الإخاءُ والعدلُ والتكافلُ، وإذا كان لكل شيء ضدٌّ ونقيض؛ فضدّ التوحيد ونقيضه التمايزُ العرقي والاستعلاء العنصري وطغيان القوة وعمشها. لا خير، ولا عدل، ولا سلام، في أرض الإسلام خاصّة وفي أرض الإنسان عامة، إلا بالإخاء والتراحم الإنساني، لهذا ضَعُفَ الإخاء والتراحم، إن لم يكد ينعدم، في عام تلوثتْ مجتمعاتُه وحضارته ونشأتْ أجيالُه على "نتن" تمايز العنصرية والعرقية وعصبياتها ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ

﴿فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢]. ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ۝١٠﴾ [الحجرات: ١٠]. ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ۝١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وصدق رسول الله ﷺ: "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية."[1]

إذا شئنا أن نستعيد -حقاً- حسَّ الأمة ومفهومَها، وإذا شئنا أن نقضي على أسباب الفرقة والتمزق والتصارع، وإذا شئنا أن يكون الإيمانُ والتوحيدُ والعدلُ والتعاونُ والتناصرُ -حقاً- أساسَ بنائنا، ومنبعَ وجداننا، فلا بدّ من أن نبدأ بتنقية الثقافة والتربية من سموم التمايز والعنصرية والعرقية وتظالماتها واستكبارها؛ لتعودَ الأمةُ وحدةً قويةً متماسكةً ضمن جملة من الدوائر المتداخلة المشتملة على معاني التواصل والتراحم والتكافل والتناصر "ظالماً" أو "مظلوماً"[2] بدءاً من الفرد والأسرة، مروراً بالأهل والأقرباء والشعوب والأقوام، وصولاً إلى الأمة والإنسانية.

ثانياً: الحصاد المر وآثار الانحرافات الفكرية في بناء الأمة النفسي

لم تتوقف آثار الصراع بين الصفوة الفكرية والصفوة السياسية، وما أدت إليه من عزلة الصفوة الفكريّة، على مجرد ابتعاد هؤلاء عن الممارسة

---

(١) السجستاني، سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج٢، ص٧٥٣، حديث رقم: ٥١٢١.

(٢) روى البخاري أنّ رسول الله ﷺ قال: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه." انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٦٣، حديث رقم: ٢٣١٢.

العملية، والغرقِ في جوانب شكلية ونظرية لشؤون سياسة المجتمع وتنظيمه الاجتماعي، ولا علىٰ مجرد قصر اهتمامهم علىٰ الشؤون الفردية لأبناء الأمـة، بل إنّ الأمر تعدىٰ ذلك إلىٰ تغيّرات جوهرية في فكر الصفوة الفكرية، وفي طبيعة رؤيتها للمجتمع، وإلىٰ صبغ العلاقة بين الصفوة السياسية والصفوة الفكرية بصبغة العداء، وتعارض الأدوار، وتنازع النفوذ لدىٰ عامـة الأمـة. وقد أعطىٰ ذلك للخطاب الفكري والديني بُعْداً سياسياً صراعياً مستمراً، يوزع ولاءات الأمـة وضميرها، ويفقدها الثقة -لأسباب مختلفة- في قياداتها السياسية وأنظمتها الاجتماعية التي بنيت علىٰ العرقية وعلىٰ الحيف والاستبداد.

وكان تأثير تلك الثمار المرة علىٰ الفكر الإسلامي وعلىٰ اهتمام العلماء؛ غيبة البُعد التربوي الصحيح وأدواته الثقافية والمنهجية، النظرية والعملية، وتخلُّف مؤسساته التربوية التعليمية، مما أدىٰ إلىٰ ممارسات معرفية وتربوية كان لها نصيب كبير في تحطيم القواعد والأسس النفسية التي يقوم عليها البناء الاجتماعي والعمراني والحضاري للأمـة.

لقد كان خطاب الإرهاب وسياسة الإرهاب هما الثمرة الملعونة للعجز الذي أصاب الصفوات المسلمة الفكرية والسياسية، لأنّ العنف -الذي يمثّله ذلك الخطاب- هو وسيلة العاجز للتحكم في مواقف لا يدرك المعنيُّ بأمرها قوانينَ حركتها ولا مفاتيح دوران عجلاتها، وأصبح عامة أبناء الأمة حطب الصراع السياسي بين الصفوة الفكرية والصفوة السياسية؛ وهذه كان همها الحفاظ علىٰ مواقع الفرقاء وكسب ولاءاتهم والسيطرة علىٰ جموعهم.

لقد كان أساس الإشكال الذي انحرف بمسيرة مجتمع الرسالة هو ضعف العامل التربوي الإسلامي في تكوين الأَعْراب الذين تم تجنيدهم في جيش الفتح، وكان ضعفُ الإعداد والتربية والتوجيه هو -في نهاية المطاف- أداةَ السوء التي أثارت الفتن وأسقطت دولة الخلافة الراشدة، ومكّنت للفكر العرقي القبلي من إقامة الملك العضوض بكل ما حمله الفكـر القبلي -والشعوبي لاحقاً- من تأثيرات عقدية وتغييرات سياسية واجتماعية واقتصادية.

وعلى سبيل المثال فإنّ كافة وثائق منح الأرض على عهد دولة الرسالة؛ التي كانت مِنَحُها وإقطاعاتُها مِنَحاً وإقطاعاتٍ أُعطيَتْ لاستعمال الممنوح فقط وليس لتملّكه، ولكنها فما بعد الخلافة الراشدة تحوّلت إلى ملكية مطلقة للأفراد والزعامات والأسر،[1] وهو أمر يدل على مدى عمق التحولات والانحرافات، واتساع مداها وبعدها عن سياسات العهد النبوي الراشد.

وقد وضح القرآن الكريم ما كان عليه جُلّ الأعراب من بدائية حضارية وضعف في التكوين العقدي والتربوي، مما استوجب العمل على إعادة تربيتهم وتكوينهم النفسي والاجتماعي والحضاري للدخول في مجتمع الإسلام: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ...﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤]. ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا

(1) Habibul, Sayed. "Al-Iqta: A Historical Survey of Land Tenure and Land Revenue Administration in Some Muslims Countries, with Special Reference to Persia", in *the Contemporary Aspects of Economic and Social Thinking in Islam*, Plainfield, ind.: the Muslim Students Association of USA and Canada, 1970.

يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة: ٩٧]. ولذلك بدأ الإسلام بتعهدهم بالتربية والتعليم، وعمل على إرسال البعثات التعليمية إلى ربوعهم ومنازلهم، إلا أنّ تلك الجهود والسياسات عرقلتها جسامة التحديات العسكرية الفارسية والرومانية، التي كانت تُطبِقُ على دولة الإسلام شرقاً وغرباً وتضطهدُ المسلمين، وتمنعُ الناس من حقهم في قبول رسالة الإسلام، وتناوشُ أطرافَ الدولة وتتربصُّ بهم، وتُعِدُّ العدةَ لتدمير الدولة والمجتمع، وإعادة العرب إلى جاهليتهم والخضوع لسلطانهم.

وهكذا أدى الصراع السياسي، الخارجي والداخلي، إلى إهمالِ دُوَلِ الإسلام للجانب التربوي، وإهمال البُعد المعرفي الإنساني الاجتماعي في دراسة الطبائع والوقائع والمتغيّرات في الزمان والمكان، وبالتالي عدم إدراك أهمية الطفل وتربيته كأساس للتغيير وتصحيح المسار.

وبذا لم تتح الفرصة أمام العقل المسلم، الذي كان يعاني من الاستبداد والإرهاب والانغماس في الجوانب الجزئية والنظرية، لكي يواجه تفاقم تشوهات شخصية الإنسان المسلم وانحراف ممارساته الاجتماعية، فيوجه العناية العلمية اللازمة لتنمية علوم السنن الاجتماعية، وفهم الطفولة والعناية بالطفل وعلوم تربيته ونوعية ثقافته، ودراسة نفسيته ووسائل تنمية شخصيته وعقليته وقدراته، وجعلها قضيةً مركزيةً علميةً يبذل فيها جهد البحث والدراسة والملاحظة؛ لمعرفة طبائعها وسننها ومفاتيح أسرارها وكوامن طاقاتها، والأساليب والإمكانات والأهداف المناسبة المتطورة لمواكبة حاجاتها وتحدياتها.

هذا القصور يُـعَـدُّ من أهم الأسباب الحقيقية التي تفسِّر تخلُّف الأمـة واستعصاءها على الإصلاح والنهوض حتى اليوم، وهو ما يفسِّر في الوقت نفسه نجاح جهود النهضة الأوروبية الحديثة، التي جعلت -في ضوء رؤيتها الكونية العلمانية الليـبرالية الجديدة، ومناهج معرفتها الحسية والعقلية- من القضية التربوية المبنية على أسسٍ علميةٍ تجريبيةٍ أساسَ نهضتها، وحجرَ الزاوية في تطوير طاقاتها.

الفصل الثالث:

الطفـلُ: قاعدةُ الانطلاق

في تتبعنا فيما سبق لوجوه النقص والقصور في مسيرة الأمـة الإسلامية، وما اعتورها من الانحرافات والتشوهات، علينا ألا ننسى أنّ عطاء الإسلام للإنسانية وتفاعله معها قد استمر، على مرِّ العصور، وعلى الرغم من كلِّ الظروف. فالقاعدة الإسلامية البشرية العريضة ظل يسري في أوصالها على الدوام -بمقدارٍ من التفاوت بين فترة وأخرى، وقطر وآخر- كثيرٌ من روح الإسلام وعقائده وقيمه ومبادئه الأساسية.

هذه البقية من روح الإسلام هي التي تفسِّر ما بقي في كيان الأمة وهويتها من قوةٍ وطاقةٍ وقيمٍ وغاياتٍ ساميةٍ، إذا ما قورنت -لقرون عديدة- بالأمم الجاهلية والوثنية من حولها، ممّا جعل حضارتها، برغم كل التشوهات والانحرافات التي أصابت عقليتها ونفسيتها وأنظمتها، الحضارةَ الأعلى لقرون عدّة، قدّم خلالها علماء الأمة ومفكروها وفلاسفتُها وصُنَّاعها ألواناً وآفاقاً جديدة للتقدم والإبداع العلمي. وما كان للحضارة الإنسانية أن تتابع مسيرتها التي حققتها اليوم، وأن تصل إلى ما وصلت إليه، دون ذلك التراث العلمي الحضاري العريق.

ولكنّ ذلك كله يجب ألا يصرف نظرنا النقدي هنا عن تلمس الأسباب التي أضعفت روح الدفع الإسلامي، وسمحت بتخلُّف الأمـة وانحطاط أدائها، في الوقت الذي انطلقت فيه الأمم الأخرى متقدمة ومتحدية أمة

الإسلام، ومتحكمـة في مقاديرها على الحال المؤسف الذي نراه ونشاهده اليوم.

أولاً: حركات الإصلاح الإسلامي والحاجة إلى التقييم

إذا أمعنا النظر في تاريخ الأمة، سنجد أنّ محاولات الإصلاح قد تعددت، وتصدى لها العديد من العلماء والمفكرين والقادة والسلاطين، على أسس وغايات: دينية، وسياسية، ومدنية. ومن أهمها محاولةُ أبي حامد الغزالي (توفي ٥٠٥هـ/ ١١١١م) الذي صرف همّه إلى تصحيح مسار الفكر الإسلامي، وتخليصه من تهويمات الفكر الفلسفي الإغريقي الميتافيزيقي الذي ضلَّلَ الفكرَ الإسلامي، واستنـزف طاقته فيما لا جدوى منه في رؤية الإسلام.

وفيما كشف "تهافت الفلاسفة" ذلك البُعد، جاء "إحياء علوم الدين" للعمل من أجل استعادة الأمة طاقتها الروحية؛ باستعادة العلاقة الإيجابية والتمازج بين المعرفي الشرعي والوجداني الإسلامي، وبتخليص العقل المعرفي الشرعي من تشوهات الفلسفة الميتافيزيقية الإغريقية وتحريفاتها. والتزام الشرعي الإسلامي ممتزجاً -وَفْقَ رؤيته- بالزهد الإسلامي، منزَّهاً من انحرافات التصوف الفلسفي الحلولي الذي ورثه المسلمون من الفلسفة الميتافيزيقية اليونانية.

وللأسف فإن محاولات الغزالي لم تنجح لأنّها لم تكن إصلاحاً منهجياً جذرياً لمنطلقات المعرفة الإسلامية، إذ بقيت جهوده الإصلاحية الرائدة في دائرة التأملات الفكرية النظرية التي لم تحقق متطلبات التغيير الجذري الفكري الاجتماعي الإسلامي.

وجاء بعد الغزالي مفكرون ومصلحون كثيرون؛ منهم شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية والإمام علي بن أحمد بن حزم والعلامة عبد الرحمن بن خلدون. ومن هذه الجهود تلك الإصلاحات السياسية والإدارية والعسكرية التي قام بها أمراء آل زنكي وصلاح الدين الأيوبي، والتي مكّنت من تجديد قدر كبير من طاقة الأمة الروحية والمادية؛ مما مكّنهم من هزيمة جيوش الصليبيين الغازية، وتحرير الأرض، واستعادة المقدسات.

وبدخول القبائل التركية البدوية ذات القوة والشكيمة في الإسلام تجددت دماء الأمة، ثم ما تلا ذلك من قيام دولة بني عثمان وتنظيماتها الإدارية والعسكرية التي رفعت راية الإسلام في شرق أوروبا، وإن رزحت بلاد العرب وما جاورها من بلاد المسلمين في ركودها وسباتها. واستمرت دولة الإسلام في إسبانيا في تمزقها وتناحر قبائلها وأعراقها وأمرائها وملوك طوائفها، حتى دمرها الإسبان. ثم غرق العالم الإسلامي منذ القرن الثامن عشر الميلادي في التخلُّف والعجز والانحطاط، وتراجع أمام قوة الأوروبيين المتنامية.

ثم أخذت كوامن المقاومة والتطلع إلى الإصلاح والتغيير تتحرك في الأمة الإسلامية، ومن ذلك محاولة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢م) إحياء فكر ابن تيمية، وحركة محمد بن علي السنوسي في ليبيا (١٧٨٧-١٨٥٩م)، وحركة الإمام محمد المهدي في السودان (١٨٤٣-١٨٨٥م)، وحركة عبد الحميد بن باديس الجزائري (١٨٨٩-١٩٤٠م) الإسلامية الإصلاحية التي أسست لتحرير الجزائر ثم استقلالها عام ١٩٦٢م. ومنها إصلاحات سلاطين آل عثمان المدنية والعسكرية، بدءاً بالسلطان سليم الثالث

(١٧٦١-١٨٠٨) وانتهاءً بالسلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨م). والإصلاحات المدنية التي أدخلها والي مصر الخديوي محمد علي باشا (١٧٦٩-١٨٤٩م) على النمط الأوروبي في الجوانب الاقتصادية والزراعية والصناعية والتعليمية والعسكرية، وحركة جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧م) الإصلاحية الفكرية السياسية، ومدرسة الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م) في الإصلاح الديني والثقافي، وإجراءات الجنرال كمال باشا أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨م) العلمانية في تحديث تركيا على النمط الأوروبي حين ألغى الخلافة العثمانية وأعلن قيام الجمهورية التركية عام (١٩٢٣م)، وأقام القانون السويسري مقام الشريعة الإسلامية. وحركة الإمام حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩م) الإسلامية السياسية الاجتماعية الإصلاحية التي انتشرت في مصر والبلاد العربية، وحركة الشيخ أبي الأعلى المودودي (توفي ١٩٧٩م) الإسلامية السياسية الاجتماعية الإصلاحية في شبه القارة الهندية، إلى جانب سلسلة طويلة من المفكرين والإصلاحيين، منهم: شاه ولي الله الدهلوي (توفي ١٧٦٣م)، والعلّامة محمد إقبال (توفي ١٩٣٨م)، وخير الدين التونسي (توفي ١٨٩٠م)، وعبد الرحمن الكواكبي (توفي ١٩٠٢م)، ورشيد رضا (توفي ١٩٣٥م) وسيد قطب (توفي ١٩٦٦م)، ومالك بن نبي (توفي ١٩٧٣م)، وغيرهم.

وعلى الرغم أنّ جُلّ هذه الجهود، التي تنوعت وغطت كل الاتجاهات الإسلامية والمدنية في الجوانب العقدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، كانت صحيحةَ المنطلقات، فإنّهم ومع ذلك فإنه من الواضح أنهم لم يضعوا

أيديهم على أسّ الداء ومنبع البلاء، ولم يتمكنوا من تحقيق مقاصدهم في أن يحركوا بشكل فعّال كوامن طاقة الأمة، وأن يصلحوا بناءها الفكري أو النفسي، وأن يسدوا ما بينها وبين الأمم المتقدمة من فجوة الأداء والقدرة والحضارة.(١)

أمام هذا الحالة التي كانت عليها الأمة لا يجد الباحث والمفكر بداً من أن يستمر في البحث والتنقيب حتى يهتدي إلى سبب العلة أو أسبابها المهمة الكبرى المؤثرة، ويأخذ بأسباب علاجها، حتى يصح جسد الأمة ويتميز أداؤها وتتصدى بنجاح لما تواجهه من تحديات، وحتى تستطيع في نهاية المطاف أن تقدم للإنسانية عطاءها، وتسترد عافيتها وحقوقها وكرامتها، وتسهم في بناء حضارتها.

الطفلُ؛ الجندي المجهول:

وما نراه في هذا البحث هو أنه لم يبق الكثير مما لم يتطرق إليه الفكر الإصلاحي والحركات الإصلاحية الإسلامية بشكل جاد حتى الآن، إلا أن أهم الأبعاد والأسباب التي يجب الالتفات إليها هو قضية الطفل بصفتها وسيلة أساسية لإحداث الإصلاح والتغيير المطلوب؛ وذلك لما للطفل من قدرة على تلبّس الأحوال التي توفّر شروط الإصلاح والتغيير التي تنادي بها حركاتُ الإصلاح، وتؤدي إلى إعادة تأهيل الفرد المسلم، والمجتمع المسلم،

(١) لإدراك أبعاد هذه القضية الفكرية انظر:

- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **أزمة العقل المسلم**، هرندن والرياض: المعهد العالمي للفكر الإسلامي والدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٩٩٤م.

وتمكنه مجدداً من امتلاك القدرة علىٰ مواجهة التحديات.

ولو أن الفكر الإسلامي أمعن النظر في عمليات التغيير والنمو والتطور الملموس جسدياً ونفسياً لدىٰ الطفل؛ لانصرف هذا الفكر إلىٰ إدراك بُعْدِ التغيير في النفس الإنسانية، وفهمِ أحواله ومتطلباته، ولكان ذلك أفضل مدخل إلىٰ إحداث الإصلاح المنهجي للمعرفة الإسلامية، وإعادة بناء الشخصية المسلمة بأبعادها الفردية والجماعية.

ثقافة العامة وثقافة الخاصة: مرضٌ ما يزال ينخر البناء:

ومن الملاحظ أنّ النـزر اليسير الذي أولته الأمـة للطفل وللتربية والتعليم في سالف عصورها كان ذا شقين متباينين:

الشق الأول: هو الشق الموجه لأبناء الخاصة، وجاء في شكل نصائح وتوجيهات مقدمة إلىٰ مؤدبي أبناء الخاصة الذين يقومون بتعليمهم في دورهم، وفيها كثير من معاني الرفق والكرامة وحسن المدخل التي يربىٰ عليها أبناء السادة والصفوة من عِلْيَةِ القوم، وذلك لإعداد هؤلاء الأبناء لمراكز الرياسة والحكم والسيادة في المجتمع. ومن ذلك وصايا معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، والحجاج الثقفي، وهارون الرشيد، وسواهم من سادة القوم وأهل الرياسة، وقد حفظتها لنا كتب التاريخ والتراث، ويعمل علىٰ تعليم هؤلاء الصغار أساتذةٌ يقومون بتربيتهم وتعليمهم علوم الدين والأدب والثقافة والرياسة.

الشق الثاني: وهو الشق الخاص بأبناء العامة، وكان تعليم هؤلاء يتم في "الكتاتيب"، حيث يتعلمون شيئاً من القرآن الكريم، وبعض مبادئ الحساب

التي تُعدُّ أداة ضرورية لإدارة حاجات الفرد اليومية. وكانت حالة "الكتاتيب" وقدرة معلميها، وسائل التعليم فيها -كما يحدثنا التاريخ- على قدرٍ كبيرٍ من السوء والمهانة، واعتماد الاستظهار واستخدام العقاب الجسدي. وكان تعليم هؤلاء الصغار فيها يتم بالنزر اليسير على نفقة الآباء الذين كان كثير منهم يعيش في حالة من العوز والكفاف والفقر المدقع، ولم يُعْنَ بأمر هذه "الكتاتيب" وحالة التعليم المتردية فيها، ويصفها ويأسى لأحوالها؛ إلا قليلٌ من أصحاب الفكر والعلم، من أمثال الإمام الغزالي والعلامة ابن خلدون، وقد وجهوا النقد إلى حالها ووسائلها وانحطاط مستوى معلميها، حتى إنّ بعضهم كان ينصح الآباء بألا يُعلِّم معلّمو الكتاتيب أبناءَهم أيَّ شيءٍ من أمور العقيدة، وما ذلك إلا لانحطاط معارف هؤلاء المعلمين وفساد عقائدهم.

وكانت النتيجة سوء حالة تعليم عامة أبناء الأمة وانحطاط ثقافتهم ووسائل تربيتهم. ومن الواضح أن وجود نوعين من الثقافة والتعلم قد ساعد على ذلك.

ويلحق بهذين النوعين من التعليم نوعٌ ثالثٌ لإعداد الموظفين، ويتمُّ في عدد محدود من المدارس والحلقات الدراسية التي تُمَوَّلُ عن طريق الأوقاف، ويؤمّها قلّةٌ من الشباب المنتقى لتكوين الصفوةَ العلمية الدينية، ويقوم بأعمال الكتابة والخدمة في الدواوين، وأعمال الفتوى والقضاء؛ حيث يتلقون في تلك المدارس الدروس الدينية والأدبية واللغوية، ولا سيّما دروس الفقه وأصوله وكان لها أعظم الرواج بسبب الحاجة إلى أعداد كبيرة من أصحاب الفتوى والقضاء.

هكذا كان حالُ تعليم أبناء الأمة في الماضي، وهو ما يزال كذلك إلىٰ حد كبير في الوقت الحاضر، وفي جل البلاد الإسلامية إن لم يكن فيها جميعاً. حيث نجد أنّ أبناء الخاصة يتعلّمون علىٰ نفقة آبائهم في المدارس الخاصة والأجنبية، وهي مدارس يتوفر لها كثير من الإمكانات والوسائل والأساليب التعليمية والتقنية التي لا تتوفر لمدارس أبناء عامة الأمة، وهي في الوقت نفسه مدارس تسهم في تغريب عقلية طلابها؛ مما يضعفُ صلةَ كثيرٍ منهم بقومهم ودينهم وثقافتهم، ويضعفُ إدراكَهم لحقيقة مشاعر أمتهم وكوامن الطاقة والتحريك فيها، ويحوّلهم في جُلِّ الحالات إلىٰ زعامات وقيادات فوقية مستبدة فاسدة مترفة، تتمكَّن -بوسائل أجهزة القهر ومساندة الأجنبي وإغراءاته، وبما وقر في نفوس أبناء الأمة من التلوثات الثقافية والأمراض الوجدانية- من أن تُحْكِمَ قبضتَها علىٰ مقاليد بلادها، وتُخْمِدَ فيها كل قوىٰ الحركة والقدرة والمبادرة والإبداع؛ لتنتهيَ حالُ شعوبها إلىٰ ما نراه من العجز والفقر والجهل والتخلُّف بظلامه وظلاماته، وبطش الأجنبي الطامعِ بمقدراتها، والساعي إلىٰ تبديد ثرواتها وانتهاك حرماتها ومقدساتها.

ولقصور الثقافة الإسلامية أصبح الطفل هو الحلقة المفرغة التي يدور في رحاها عجز الأمة عن تغيير أحوالها وتجديد طاقتها. فإهمالُ شؤون تربية الطفل المسلم، وعجزُ الفكر المسلم في مجالها، وعدم إدراك أهمية التنمية التربوية والتعليمية للطفل في البلاد الإسلامية، والتقصيرُ المريع في توفير متطلبات هذه التنمية، هو أمر من أهم أسباب العجز عن إحداث الإصلاح والتغيير المطلوب في إعادة صياغة العقلية والوجدان لدىٰ الطفل المسلم.

تنمية الوعي التربوي وإصلاح التعليم أساس الإصلاح:

إنّ من أهم ما نقع فيه من الخطأ أننا نجهد أنفسنا في خطاب البالغين ووعظهم، في الوقت الذي نهمل العناية بنموهم وهم صغار، ولا نسعىٰ إلىٰ إحداث التغييرات المطلوبة في بنائهم النفسي والوجداني بما يحقق تطلعات الأمة وهم في سن التربة والتعليم والتأثير، وهكذا يستمرّ الانحراف والعجز دواليك، عودٌ غضٌّ نديّ يهمل، فيشب معوجاً، وعودٌ يابسٌ معوجٌّ لا يفيد فيه ولا ينفع معه نداء أو دواء.

إنّ الإدراك العقلي لدىٰ البالغين لا يكفي -بالضرورة- لتحريك وجدانهم، ولا يؤدي إلىٰ انفعالهم وتفاعلهم، فكم من جبان لا يعرف عنه شيء من أوصاف الشجاعة إلا أنه يحفظ من عيون شعر الحماسة ما لا يعلمه كثير من الشجعان، وكم من طبيب يدخن بشراهة وهو يعلم أضرار التدخين ما لا يخطر ببال كثير ممن لم تمس لفافة التبغ "السيجارة" شفاههم، ولكم يثير الفزع في النفس ما ترىٰ من متابعة كثير من أبناء المسلمين -مثقفين وعامة- لكثيرٍ من قنوات الأخبار، وكم يلتهمون من الصحف والتحليلات من كل المصادر، ولا ينقصهم إدراك عقلي لوجوه القصور في أمتهم وألوان الحاجة لديهم، ولكنّك لا ترىٰ لذلك أثراً في أفعالهم وعطائهم وسلوكهم وتصرفاتهم، وكأن الإنسانَ المسلمَ جهازُ مذياعٍ أو تلفاز لا ينقطع عن اللغو والثرثرة، إلا أنه لا نصيب له في الفعل والبذل والعطاء.

إنّ من أهم الأسباب لهذه الظاهرة المرضية أن الأبعاد العامة في بناء الشخصية المسلمة قد أهملت في مراحل التكوين المبكرة، وبُدِّدَتْ فرصُ

بنائها، ولن يجدي الحديث عنها إلىٰ البالغين شيئاً. فكل ما يحدثه التذكير والوعظ والإيضاح عند البالغ هو الإدراك العقلي، ولا علاقة لذلك بالانفعال الوجداني ما لم يكن ذلك قد تم غرسه بالفعل في أثناء الطفولة، مثله في ذلك مثل اللغة الأولىٰ واللغة الثانية في تأثيرهما علىٰ النفس وانفعالاتها.

فالانفعال والإبداع لا يكون عادةً إلا باللغة الأولىٰ، ولذلك كانت أهميةُ إثراء اللغة الأولىٰ لكلّ شعبٍ بكلّ جديد؛ أمراً في غاية من الأهمية. أمّا اللغة الثانية التي تعتمد في نفس الإنسان علىٰ الترجمة فلا يمكنها تحريك المشاعر والانفعالات بسهولة، ففي اللغة الأولىٰ لا ينفصم اللفظ عن موضوعه، ولا يمكن تصور الموضوع دون استدعاء اللفظ، وإحداث التلاحم بين اللفظِ رمزاً والموضوعِ محتوىً هو سر الانفعال والتفاعل في هذه اللغة.

الدرس الموسوي والتغيير الاجتماعي:

لعل من المهم هنا أن نذكّر بالعبرة التي تقدّمها لنا القصة القرآنية للتجربة الإسلامية الموسوية في إصلاح بني إسرائيل. فقد استُضعفوا واستُعبدوا ظلماً وعدواناً في مصر الفرعونية، فأراد الله أن يمنَّ عليهم، وأن يصلح ما أفسده الظلم والقهر والاستعباد في نفوسهم، فلما أخرجهم نبي الله موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ صحراء سيناء في الطريق إلىٰ أرض الميعاد طلب إليهم أن يتوجهوا لأخذ الأرض وإقامة الدولة والمجتمع، وليستعيدوا حريتهم ويحملوا مسؤولياتهم.

ولأنّ القوم قد نُشِّئوا نشأة العبيد؛ لم يكن بإمكانهم أن ينهضوا بتبعات البناء وتضحياته ومبادراته، وكان لا بدّ لهم من أن يجيبوه جواب العبيد في الخوف وعدم المبادرة، وذلك حين قال لهم: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ

﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: ٢١-٢٢]. وعبّروا عن السلبية وعدم المبادرة -وهي الصفة الثانية لنفسية العبيد- بالتنصل من المسؤولية وإلقاء العبء على الآخر الذي هو هنا سيدنا "موسى" عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو يوازي في لغة شعوبنا اليوم: "الحكومة"، أو "الأمم المتحدة"، أو "المجتمع الدولي". وذلك أن العبد -نتيجة وضعه وتكوين نفسيته- يصبح سلبياً، ليست له مصلحة ولا حق في أخذ المبادرة، وكل ما يقدر عليه هو أن ينصاع للأوامر، فهو العبد المأمور".

وهكذا كان الشقُّ الثاني وهو جواب بني إسرائيل لموسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ جواب التخاذل والتخلي عن المسؤولية وإلقائها على عاتق "الآخر": ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤].

ولأنّ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يعلم أنّ التقريع والنداء والوعظ لن يغيّر من طباع هؤلاء البالغين "العبيد" شيئاً يذكر، ولن يوفّر لهم الطاقة اللازمة والقوة والشجاعة التي يتطلبها البناء والمدافعة، فقد كان عليه أن يصرف جهده إلى الناشئة لكي يؤهلهم، ويغرسَ في أساس بنائهم الصفات المطلوبة لبناء الحضارة، وإقامة المجتمع، ومواجهة التحديات.

من المهم أن ندرك أنّ هناك فرقاً بين توجيه الوجدان والطاقة النفسية، وبين طبيعتيهما. فالوجدان والطاقة النفسية يمكن توجيههما وإعادة توجيههما بناء على القناعات التي يمكن أن تتغيّر حسب ما يتعرض له المرء من

إدراكات وتجارب، فيؤمن الكافر، ويقلع المعتدي، ويهتدي الضال. أما أصل طبيعة الوجدان والبناء النفسي فلا تقبل التغيير؛ حيث إن الشجاع لا يصبح جباناً، والبخيل لا يصبح جواداً، والحر الكريم لا يصبح دنيئاً لئيماً.

ومثل ذلك فإن جندي الجيش الجيد وعضو العصابة المجرم يتمتع كلٌّ منهما بصفتين أساسيتين مشتركتين من صفات البناء النفسي هما الشجاعة والولاء، لكنهما يختلفان في الوجهة، فجندي الجيش رجل خير يقوم بحماية الأمة والوطن، ورجل العصابة رجل شر يسخر نفسه للجريمة والأذىٰ، وقد يهتدي رجل العصابة الضال ويرجع عن غيه وعدوانه، وقد يضل رجل الجيش والأمن ويسعىٰ بالشر والفساد. وقد كان الشجاعان الفاروق عمر بن الخطاب وأبو جهل عمرو بن هشام بطلين وقائدين: أحدهما بطل الهداية والإسلام، والثاني بطل الكفر والجاهلية.

ولذلك كان قرار سيدنا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بتوجيهٍ إلهيٍّ -لعلم الله بالطبائع، ولعلمه بحال بناء القوم النفسي- أن يتوجه إلىٰ العمل الجذري لتحقيق الإصلاح وإحداث التغيير علىٰ مستوىٰ القلب والوجدان، وعدم تعجُّل الثمر؛ وذلك بالعمل علىٰ إعادة تربية القوم، ولذلك توجه جهده إلىٰ الناشئة لبنائها علىٰ الأسس السليمة ثقافة وعقلاً ووجداناً.

وهكذا ألزم سيدنا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -بتوجيهٍ إلهيٍّ- جيل "العبيد" من بني إسرائيل البقاءَ في صحراء سيناء أربعين عاماً علىٰ ما في ذلك من المشقة والعناء؛ حتىٰ يكتمل بناء جيل مؤهل متخلص من تشوهات العقل والنفس الناجمة عن عهد الاستعباد. ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى

﴿ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة: ٢٦]، فكانت النتيجة بناء جيل الأحرار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ٢٥١﴾ [البقرة: ٢٥١]. وفي هذه التجربة الربانية درس وعظة وعبرة لكل من يدرك الطبائع ويكون على علم ودراية بعلوم النفس والتربية والمجتمع.

لهذا كان غياب الطفل عن أن يكون محوراً تربوياً علمياً مهماً في مشروع إصلاح الأمة، وكان الاقتصار على توجيه الخطاب الوعظي إلى البالغين، تعجلاً لقطف الثمر، إنما يعبّر عن أزمة الفكر في الأمة، وعن الغفلة عن دور المعرفة والبحث والدرس والقياس والتجريب في علوم الطبائع وتكاملها مع معارف الوحي.

ثانياً: موقع الفكر من مشكلات الأمة الكبرى

لا شك في أنّ المشكلات والأزمات التي تعاني منها الأمة كثيرةٌ وعديدةٌ، وكذلك الأسباب التي تنشئها وتغذيها، ولكن هناك -في جلّ الأحوال- مشكلات كبرى تُعَدُّ الأمهات لكثير من المشكلات الأخرى التي تتفرع عنها وتتأثر بها، كما أن هناك أسباباً كثيرة تسبب هذه المشكلات وتغذيها، ولكن المهم في غمرة المشكلات المتراكمة والمتراكبة والأسباب المتشابكة التنبهُ إلى الأسباب الأساسية التي لا يمكن، للتعامل مع تلك المشكلات بفاعلية، إلا التصدي لها؛ لتكون منطلقاً للعلاج والتغلب على باقي الأسباب.

ومن الواضح أنّ العالم الإسلامي واسعُ الأطراف، غنيٌّ بالموارد البشرية والمادية، له جذور تاريخية وحضارية، ممتلئ بالتطلعات، واعدٌ بالقيم والمبادئ، ومع ذلك فإنّه عالم متخلف، وفي حالة مريعة من التمزق، تتوزعه العداوات والصراعات، ممّا مكَّن لقوى كثيرة لا تقاربه حجماً ولا وفرة موارد ولا سمو أهداف وغايات، من أن تتغلب عليه وتقهره، وتسلبه حقوقه، وتتحكم في مقدراته.

ولعل بعض الأدبيات الشعبية تصدق في التعبير عن واقع هذا الحال بما قد يغني عن ألف مقال. فمن ذلك ما يروى من أنّ أحد الأعراب سُئل عن أحد الرجال إن كان يحبه، فكان جوابه أن "نعم.. فإنه ليس بجار ولا قريب!!" بحيث أصبح حال الأمة من التمزق والتناحر يجري على تناسب عكسي على ما يجب أن تكون عليه علاقاتها وصلاتها وروابطها التي تنمي وشائج التضامن، وتوثق دواعي المحبة فيما بينها.

وإذا كان الأصل هو أنّ "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه"، و"من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته،"[1] وأنّ "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً،"[2] و"مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد

(١) القشيري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج٤، ص١٩٩٦، حديث رقم: ٢٥٨٠.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص١٨٢ حديث رقم: ٤٦٧. انظر أيضاً:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٩٩، حديث رقم: ٢٥٨٥.

بالسهر والحمى،"[1] فكيف نفسّر هذا الحال الرديء المعكوس المنكوس؟ وبأيّ دينٍ أو عقيدةٍ، أو بأيّ عقلٍ ومنطقٍ، أو بأيّ فائدةٍ ومصلحةٍ، يمكننا فهم هذا الحال وتبرير واقعه؟!

تعددت الرؤى لفهم هذه الظاهرة، كما تعددت المشاجب التي نسبت إليها، وفشلت -على ما نرى- جميع الحلول التي بنيت على هذه الرؤى والمشاجب، ولذلك لا بدّ لنا من رؤيـة أشمل وأعمق، حتى نفهم الظاهرة ونحيط بأسبابها العميقـة والجوهرية دون أن تختلط في أذهاننا بما يترتب عليها من أسباب ثانوية وأعراض مرضية.

الإسلام مصدر ما بقي في الأمة من خير:

إنّ من المؤسف والمعرقل لنهضة الأمة أنّ جُلّ صفوتها الحاكمة والمتنفذة المعاصرة تستلهم جوهر فكرها ونظرتها لأمتها وهويتها وتاريخها من نظرة الغرب الطامع الغاصب المستعمر وأدبياته لكل ذاكرته التاريخية الصليبية مع العالم الإسلامي والدولة العثمانية، وبكل ذاكرة معاناته التاريخية مع كنيسة العصور الوسطى وفكرها الكهنوتي الأسطوري، الذي وظّف المقدس لاحتكار السلطة والثروة وتمكين الاستبداد والفساد، ووأد براعم قوى العقل والعلم والتغيير والإبداع في المجتمع، مما جعل صفوات الأمة الإسلامية الحاكمة لا تدرك طبيعة منظومتها الحضارية، وما تنطوي عليه من طاقات حضارية إعمارية خيرية إيجابية، والتي شوَّهها السياسي القَبَلي والشعوبي

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٩٩، حديث رقم: ٢٥٨٦.

الموروث، في سبيل توظيف المقدس لخدمة احتكار السلطة والثروة، وتمكين الاستبداد والفساد، ووأد قوىٰ العقل والعلم والإبداع ومفاهيم التوحيد والاستخلاف والمسؤولية والحرية والشورىٰ، وقيم التكامل التكافل، فيسارعون خطأ وجهلاً دون نظرة فاحصة عالمة ناقدة إلىٰ نسبة كل مشكلة أو نازلة تنزل بأرض المسلمين إلىٰ الإسلام، مهما كان ذيل الإسلام فيها طاهراً، وإسهاماته فيها إيجابية، وسجله التاريخي فيها مضيئاً.

والحقيقة الناصعة فيما يهمنا هنا، أي في مجال الوحدة والتكافل هي أن كل إسهامات إيجابية في تاريخ المسلمين تدعم وحدة المسلمين وتدعو إليها، فإنها ترجع إلىٰ الإسلام وقيمه، فهو الذي وحّد أصلاً قبائلهم وشعوبهم، وسوّىٰ وآخىٰ بينهم، وجعل من كل سلبيات العنصرية إيجابيات تدعو إلىٰ التساوي والتآخي والتضامن. فكل البشر من نفس واحدة، وتباينهم شعوباً وقبائل سبب ومدعاة للتعارف والتفاعل والتكامل، واختلاف ألسنة البشر وألوانهم هي من مظاهر عجائب خلق الله وآياته وبديع صنعه في تسوية الإنسان وكمال خلقه، وليس شيء منها أداة أو وسيلة للتعالي والاستكبار والتناحر والعداء، فإن أكرم الناس عند الله "أتقاهم" و"أحبهم" إليه "أنفعهم" لخلقه.

وسوف يظل صدىٰ القرآن الكريم والسنة النبوية، وسِجل تاريخ عهد الرسالة في بناء الأمـة، وسياساته في العدل والتضامن والتكافل وتأليف القلوب وإرساء أسس السلام الشامل والأمن الجماعي في المجتمع، يثير في نفوس المسلمين أسىً وألماً ولوعـةً وندماً وتطلُّعاً لا ينقطع إلىٰ الوحدة التي يدعو إليها الإسلام.

فإذا لم يكن الإسلام وقيمه ورؤيته الكونية هي السبب في التمزق والصراع في صفوف الأمة؛ فهل السبب يكمن في تعدّد الأعراق والأجناس واللغات والتقاليد وتباعد البلاد والأطراف؟ وهل الاستعمار وتآمر الأجنبي ودسائسه وأحابيله وعدوانه أسباب أخرىٰ للتمزق والتباغض والعداء والصراع بين دول العالم الإسلامي وشعوبه؟

الاستعمار مضاعفة ومرض:

ونحن -وإن كنّا نعلم أنّ الاستعمار، بسياساته وتدابيره وكيده وعدوانه، كان وما يزال من الأسباب التي أسهمت وتسهم فيما آل إليه العالم الإسلامي من حال بائس- فإنّنا في الوقت نفسه، نعتقد أنّ الاستعمار ونجاح سياساته الظالمة العدوانية إنّما هي أعراض مرضية مكّنت لـها تربةٌ مريضةٌ بأمراض أخطر وأعمق تكمن في صُلب كيان الأمـة، تحطم حصانتها، وتمكّن لسياسات الاستعمار منها، وأنه لا يمكن التخلص من سياسات الاستعمار، وقدرته علىٰ تمزيق صف الأمة، وإلقاء العداوة بين صفواتها، وإثارة الحروب والصراعات بين دولها وشعوبها، إلا إذا قُضِيَ علىٰ الأسباب الكامنة في كيان الأمة، والتي تضعف حصانتها، وتجعلها قابلة لنفاذ سياسات الاستعمار فيها ومؤامراته عليها.

ولكي ندرك سطحية تلك الأسباب وثانويتها لا بدّ لنا من فهم أشمل وأعمق للظواهر المرضية في حنايا كياننا وتلافيف نفوسنا. ولتوضيح هذه القضية فإنه من المفيد أن نأخذ نماذج إنسانية شبيهة بصفات أمتنا، وما حلّ بها من نكباتِ تسلطِ الاستبداد والاستعمار، لنرىٰ كيف واجهتها تلك الأمم، ولنرىٰ آثارها مقارنة بفعلها فينا، وما إذا كانت هذه الأسباب في ذاتها كافية

لتفسير ظواهرنا المرضية وآثارها في كياننا. وسوف نختار ثلاثة أمثلة بينها وبين أحوال الأمة الإسلامية أوجه شبه عديدة، وهي: الصين والهند وأوروبا.

مقارنات في قضية الوحدة الإسلامية: الصين، والهند وأوروبا:

الصين:

ونبدأ بالصين لأنّها تكاد تكون في كثير من الصفات توءَم العالم الإسلامي، كمّاً وكيفاً، وسعة وتنوعاً، وتاريخاً.

فالصين عالم يضم -كالعالم الإسلامي- أكثر من خمس البشرية، وهو عالم مترامي الأطراف: من بلاد الثلج والصقيع في منشوريا إلىٰ عالم الصحارىٰ والغابات الممتدة حتىٰ حواف بلاد الاستواء. وهي تضم شعوباً وقبائل كثيرة العدد، مختلفة الأعراف والأعراق، بل إن لغاتها تتعدد ولا يجمعها لسانٌ منطوقٌ واحد، فالتواصل اللغوي بين شعوبها يتم عن طريق التعرف المشترك لصور آلاف الكلمات الصعبة المعقدة، ذلك لأن اللغة الصينية لغةُ صور، وهي في ذلك كاللغة الهيروغليفية الفرعونية القديمة البائدة. وهكذا فقد يلتقي اثنان من أبناء عالم الصين، ومع ذلك يصعب بينهم التفاهم الشفوي لاختلاف لغاتهم المنطوقة. وبسبب اللغة المصورة المكتوبة يستطيع كل المتعلمين من أبناء الصين فهمها لغةً ووسيلةَ تواصل مشتركة فيما بينهم.

والصين ذات تاريخ طويل حافل، مرّ بشعوبها الأباطرة وأمراء الإقطاع، ودار بينهم الكثير من الحروب والصراعات، ونال شعوبهم الكثير من المآسي والمظالم، كما أنشب الاستعمار أظافره في بلادهم، وأخضعها لحكمه ومظالمه

ومطامعـه، علىٰ نحو ما ألـمَّ بالعالم الإسلامي من حكم السلاطين والأمراء والإقطاع والاستعمار.

وبقيت الصين، بفضل ثقافة شعوبها ووجدانهم وحسهم الجمعي، مجتمعاً وكياناً ودولةً واحدةً، وما يدور اليوم من صراع بين دولة الصين وجزيرة تايوان ليس هدفه في الحقيقة الانفصال وتمزيق وحدة الصين، ولكنّه صراع بين الفئات والمصالح تحت غطاء المشروعية، وما يُبقي علىٰ استمرارية هذا الصراع وخروج جزيرة تايوان عن وحدة الدولة والتراب الوطني الصيني الأم ويؤججه؛ هو مصالحُ الأجنبي وسطوةُ صواريخه وأسطوله.

الهـنـد:

والمثل الثاني هو دولة الهند، فالهند أيضاً تجمّعٌ إنساني هائل قارب في تعداده خمس البشرية، وتعدىٰ المليار نسمة، يغطي شبه القارة الهندية من جبال ثلوج الهملايا حتىٰ مشارف خط الاستواء، ويضمُّ العديد من الشعوب التي تتباين بكثرة أعراقها وألوانها ولغاتها وعقائدها، وقد مرّ بالهند -مثلما مرّ بالصين والعالم الإسلامي- استبدادُ الأباطرة وأمراء الإقطاع، وعسفُ الاستعمار، بل ربّما كان بعض ما مرّ بهذه البلدان أدهىٰ وأمرّ.

وأرض دولة باكستان المسلمة، كانت جزءاً من عالم الهند، وما تعانيه الهند من المشكلات العرقية واللغوية والدينية والاجتماعية والاقتصادية أضعاف ما تعاني منه باكستان، وإذا كانت الهند قد بقيت دولة واحدة، بعد انفصال باكستان عنها، فإنّ العيد القومي لدولة بنغلاديش المسلمة هو يوم انفصالها عن دولة باكستان التي قامت أصلاً باسم الإسلام. وما يدور من صراعات بين

أقاليم دولة باكستان نفسها يثير القلق على مستقبل وحدة هذا البلد المسلم.

ولعل ممّا تجدر الإشارة إليه هنا أنّ بعض المحللين السياسيين يعزون الحروب الهندية الباكستانية في الحقيقة إلى رفض الهندوس وثقافتهم ووجدانهم وحسهم الجمعي، قبولَ مبدأ انفصال أيّ جزء من أرض شبه القارة الهندية عن دولة عالم الهند الكبرى.

أوروبـــا:

والمثال الثالث هو قارة أوروبا واتحاداتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية الناجحة. وكلّنا يعلم تاريخ أوروبا وما نشب بين دولها وشعوبها من صراعات استعمارية وقومية كبرى على مدى القرون، وكيف أشعلت صراعاتها أوار نيران حروب عالمية قُضي فيها على الملايين من البشر.

هذه القارة، بتاريخ صراعاتها، وتعدد ثقافاتها وأعرافها وأعراقها ولغات شعوبها، وما ووجهت به من التحولات والتغيرات الكونية، تبدّلت مصالحها من حالة الصراع والمواجهة إلى الوحدة والتكتل والتضامن والتعاون للبناء والتنمية، وللتمكّن من مشاركة التكتلات الاقتصادية والسياسية العالمية الكبرى في اقتسام الغنائم والأسواق والموارد. وقد تمكّنت بالفعل، في سبيل تحقيق مصالحها، من بناء أوروبا المتحدة بأجهزتها ومؤسساتها وتكتلاتها وعملتها الموحدة (اليورو)، التي تهدف إلى اقتسام الغنائم مع الدولار، لكونها عملةً عالمية ومستودعاً للمدخرات العالمية، ولتستولي من خلاله على الثروات الهاربة والمسلوبة من بلاد الشعوب الصغيرة الفقيرة، وفي مقدّمتها بلاد العالم الإسلامي، بضمان عملات اقتصادياتها الكبرى التي لا تكلفها إلا ثمن الورق

الذي تطبع عليه.

فلماذا أمكن لأعداء الأمس من شعوب أوروبا أن يتحدوا من أجل هذه المصالح، وأن يلأموا ما بينهم من جراح؟ وكيف أمكن أن تؤلف مصالحهم ما بينهم من عداوات وتمحو ما بينهم من ثارات؟! لا يمكن أن نجد تفسيراً لهذه الظاهرة إلا من خلال دور الحس والوجدان والثقافة الجمعية لدى هذه الشعوب، فهي التي مكّنتها من التكتل على الرغم مما كان بينها؛ خدمةً لمصالحها العامة.

وباتحاد أوروبا يكون قد اكتمل الهلال الرهيب المكوَّن من اتحادات عالمية كبرى تحيط بالعالم الإسلامي والإفريقي الضعيف الممزق، وهو اتحادات الصين والهند وروسيا وأوروبا وأمريكا، ويمثل العالـمُ الإسلاميُّ والإفريقي أمامها، بل عالم أمريكا الجنوبية أيضاً، منطقةَ نفوذٍ وصراعٍ وفريسةً تتكالب عليها الضباع.

إنّ هذا الوضع المؤسف الدامي للعالم الإسلامي والإفريقي -في الوقت الذي يمثل مأساة إنسانية لأبنائه- فإنه يمثّل بؤرة تنافس وصراعات بين القوى العالمية، ومن المهم للإنسانية ملء فراغه وقيام اتحادات عالمية إسلامية وإفريقية تأخذ فيه موضع الشريك للقوى العالمية، وبذلك يتجنب العالم مخاطر حروب مدمرة لم يعد من الممكن التكهن بآثارها وآثار أسلحتها على مستقبل الإنسان والحضارة الإنسانية.

ومن الواضح من الأمثلة التي أوردناها سالفاً أنّ الأسباب التي نعزو إليها أسباب فرقة عالمنا الإسلامي وتمزقنا وصراعنا فيما بيننا، وتمكين الأعداء منا، لا

تكفي ولا تفسّر وحدها ما نحن فيه. فعلى الرغم من توفر تلك الأسباب عند سوانا فإنّهم لم ينتهوا إلى ما انتهينا إليه من صراعات وتمزق وضعف.

ولعل من المفارقات العجيبة أن كثيراً من الاتفاقات الاقتصادية والسياسية التي وحّدت أوروبا قد تم عقد مثيلات لها بين البلاد العربية في اتفاقات أسواق مشتركة، وتخفيض الرسوم الجمركية، وتشجيع التجارة والتبادل التجاري بين الدول العربية، واتفاقات دفاع مشترك، فلم يتحقق على أرض الواقع شيء من هذه الاتفاقات، وظلت الحواجز بين بلاد العرب وشعوبهم قائمة، تعلو وترتفع جدرانها، والصراعات تزيد وتتفاقم، وكأن أي أمر يتم الاتفاق عليه هو المر الذي يغلب الظن أنه لن يرى النور، أو لن يتحقق في واقع علاقات الأطراف العربية!!!

الدين والعقل والمصلحة كلها تأمرنا بالوحدة والتكافل:

إذا كان الدين لا يأمرنا بالتمزق والصراع بل يحضنا على الوحدة والتآخي، وإذا كان العقل والمصلحة لا يأمراننا بذلك، بل يحضاننا على الوحدة والتكتل والتناصر؛ فلماذا نفعل فيما بيننا عكس ما يمليه علينا الدين والعقل والمصلحة.

والتمزق والصراع من الأمراض الاجتماعية التي تتعلق بالجانب الجمعي في الشخصية الإنسانية، وهو الجانب الذي يجب أن يكون موضع البحث والتقصي ومعرفة الأسباب التي أدت إلى تشوهات الجانب الجمعي في شخصية الإنسان المسلم.

فكلنا يعلم أنّ الوحدة والتكتل والتعاون والتضامن هي من أهم مكونات الجانب الجمعي والعامّ من جوانب الشخصية الإنسانية. وسلامة تكوين الجوانب المختلفة للشـخصية الإنسانية -الفردي منها والجمعي على حد سواء- أمر ضروري لاستقامة الشخصية الإنسانية وتوازنها، ومن ثمّ استقامة المجتمع وتوازنه. فالكائن الإنساني في أصل طبعـه الإنساني فرد يتعلق تصرفه بإرادته وحمل مسؤولية وجوده، والقيام بواجبات هذا الوجود، روحياً ومادياً، وهذا الأمر لا يتأتى مادياً ولا معنوياً إلا من خلال الجانب الجمعي في تكوين الإنسان، وبالتالي تكوين المجتمع الذي هو أمر ضروري لوجود الإنسان واستمراره المادي، بدءاً بالأسرة، أُمّـاً وأبـاً، وانتهاءً بالمجتمع الذي هو وسيلة الفرد ومجاله للعيش والبقاء.

ومن خلال المجتمع وعلاقاته والأداء الإنساني فيه، وبواسطته، يتحقق لأعضاء المجتمع الوجود المادي والتسامي الروحي والسمو القيمي. فالكائن الإنساني لا يوجد ولا يمكن لـه أن ينشأ أو يبقى فرداً، بطبيعة قدراته وحاجاته، وبسبب طفولته الإنسانية الطويلة؛ إذ لا بدّ لـه من مجتمع ينشأ في حمايته ورعايته، وهو من خلال علاقاته الاجتماعية يعبّر عن إرادته، ويحقق في مجاله مكنون نفسه من المشاعر والقيم والغايات، ويمحص بهذا التفاعل معدن نفسه، ويحقق بنوعية تفاعله ومدافعته في المجتمع معنى وجوده.

الخلل الجمعي في ثقافة الأمة: فاقد الشيء لا يعطيه:

إن أي خللٍ في رعاية الجانب الجمعي في تكوين شخصية الفرد لا بدّ من أن يكون له آثاره السلبية البعيدة على أداء الفرد ونوعية حياته ووجوده، روحياً

ومادياً، وبذلك تتحدد طبيعةُ الجانب الجمعي في شخصية الفرد جودةً أو رداءةً طبعة المجتمع، ونوعية علاقاته ومؤسساته، وتؤثر في مدىٰ توازنه واستقراره وقدرته علىٰ أداء مهامه في رعاية الحياة الإنسانية لأبناء الأمة وترقيتها.

فإذا لاحظنا خللاً في الأداء الجمعي لأفراد المجتمع، وتقصيرهم في رعاية علاقاته ومؤسساته والمشاركة الإيجابية البناءة في احتياجاته ومتطلباته، وجب علينا النظر والتدقيق في فكر ذلك المجتمع وثقافته ومناهج تربيته. فالطفل الإنساني يكتسب فهم نفسه وعلاقاته وأدواره الفردية والجمعية من مصدرين؛ المصدر الأول فطري ينبع من إحساسه بحاجاته ومدركات فطرة عقله. والثاني ينبع من كلّيات مفاهيم ثقافة مجتمعه. وعلىٰ مدىٰ سلامة هذه الكليات والثقافة وتوازنها وتجاوبها مع حركة واقع المجتمع، وحاجاته، وإمكاناته، ومتغيّراته، وتحدياته، يتوقف توازن الفرد الذاتي والجمعي، وسلامة أدائه، ومدىٰ قدرته علىٰ النجاح في مواجهة ما يتعرّض له من تحديات، ومن ثمّ مدىٰ قدرته علىٰ إثراء وإغناء ذاته ومجتمعه مادياً وروحياً.

والجانبُ النفسي الوجداني الروحي في مرحلة الطفولة، بطبيعة دورها الأساسي في بناء الشخصية الإنسانية، أمرٌ أشملُ وأهمُّ من الجانب المعرفي فيها. بل إنّ الجانب المعرفي في هذه المرحلة (مرحلة الطفولة) هو وسيلة من وسائل بناء الجانب النفسي والوجداني، ولذلك يجب إعطاء هذا الجانب من المنظومة الثقافية التربوية لأية أمة الجانب العظم من الأهمية، والتأكد من أنّ الجوانب الثقافية المعرفية التي تقدم للطفل إنما هي بالدرجة الأولىٰ وسيلة للبناء النفس والوجداني والروحي، وصياغة نوعية العقلية عند الناشئ، إلىٰ جانب دورها

المعرفي الذي يتكامل مع الجانب الوجداني في بناء قدرات الطفل.

الجانب الجمعي في الفكر الإسلامي:

وإذا دققنا النظر في تاريخ فكر الأمة، ولا سيّما الجانبُ الجمعي الخاص بتكوين الشخصية المسلمة، سنرىٰ توافقاً مدهشاً -طرداً وعكساً- بين إيجابية المجتمع وسلبيته؛ بشأن توازن كيانه، وسلامة أدائه الإنساني الحضاري.

فالروحُ الجمعي علىٰ عهد الرسالة كان علىٰ أفضل حالاته وأعلىٰ مستوياته، وإحساسُ أفراد المجتمع بانتمائهم ومسؤوليتهم وتضامنهم -بصفتهم أعضاء في جسد الأمة والجماعة- كان في ذروة حالاته: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

وهذا الروح الجمعي القوي الفعّال لم يأت من فراغ، بل جاء من أصل النشأة العربية القبلية الحرّة البسيطة، التي لم تكبّلها ولم تحطمها أنظمة الظلم والاستبداد، وزادَ فيها وعمّقها وفعَّلها روحُ الإيمان التوحيدي الاستخلافي الإسلامي، ونظامُه الذي بني علىٰ العدل والتضامن.

فهذا رسول الله ﷺ رأس حكومة المجتمع الإسلامي يرسي قواعد نظام عادل يرعىٰ أبناء المجتمع، ويصون كرامتهم الإنسانية، ويحفظ حقوقهم، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، حتىٰ بلغ به الأمر أن سنّ ضمان الدولة للديون، رعايةً وتشجيعاً للتعاون بين أفراد المجتمع. فلو توفي المدين وكان ما

ترك لا يفي بديون الدائنين فإنّ الدولة تقوم بذلك: "من مات وترك مالا فلورثته، ومن مات وترك دينا فعليّ سداده". ولذلك ضحى المسلمون في سبيل الأمة وبذلوا وآثروا، فلا غرابة، حين طلب رسول الله ﷺ منهم البذل في ساعة العسرة تبرعوا بأموال كثيرة، وبالطبع كان على رأس المتبرّعين أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الرجلُ الحصيفُ ذو الرأي الصائب والفهم النافذ.[1]

وكما تصدق المسلمون فقد تصدق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنّه لم يتصدق في لحظة الحاجة والعسرة بفضلة ماله ولا بكثير من ماله، بل تصدق بكل ماله، ولم يترك مدخراً لأبنائه!! فلماذا يفعل ذلك رجل في حكمة أبي بكر ورجاحة عقله؟ وسأله رسول الله ﷺ، فيما رواه أحمد:"ماذا تركت لأبنائك"؟ فأجابه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكلمتين فقط لخص بهما -في صفاءِ ذهنٍ ونفاذِ بصيرةٍ- طبيعةَ النظام

---

(١) من المفيد أن نستعرض مع القارئ شيئاً من شخصية أبي بكر وحكمته لنعلم دلالة فعله في فهم روح مجتمع عهد الرسالة. فأبو بكر لحكمته وحصافة رأيه ونفاذ بصيرته ورباطة جأشه كان هو الذي صحبه رسول الله ﷺ، في رحلة المخاطر والمخاوف، والحاجة للعقل والتدبير والحيلة، ولم يصحب رجال القتال والمعارك، وهو الرجل الذي كان بذهنه الصافي بدهي الإيمان برحلة الإسراء والمعراج النبوية، وهو أيضاً الرجل الذي وقف -فيما رواه أبو داوود وأحمد- بقلب شجاع، وإيمان بيّن، وذهن صاف في لحظة الحزن والفجيعة المذهلة بوفاة الرسول ﷺ، والرسول ﷺ أحب وأقرب إليه من أيّ أحد سواه، ليعيد الأمة إلى رشدها: "من كان يعبد الله فإنّ الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات"!، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]. حتى قال عمر والمسلمون الذاهلون المفجوعون معه، فيما رواه ابن ماجة: "فلكأني لم أقرأها إلا يومئذ". وهو الرجل الذي قاد بنجاح ونفاذ بصيرة سفينة دولة الإسلام الفتية بعد وفاة رسول الله ﷺ بمهارة وسداد رأي ونفاذ بصيرة وسط ثورة الأعراب السياسية ضد الدولة، حين قرر بعزم ضرورة إخضاع هؤلاء الأعراب، وردهم إلى قواعد الاجتماع الإنساني الحضاري، وقمع شوكة ردتهم الحضارية.

الاجتماعي وبُعدَه الجمعي وأسلوبَ أدائـه: "لقد تركت لهم الله ورسوله".

ظن من لم يدرك أهمية البُعد الجمعي أنّ إجابة أبى بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تعبّر عن مجرّد إيمانه العميق بالله، ولا شك في أنّها كذلك، مثلُه في هذا مثلُ أفاضل الصحابة، ولكنّها تعبّر أيضاً عن إدراكه لطبيعة النظام الاجتماعي الذي ينتمي إليه، إنّه مجتمع تلاحم وتكافل لا يضيع فيه فقير ولا ضعيف، ولا حاجة فيه إلى البخل والشح والكنز، فالفرد للكلِّ، والكلُّ للفرد، وهم في ذلك متضامنون إخاءً وبذلاً وتكافلاً.

وهنا تتضح لنا بعض المفارقات المهمة بين مجتمع عهد الرسالة ومفاهيمه وأدائه، ومفاهيم عهود الطغيان والعزلة التي ضعف فيها البُعد الجمعي في نظام المجتمع، وانعكس ذلك على غفلة الصفوة الفكرية عن فهم هذا البُعْدِ ودلالات ما يتعلق به من النصوص والمعاني، لأنه "ليس من رأى كمن سمعَ"، وليس أوضح دليلاً من التجربة. وما كان لمجتمع الطغيان والتبديد والاستبداد، الذي لم يشهد ولم يعاصر مجتمع العدل والكرامة والتكافل، أن يدرك -وقد غابت تجربته وفلّت أداة معرفته- ما في النصوص من معانٍ ومن دلالات "فكل إناء بما فيه ينضح".

ولذلك فَهِمَ مفكّرو العزلة ومنظّروها إجابة أبي بكر على أنها تعبير عن إيمانه وتوكله على الله، ولم يدركوا أنّ القرار الذي اتخذه لم يكن قراراً عشوائياً، ولا مجرّدَ انفجارٍ عاطفي يغشاه بعدها ندمٌ وأسفٌ، ولكنّه قرارٌ واعٍ سليمٌ مدروسٌ، وذلك لإيمانه المطلق بالله وثقته به أولاً وآخراً، ولكن أيضاً لإيمانه وثقته بحكومـة المسلمين ونظام كفالتها ورعايتها لأصحاب الحاجة: "تركت

لهم الله ورسوله".

ودون فهم ذلك النظام وفهم طبيعتـه فليس بالإمكان فهم هذا الحوار القصير الوافي الدلالة بين الرسول ﷺ وأبي بكر الصديق، إلا لأصحاب العلم الاجتماعي، وأهل الخبرة، وإلا لمن كان يعيش النظامَ ويدرك طبيعةَ أدائـه.

أما حين تدهور البعد الجمعي وأصبح احتجازاً للأموال، واستئثاراً بالخيرات، واصطناعاً للأعوان، وهضماً للحقوق، وظلماً للمحرومين والفقراء وأصحاب الحاجة، بحيث لم يعد لأفراد الناس إيمان ولا ثقة بالمجتمع ونظامه، وكل فرد هو ضمان نفسه وأبنائه، فقد أصبح أحدهم لا يهتم إلا بنفسه، فلا يُعوِّل على المجتمع ولا يُعوِّل عليه المجتمع، فلا غرابة إن رأينا جُلَّ أبناء شعوبنا اليوم يتهربون -عن عمد وقصد- من أداء كل حق عام، ويبخلون -عن سعة- عن كل حاجة عامة، وتتهدم أمامهم المؤسسات، وتُضيَّع الحاجات والمهمات، وهم يقفون موقف المتفرج الذي لا يعنيه من الأمر شيء. وكم تؤلم المقارنة بينهم وبين أبناء الشعوب التي تعنى بتربية الحس الجمعي ويقوى فيهم حس البذل والعطاء.

الآثار الخطيرة لضعف البُعد الجمعي في الثقافة والتربية:

مع ضعف البُعد الجمعي في شخصية المسلم؛ لا غرابةَ أن تنهار مؤسسات الأمة العامة، وأن يتمزق نسيجها، وينهار بناؤها، وأن يصَعُبَ أداء الحقوق العامـة، ودفع الضرائبِ، وأن تشُحَّ الأيدي بالتبرعات والنفوس بالتضحية. ففي الوقت الذي يسعى فيه الفرد لكي يوفر لنفسه ولأبنائه كل ما يستطيع من الحاجات والكماليات، فإنّه لا يلقي بالاً إلى حاجـة الأمـة ولا إلى حاجة

الفقراء والمعوزين، ولا إلىٰ حاجة أبنائهم، لأنّه يعلم أنّه وحده ضمانُ نفسه وأهله لو ألـمّت به أو بهم الحاجة، وأنّه لن يلبي حاجته أحدٌ، ويصبح لسان حاله "من لا يُرْحَم لا يَرْحَم".

ليس عجيباً مع ما آلت إليه تربية البُعد الجمعي في بناء شخصية أبناء كثير من الشعوب الإسلامية في عصور الانحطاط أن تفشو ظاهرة التسول، فلو أنّ المجتمع ونظامه كفل لأصحاب الحاجة والمحرومين حَدَّ كفافِ الكرامة الإنسانية لاختفىٰ ذلُّ السؤال وتشرُّد الأطفال الذين يشكلون مرتعاً خصباً للجريمة والرذيلة. إنّ تفشي هذه الظواهر، وتفشي الصمت عنها، هو من أبرز الأدلة الظاهرة للعين، والمؤذية للضمير، والشاهدة علىٰ ضعف البعد الجمعي في الأمة، وعدم سلامة أداء النظام الاجتماعي وحمل تبعاته.

وليس غريباً، مع ضعف البُعد الجمعي في بناء الشخصية المسلمة، تفشّي الفساد الاجتماعي، وما يتبعه من تفشّي الفقر والجهل، وتردّي الخدمات، والهرب من أداء الحقوق والواجبات العامـة، والنظر إلىٰ المال العام علىٰ أنّه مال مباح لمن يقدر علىٰ الفوز به دون سواه. ويلحق بتلك الأمراض الاجتماعية مرضُ التخلُّف عن حمايـة مصالح الأمـة، والذود عن كيانها، وإخلاص الأداء لها، بل يمتد المرض إلىٰ خيانةِ أمانتها، وافتراسِ حرماتها، وتمزيقِ أوصالها، والصراعِ علىٰ سلب خيراتها.

وبإسقاط عهد الخلافـة الراشدة، وغلبة روح الجاهلية القبلية علىٰ الساحة السياسية، بروحها العرقية، ونزعة مغالباتها الحيوانية، بعيداً عن مبادئ الحق والعدل والإصلاح، لكي تمثل حميّة وعرقية واستئثاراً وتعالياً واستباحةً

للحقوق، تراجعت -وبسرعات متفاوتة- قوة الدفع الروحي الإسلامي، وتفشّت الصراعات، وسالت الدماء، فهزلت الروح الإسلامية، وهزل معها البعد الجمعي، وتشتّتت ريح الأمـة إلىٰ أعراق وقبائل وشعوبيات وممالك وإمارات، وهزم معها وانزوىٰ الأمناءُ علىٰ عهد الرسالة؛ منعزلين بعيداً عن سياسة الأمـة وما ألمّ بها من فساد وعنف ودموية، عاكفين علىٰ الدرس والذكر في المساجد والمدارس والزوايا.

لم تقف خسارة الأمـة عند خسارة الجولة بين بقايا أمناء عهد الرسالة وتلامذة مدرسة المدينة من العلماء أمام القبلية والعصبية؛ بل تعدتها -للأسف البالغ- إلىٰ فَـلِّ عدّة المقاومة، وهدم القدرة علىٰ إعادة بناء مشروع الإصلاح علىٰ هدي سياسات عهد الرسالة.

وللأسف فإنّ فشل محاولات رجال مدرسة المدينة وورثة عهد الرسالة علىٰ مدىٰ قرن بعد الحكم الراشدي انتهىٰ بهم إلىٰ العزل والاعتزال، الذي كان -عدا استثناءات محدودة- أقربَ إلىٰ الاستسلامِ للعجز والخور. وأدىٰ هذا الاستسلام إلىٰ تأصيل السلبية الاجتماعية في فكر الأمة وضميرهـا، وإهمال البُعد الجمعي في تكوين أبنائها، وتدمير أسسه وقواعده؛ لتصبح مؤسسات الحكم والسياسة في ضمير الأمة موضعَ الشك والريبة، فلا تتمتع لدىٰ جمهور الأمة بأيّ مشروعية.

وبدل أن يتبين رجال مدرسة المدينة -وهم الأولىٰ بالحكمة والسداد- خطأ أسلوب العنف في المواجهة من أجل الإصلاح والتغيير، وأن عليهم البحث عن أساليب أسلم عاقبة وأكثر جدوىٰ، وذلك من خلال معرفة طبيعة

الخلل والأساليب الفعالة لإعادة بناء الشخصية الإسلامية، وتعديل مسار توجهاتها، وتقوية عوامل الجانب الجمعي الخيِّر فيها؛ فقد استمرت العزلة والمواجهة بأشكال مختلفة دون أن يدرك العلماء والمفكرون دور الطفولة في إعادة صياغة شخصية الأمة وعقليتها وبنائها النفسي بشكل طبيعي وسلمي، وبقي شأن تربية الطفل مقصوراً على جوانب تعليمية تلقينية معرفية دينية ذات صبغة شخصية محدودة.

وهكذا انصرف الجهد لاستمرار الصراع والرفض، ولكن بشكل سلبي، واستمر كل فريق في حفر خنادق مواقعه، وتوفير الوسائل، وتجنيد الأعوان، للحفاظ ما أمكن على هذه المواقع التي استمرّت واستمرت معها قدرات الأمة في التدهور والهبوط.

فالحكم والسياسة والشؤون العامة والأموال هي إقطاعية الصفوة السياسية القبلية العرقية الشعوبية العسكرية، أمّا خاصة شؤون الفرد وتعاملاته الفردية فهي منطقة نفوذ الصفوة الفكرية الدينية. وأصبح الأعوانُ والجندُ والأموالُ وسائلَ الصفوة السياسية الحاكمة، والمساجدُ والزوايا وحلقاتُ الوعظ والإفتاء وسائلَ الصفوة الفكرية الدينية، وأصبح العامةُ في صراع الصفوات فريسةَ الظلم والقهر والجهل والفقر، وغدا المجتمع المسلم مرتعاً خصباً للشعوذة والخرافة، وخدر الاستسلام لغيبة الوعي وللدروشات ذات الصبغة الصوفية الحلولية.

ضرورة بناء البُعد الجمعي في الثقافة والتربية:

وكانت الكارثة أن تأصّل على يد الصفوة الفكرية، ودون وعي، هذا الوضعُ المريضُ؛ فأُعيد بناء الرؤية الإسلامية الكلية لتعكسَ هذا الواقع الذي ينـزوي فيه البُعد الجمعي في فكر الأمة ثقافةً وتربيةً وتعليماً، ويُهمَل أمره، وتصبح العزلة والانطواء سمة الحياة الاجتماعية، وتصبح غايتها "العبادة" في مفهومها الفقهي، ويصبح الإنسان المسلم سلبياً نحو الحياة بعد أن فرّغها من بُعدها الروحي؛ فغدتْ مجردَ "معاملات" وضوابط قانونية للعقود، لا سعياً وإتقاناً وعمراناً وقياماً ووفاءً بمسؤوليات الاستخلاف في الأرض.

لقد أصبح كتاب الفقه الإسلامي هو حلقة الوصل بين ثقافة الخاصة الفكرية وثقافة عامة الناس؛ أي إنه أصبح في الحقيقة دليل تكوين عقلية المسلم وأساس بنائه النفسي. هذه المكانة المركزية في العصور المتأخرة لكتاب الفقه في ثقافة المسلم تجعلنا ندرك مدى الضرر الجسيم والعاهة الدائمة التي أصابت تكوين العقلية المسلمة والنفسية المسلمة حين أهمل كتابُ الفقه البُعْدَ الجمعي العام من خطـة توجيهه وعرضه، وحين جعل شؤون الذكر والمناسك والشعائر هي "العبادة" وهي "البعد الروحي" في حياة البشر، فتم اختزال الحياة والاستخلاف في مجرد "معاملات".

وإلى أن يتم إصلاح كتب الفقه والثقافة والتربية الإسلامية؛ حتى تصبحَ دليل فهمٍ وفقهٍ وثقافةٍ وتربيةً شموليةٍ صحيحةٍ تمثل قاعدة وعي حضاري شاملٍ متكاملٍ إيجابي، وتنتج فكراً وثقافةً وفقهاً حضارياً يُعنى بتكوين العقل والنفس والشخصية المسلمة الفردية والجماعية، وتطويرها وتنميتها تربوياً منذ

باكورة نشأتها ومراحل طفولتها، فإنه لا مجال ولا أمل في شخصية إسلامية تتمتع بالقوة والتضامن والمبادرة والإبداع، وتكون قادرة على أن تضع الأمةَ الهاديةَ في مقدمة مصاف أمم التقدم والريادة والقيادة.[1]

ثالثاً: التغيير الاجتماعي والخطاب التربوي

إذا كنا قد سلَّمنا بأنّ الأمة في الوقت الحاضر قد باتت متخلّفة منهكة ممزقة مستضعفة، وإذا كنا قد سلَّمنا بأنّ الأمة غنيةٌ بمواردها المادية، وبمبادئها وقيمها السامية الأخلاقية الروحية، وإذا انتهينا إلى أنّ تخلّف الأمة وتراجعها يرجع في جوهره إلى ما أصاب فكرها من ضمورٍ وعجزٍ ناجمٍ عن عصور الفصام والصراع بين النخبة السياسية والنخبة الفكرية، وما أصاب تصور الأمة الكوني من جراء ذلك من تشوه، وما أدى إليه ذلك في

---

(١) لو رجعنا إلى ما كتبه العلماء في قضايا الحكم والسياسة لوجدنا جُلَّه نظرياً، أو يتعلق بالترتيبات الإدارية، ويتسم بروح الوعظ والنصح للحاكم، ويوجه إليه، وكثيراً ما يكتب إهداءً له، ولم تكن هناك كتابات تُوَجَّه إلى الأمة لكونها الأصل في الأمر، وهي المرجع فيه، وفي كل ما يتعلق بشؤون الشورى فيها، وفي ما يخص حقوقها وحقوق أبنائها وواجباتهم ومصالحهم السياسية. ومن ذلك ما قرره الإمام الماوردي، قاضي القضاة على عهد بني العباس، في كتابه "الأحكام السلطانية" -خضوعاً لواقع ممارسات أمراء الجند الأتراك الذين تسلَّطوا واغتصبوا الحكم، وحفاظاً على ما تبقى من رسم الخلافة وقانون الشريعة - من أنّ البيعة تنعقد باثنين قياساً على عقد النكاح!!

ولاستكمال الفائدة، ارجع إلى كتاب "**العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية**" للمؤلف، الذي يوضح أهمية التزام الشورى في إدارة سياسة المجتمع، والتزام الوسائل المدنية والسلمية في تصحيح المسار السياسي في المجتمع، لأنّ ذلك يحمي الرحم الاجتماعي من التمزق، وينضج حركات الإصلاح، ويرشدها، ويحقق في النهاية الاستقرار السياسي للمجتمع.

مناهجها وعلومها ومعارفها الإنسانية من أحادية وتسطيح وجمود وجزئيـة، وإذا كنا قد شاهدنا على مدى القرون كيف أخفقت محاولات الإصلاح والنهضة في تحقيق أهدافها السامية لتجديد طاقة الأمـة وتصحيح مسارها؛ فيصبح السـؤال الملحُّ هنا هو: كيف المخرج؟ وكيف يمكن تجديد الطاقـة وإصـلاح المسيرة وإحداث التغييـر؟ وما الأسـلوب الإصلاحي المهم الذي لم يلجأ إليه -بشكل فعَّـال- مشروع الإصلاح الإسلامي حتى الآن، ضمن ما لجأ إليه من الأساليب والوسائل؟

وعلينا أن نبدأ من البداية، وهي ماهية الإشكال، وماهية المطلوب، وماهية التحدي الذي تواجهه الأمة. وإذا كان لبُّ الإشكال هو القدرة على التغيير، والسلبية وغيبـة المبادرة والإبداع، والاستكانة والخنوع، وضعف الطاقـة الوجدانية والشجاعة الأدبيـة وضعف الكرامـة الإنسانية، وغيبةَ العقلية العلمية الإبداعية وروح الفعل والمبادرة، وإذا كان الإشكال في النهاية -وبشمول- هو غيبة إنسان الكرامـة والشجاعة والبذل والنصرة وقدرة أداء العلم والمعرفـة، فالجواب أن المطلوب لا بدّ أن يكون هو التغيير في طبيعة البناء النفسي والوجداني لهذا الإنسان ولا بدّ من العمل على تشكيل العقلية العلمية الإبداعية الإيجابية البنّاءة المسلمة، بكل ما تمثّله هذه العقلية من مبادئ وقيم ومفاهيم وتصورات توحيدية استخلافية سامية.

وهكذا يستحيل التغيير الحقيقي، وتفشل جهود الإصلاح الطموحة في تحقيق أهدافها، لأن خطاب البالغين لا يغير قواعد بناء أنفسهم، ولأننا، بقصر خطابنا على البالغين، لا نحدث التغيير التربوي الضروري في نفوس الناشئة.

كيف نفهم الخطاب الإسلامي التربوي:

لقد تعدَّدَ الخطابُ الإسلامي علىٰ عهد الرسالة بتعدّد المقامات، وتعدّد المخاطبين، وتعدّد الأحوال والأبعاد والغايات، فكان بذلك خطاباً فعّالاً مؤثراً. وكان من أهـم أسباب ضعف الخطاب الإسلامي اللاحق ضعف خبرة أصحاب هذا الخطاب، وضعف إدراكهم لأبعاده، ولأحوال المخاطبين وحاجاتهم؛ وهذا جعلهم كثيراً ما يخطئون فهمَ ذلك الخطاب، وفهمَ حقيقته ودلالاته ومقاصده، مما خلط تلك الأبعاد في خطابهم، وشُوّهه، وأضعفَ أثره، وحوله إلىٰ خطابٍ نظري، كثيراً ما تأتي آثاره علىٰ غير ما قصد إليه.

ضعف الدراسات الإنسانية أدىٰ إلىٰ خلط الأبعاد والمجالات:

أدّىٰ ضعف الدراسات الإنسانية في عصور الأمة المتأخرة إلىٰ ضعف الفكر الإسلامي، وإلىٰ خلط الأبعاد والمجالات المختلفة. وقد لمستُ في قضايا عديدة آثار خلط الأبعاد والمجالات والأحوال، وكان آخرها ما بسطتُ جوانبَه في دراسة تناولت قضية العنف وإدارة الصراع السياسي من منظور إسلامي، وقد صدرت في كتاب عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي. وقد بيَّـنتُ في الكتاب أن من أهم الأسباب التي عوقت مسيرة الإصلاح والتصحيح الإسلامي قضية الخلط بين بُعْدِ إدارة الصراع السياسي داخل المجتمع، وبين الصراع السياسي الذي يدور بين المجتمعات، أو بمعنىٰ آخر الخلط بين مفاهيم السياسة الداخلية والسياسة الخارجية، فكان المسلمون بهذا الخلط كمن يضعون السيف في غير موضعه، ويصرفون الأمر إلىٰ غير غايته.

وسبق أن بيَّـنتُ هذا الإشكال المنهجي في الفكر الإسلامي في دراسة صدرت في القاهرة عن "نظرية الإسلام الاقتصادية" تناولتُ فيها قضية الاقتصاد الإسلامي ومبادئه الأساسية، والسياسات التي اتخذها النبي ﷺ لتطبيق تلك المبادئ في ظروف عصره وإمكانات زمانه، ومعرفة المؤثرات في تلك السياسات ومقاصدها، وكيف نستفيد منها في رسم سياساتٍ تناسب ظروفَ عصرنا وإمكاناته. وبيَّـنتُ في ذلك المبحث أنّ من أهم أسباب الأخطاء في فهم مقاصد الاقتصاد الإسلامي وأسباب انحرافات تطبيقاته اللاحقة، هو الخلط بين قواعد الاقتصاد الداخلي وضوابطه، وقواعد الاقتصاد الخارجي وضوابطه، ولذلك لم يكن مستغرباً أنّ ذهناً إسلامياً نيِّـراً هو ذهن ابن حزم الأندلسي يفتي بأنّ حديث مزارعة رسول الله ﷺ ليهود خيبر على نصف الثمر قد نسخَ كل أحاديث تحريم المزارعـة في المدينة، والتي كان الرسول ﷺ قد وصفها بأنّها ربا، وكان سبب النسخ عنده أنّ ذلك آخر ما فعله الرسول ﷺ مع اليهود في خيبر بشأن المزارعة، من دون أن يتبين ابن حزم أنّه خلط بين البُعد الداخلي والبُعد الخارجي للاقتصاد.

فالقواعد والاعتبارات التي تؤخذ في الاقتصاد الخارجي هي غير القواعد والاعتبارات التي تؤخذ في الاقتصاد الداخلي، والخلط المنهجي بينهما يؤدي إلى خطأ النظرة وخطل الفكر.[1] وإذا كان من الصعب على الدارسين

---

(١) أبو سليمان، **العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر السياسي الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية**. مرجع سابق. انظر أيضاً:

- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة**، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٠م. =

خاصة، من غير أصحاب الخبـرة والدراية بتسيير شؤون المجتمعات والدول وتخطيط اقتصادياتها وإدارتها، أن يتبيّنوا هذه الفروق الدقيقـة، فإنّ الفكر الفلسفي النظري في ظروف زمان ابن حزم، وطبيعة المعرفة وأُحادِيَّتها، قد فوَّتا على هذا الذهن النابه أن يلتفت إلى أنّ تصرفاً واحداً ومع قوم غير مسلمين، وفي كيانٍ ومجتمعٍ منفصلٍ ومُفاصِلٍ ومعادٍ لمجتمع المسلمين، يطلب أبناؤه أن يستغلوا أرض المسلمين التي سوف يجلون عنها؛ يصعب أن يُفهم منه إلغاء سياسة ثابتة على مدى سنين داخل مجتمع المسلمين في المدينة، فتأتي ممارسةٌ وحيدةٌ في ظروف مغايرة لكي تبيح ما كان ممنوعاً، وتحل ما كان محرماً، وتجعل الربا فجأة ومن دون مقدمات حلالاً طيباً.

تعدّد الخطاب بتعدّد المخاطبين:

وإذا دققنا النظر فإننا نجد أن خطاب الوحي الإسلامي قد تعدّد بتعدّد المخاطبين، وبتعدّد أبعاد الوجود، وبتعدّد الحاجات. فهناك الخطاب العام، والخطاب الكوني الأزلي، وهناك الخطاب الزماني والمكاني الحركي، وهناك الخطاب العقلي التفكّري، وهناك الخطاب النفسي الوجداني الوعظي للمؤمن، وهناك الخطاب الزاجر المتوعد للمكابر المعاند، وهناك خطاب الدعوة المرشد الموجِّـه المبشِّر للمؤمن العامل، وهناك الخطاب التربوي الراعي الودود الموجَّـه إلى الطفل والناشئ، وهناك خطاب السعة، وهناك خطاب الضرورة والحاجـة، وهناك خطاب السياسة والحكم، وهناك خطاب البسطاء، وهناك خطاب

- Abu Sulayman, AbdulHamid Ahmad. "The Theory of the Economics of Islam," *Journal of Economics and Management*, 6, no. 1 & 2, Kuala Lumpur: International Islamic University IIUM, 1998.

القادة الحكماء، وهناك خطاب عامّة البشر، وهناك خطاب النبوة والرسالة.

ولكل خطاب طبيعته ومقاصده التي يجب أن تؤخذ في الحسبان في فهم ما يلابسه من الظروف والمؤثرات وتأويلها؛ ولذلك فإنّ النظر إلى تعدّد الخطابات بتعدّد المخاطبين على أنه قضية صدقٍ وكذب، أو قضية ناسخٍ ومنسوخ، إنّما يدلّ على السطحيةِ وضعف الفكر.

لذلك فإنّ من أخطر ما يقع فيه الفكر تسطيح الخطاب في توليد الفكر وبناء المجتمع. وقد تحدثنا فيما سبق عن خطابٍ واحدٍ تختلط فيه أبعاد الخطابات وتتلاشى منه طاقة البناء والتأثير؛ بسبب ما يسوده ويسري في حناياه من الإرهاب النفسي الديني الذي صبغ الفكر الإسلامي في عهد العزلة والفصام، إلى جانب الإرهاب المادي السياسي الذي صبغ سياسة الحكم؛ وذلك بسبب ما أصاب الفكر والحكم من ضعف وتدهور، وبسبب الفصام بين الفكر والسياسة، وغيبة الممارسة عن الفكر من جانب، وغيبة الفكر عن الممارسة من جانب آخر.

وفي جو العزلة والفصام كان لا بدّ من أن يقع الفكر الإسلامي في الخلط بين الخطاب الزماني والمكاني لعهد الرسالة، وبين الخطاب الأزلي الديني الإلهي، أي خلط الثابت بالمتغير، وكان لا بدّ -بسبب العجز الفكري- من خلط خطاب الزجر والوعيد والتهديد بخطاب الإرشاد والتوجيه، وخلط خطاب الكفار بخطاب المؤمنين، وخلط خطاب النبوة والدعوة بخطاب الحكم والسياسة، وخلط خطاب القادة والحكماء بخطاب البدائيين والبسطاء،

وخلط خطاب السعة بخطاب الضرورة، وخلط خطاب رعاية الطفل بخطاب مسؤولية البالغ وضبط سلوكه.

وقد كان ذلك الخلط أداة ضرورية أملاها العجز الفكري، وضمور الرؤيـة العلمية، وجزئية المنهجية النصية اللغوية الواهية الصلة بالدراسة العلمية الاجتماعية الشمولية السننية، حتىٰ تحتفظ الصفـوة الفكرية بموقعها، علىٰ الرغم من عجزها، وحتىٰ تؤدي دورها ولو بالحد الأدنىٰ، حمايةً للمجتمع من الفوضىٰ الشاملة والانهيار الكامل.

الآثار المدمرة لسوء توظيف قدسية الخطاب: نفسية العبيد:

لقد أمكن بواسطة الخلط في الخطاب، وتوظيف القدسية لخدمته، أن يسود خطاب الإرهاب الفكري لفرض المتابعة الفكرية، وتكميم الأفواه، وفرض الجمود، وتطويع النفوس لهذا اللون من الفكر والثقافة والصفوة التي تحمله. وقد استفادت السلطة السياسية الاستبدادية العاجزة من هذا الخطاب، ومن آثاره النفسية المدمرة، لكي تسلم العامةُ قيادَها، وتستسلم لأقدارها من التسلطات والمظالم والمفاسد، حتىٰ تكونت لدىٰ عامة الأمة "نفسية العبيد" التي أسلست القياد، وجعلتها تركن إلىٰ قهر سيدها، وتحمي لـه سياج سجنها، وتنعىٰ غياب جلاديها، حتىٰ رأينا -بعد زوال العهد الاستعماري وسط الفوضىٰ الضاربة أطنابها- من كان يأسف علىٰ ماضي "السيد" الاستعماري، وما نشاهده كثيراً من خروج جمع علامة الأمة وهي تهرول علىٰ طبول أكاذيب الإعلام في جنائز "الكبار" من سادتها وجلاديها دامعة العين، تذرف أحاسيس الضعة والضياع.

إنّ خطاب الإرهاب النفسي، وتكميم العقل، وإخماد الفكر، وإنكار الخيار، وفرض الرأي والقناعـة، باب ظاهره الرحمة بها يتلفع به من رداء القداسة، وصناعة السفسطات البلاغية الزائفة، وادعاءات المصالح الموهومة، أمّا باطنه -بغض النظر عن النوايا والأسباب التي أملته- فهو في نهاية المطاف حَجْرٌ على العقل، وإنكارٌ للمعرفـة، واستعبادٌ للضمير، وكهانةٌ على الروح، وسدانةٌ على التخلّف.

لقد توجه الخطاب الإسلامي التقليدي بالإرهاب النفسي لدرء الانهيار والفوضى، وبغرض تحكم الصفوة في جمهور الأمة وإخضاعها لواقعه وسطوته. وقد استهدف الخطاب جمهور البالغين، وأهمل الصغار والناشئة، وهمَّشهم، واصطبغ في كلّ الأحوال بلغة الوعيد والإرهاب. وكان من أهم أدواته خلط خطاب المؤمن بالكافر، وخلطُ الثابت بالمتغير، وتوظيفُ علوية قداسة النص لإرغام العقل المسلم على تجاوز رؤيـة الواقع وتلمس السنن، حتى تقبل النفوسُ والعقولُ المسلمةُ المتناقضاتِ، ويستسلم المسلمون لما "يضرهم ولا ينفعهم" من الخرافات والأساطير؛ فضاع -ضمن ما ضاع- الاهتمامُ بالخطاب النبوي الودود الوجداني النفسي التربوي للطفل، وفهمه وإدراك وسائله ومراميه التي تربّي فيه الإيمان والشجاعة وروح الجهاد والمبادرة؛ حتى تصبح اهتمامات السيرة النبوية[1] ونصوصها ممّا يكاد ينحصر

---

(١) يجب إعادة كتابة كتب السيرة النبوية لأغراض تعليم الناشئة؛ بحيث تركز على ذات الرسالة ومقاصدها ومناهجها في ضوء واقع المجتمع المسلم وإمكاناته وحاجاته وما يواجهه من تحديات، لكي نضع أمام الناشئة نموذجاً حياً، فتمثّل "مكة" مرحلة إرساء القواعد والمفاهيم =

في شؤون خاصة النفس والذكر ووصف الغزوات.

الخطاب التربوي والخطاب القانوني: نظام العقوبات نموذجاً:

سنختار خطاب نظام العقوبات الإسلامية نموذجاً لتوازن الخطاب الإسلامي، وتعدّد أبعاده وإيجابية أهدافه في مساعدة الإنسان المسلم على ممارسة الحياة فرداً وجماعة في إيجابية وأمن وطمأنينة، والأخذ بيده، في حدود طبيعته الإنسانية البشرية، للنماء والعطاء والوفاء بالمسؤوليات، وقصد الخير والبر والكرامة.

ذلك لأن هذا الخطاب أكثر من أي خطاب آخر، في العصور المتأخرة خاصة، أدى لدى الأصدقاء والأعداء على حدٍّ سواء إلى كثير من الخلط وسوء الفهم وإغفال دلالات النصوص، على أساسٍ من فهم الطبيعة البشرية ومقاصد الشريعة في توجيهها والتعامل البنَّاء معها؛ بهدف تحقيق ممارسة حياة خيِّرةٍ فعَّالة.

إن المتأمل في طبيعة النفس البشرية والباحث الدارس لخفاياها، وكذلك المتأمل في خطاب العقوبات في الإسلام، يدرك حقيقةً معنى الخطاب الإسلامي وتنوعه والغاية من كل أنواعه، بما في ذلك خطاب العقوبات، فيجد

= وإعداد القيادات وتمحيص المعادن، وتمثّل "المدينة" مرحلة بناء المجتمع والأمة والمؤسسات، وفيها وقعت أحداث ومعاناة، وقامت حروب ومعارك وغزوات. فلا تكون السيرة إذن مجرّد سردٍ لسلسلةٍ من الصراعات والمعارك والغزوات حتى تبدو وكأنها محارب وغاز، فيروج لها المستشرقون بمقولة انتشار الإسلام بالغزو (الفتح) وحد السيف، وبذلك تصبح الرسالة هامشاً، والمعارك والمناوشات أصلاً وليست هامشاً أملته الظروف وعوارض التاريخ.

الخطابَ الإسلامي خطابَ أمنٍ وطمأنينة، لا خطاب رعب وإرهاب يشرع في يد السلطة لتسلطه على رقاب الناس، وتثير الرعب في نفوسهم، وتتصيد به أخطاءهم، وتتبع عوراتهم، ويكون بذلك أداةً بيدها لتحكم قبضة الإرهاب في نفوسهم، وتكوين نفسية العبيد في وجدانهم. وليس عبثاً ما أولاه الإسلام في هذا الخطاب من اهتمامٍ؛ لضمان العدل وطمأنينة نفوس الناس، وبالطبع فإن سواه من ألوان الخطاب أولى.

وليس عبثاً ما يشترطه هذا النظام من شهادة في جرائم الجنس وعقوبة الفشل في إثباتها، ذلك لأنّ العقوبة في جرائم الجنس هي في الحقيقة عقوبة للإشهار بالجرم أكثر منها للجرم بذاته، شأنها في ذلك شأن كل ما هو على شاكلتها من جرائم نوازع النفس وشهواتها وطباعها، والتي لا تملك النفوس ضمانة التحكم الدائم فيها، ومردّ أمرها في النهاية إنما يعود إلى التربية والضمائر، وذلك على عكس جرائم الدماء والأموال التي يقصد فيها الفعل ومنعه، وتتبّع المعتدين حماية للناس من عدوانهم وجرائمهم.[1]

إنّ غياب التفكر والتدبر العلمي المنضبط في السنن والواقع والوقائع أدى إلى خلط الخطاب، كما أدى إلى إهمال خطاب الطفولة وعدم إدراك أبعاده

---

(١) انظر:

- أبو سليمان، عبد الحميد. "الأمن والسلام الاجتماعي هدف نظام العقوبات الإسلامي: تأملات في نتائج دراسة اجتماعية لسكن الطلاب الجامعيين"، **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد ١٤، خريف ١٩٩٨، ص١٦٧.
- أبو سليمان، عبد الحميد. **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، القاهرة: دار السلام، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

التربوية، بما يعني تجاوز الطفولة وعدم فهمها وفهم طبيعتها وتطور مراحلها ومعرفة دورها في التأهيل والتغيير، ومن ثم عدم فهم النهج النبوي وخطابه في الحرص على حقوق الطفل، ونهج تربيته، ونوعية خطابه، ودلالة ذلك الخطاب.

كاد خطابُ الإرهاب النفسي الذي ساد فكرَ الأمةِ ألا يترك في عقلية الأمـة إلا خطاب العقاب والإرهاب للطفل، ويبرره، ويجعله مشجباً يعلق عليه تعديات العجز والتسلّط والقهر، وذلك من خلال نصٍّ يُقصد به -إن صحَّ- التعامل مع حالة استثنائية شاذّة؛ ومن ذلك أن القائم على أمر طفل في العاشرة قد يضطرّ إلى أخذ هذا الطفل بشيء من العقاب، إذا ما أصرّ -رغم متابعة الأسرة لـه بالتعويد والترغيب- على عدم الصلاة: "علّموا الصبي الصلاة ابن سبع سنين واضربوه عليها ابن عشر."[1] بل إن هذا الحديث نفسه يوضح للناس أنّه لا يصح عقاب الطفل بدنياً، مهما كان الأمر مهماً، قبل أن يميّز ويعي أبعاد المسؤولية ويبلغ من العمر عشر سنين، وهو -بالطبع- ضربٌ غير مبرح أقرب ما يكون إلى الصفق غير المؤذي أو المرعب، إظهاراً لجدية الأمر وأهميته، بعد استنفاد كل الوسائل التربوية الممكنة، والذي يكون من العجب لو تمّت مع الطفل بالأسلوب الصحيح أن يضطر المربي إلى أيّ لون من ألوان الضرب والإهانة.

في ظلّ سيطرة هذا النص الخاص -إن صحَّ نصُّه وضبط لفظه- وفي هذه الحالة الخاصة، وفي جو خطاب الإرهاب، اتُّخذ مفهوم العقاب وسيلةً أساسيةً

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح «سنن الترمذي»**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥٩، حديث رقم: ٤٠٧.

عامةً للتربية، ووسيلة تسيطر علىٰ مفهوم الأمـة للطفولة، والتهوين من شأنها، واستصغار أمرها وإهمالها، وأخذ نفوس الصغار الغضة بالإرهاب والعقاب، حتىٰ تصبح مدخلاً عاماً لمفهوم عقيم للمعرفة؛ كما أدىٰ ذلك إلىٰ تغييب حقيقة كبرىٰ من حقائق عهد الرسالة، وهي أنّ رسول الله ﷺ الذي كان أباً وجداً ومربياً ناجحاً لم يضربْ طفلاً قط في حياته، لأنّـه كان رحيماً ودوداً صبوراً في معاملة الأطفال يرعىٰ حالهم، ويتلمس حاجتهم، ويدرك طبيعة نفوسهم وقدراتهم والمراحل التي يمرون بها، ويخاطبهم علىٰ قدر عقولهم ومداركهم.[1]

---

(١) روىٰ البخاري عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير - قال: أحسبه فطيماً - وكان إذا جاء قال: يا أبا عُمير، ما فعل النغير - نُغَر كان يلعب به - فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا. انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٢٩١، حديث رقم: ٥٨٥٠،

وروىٰ أحمد في مسنده عن عبدالله بن الحارث قال: كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثيراً من بني العباس ثم يقول: من سبق إلي فله كذا وكذا. قال: فيستبقون إليه فيقعون علىٰ ظهره وصدره فيقبلهم ويلزمهم. انظر:

- الشيباني، أحمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢٠، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م، ج٣، ص٣٣٥، حديث رقم: ١٨٣٦.

وروىٰ أحمد في مسنده عن رافع بن عمرو الغفاري قال: كنت وأنا غلام أرمي نخلاً للأنصار فأتىٰ النبي ﷺ فقيل: إن هاهنا غلاماً يرمي نخلنا، فأُتِيَ بي إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا غلام لم ترمِ النخل؟ قال قلت: آكل. قال: فلا ترم النخل وكُلْ ما يسقط في أسافلها، ثم مسح رأسي وقال: اللهم أشبع بطنه. انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٣٣، ص٤٥٢، حديث رقم: ٢٠٣٤٣. =

لم يقصد الإسلام قط إلىٰ إرهاب نفوس الناس وخلق "نفسية العبيد" فيهم، كما أنّ العقوبات لم يُقصد بها إرهاب الناس وتسقّط هفواتهم؛ ولكنها عامل من عوامل دعم إحساس جمهور الأمـة بالأمن، ورعايتهم، والحفاظ علىٰ حقوقهم، ودعم قوىٰ الخير في النفوس، وتنفيرهم من الشر والجريمة. فالأصل أن تُدرأ الحدود بالشبهات، لأن غايـة العقاب مكافحةُ الجريمة، وليس العقاب في حدّ ذاته، ولا تصيُّدَ الهفوات، ولذلك كان الحض علىٰ العفو في الرقاب وتجاوز القصاص، ما دام العفو يتمُّ طواعية ولا تُخشىٰ معه ثارات الانتقام، وفي تاريخ قضاء عهد الرسالة وعهد الراشدين خير شاهد ودليل علىٰ ذلك، كما أنه يقبل توبة السارق غير المصرّ. وفي حالة الإفساد في الأرض، فيمكن بدلاً للعقاب النفي من الأرض أو السجن فلا يعود ولا يطلق سراحه إلا أن يؤمن جانبه.

الخطاب النبوي التربوي نموذجاً:

دعونا نرىٰ كيف عامل رسول الله ﷺ حفيدَه الصغير الحسين بن علي كرم الله وجهه، وهو النبي الإمام القائد، حينما كان قائماً يؤم جماعـة المسلمين في المسجد، وقد صحبه حفيدُه إلىٰ المسجد. إذ يعلو الطفل ظهر جده وهو ساجد، فيترك النبي ﷺ الطفل برهة ثم ينزله قبل أن يرفع من سجوده. وحين

= وروىٰ الترمذي في سننه عن أنس قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أفٍّ قط، وما قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً. انظر:

- الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج٤، ص٣٦٨، حديث رقم: ٢٠١٥.

- الشيباني، **مسند الإمام احمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٢١، ص٥٢١، حديث رقم: ١٣٦٧٥.

يسأله الأصحاب عمّا دعاه إلىٰ إطالة السجود، يجيبهم إجابة تربوية بالغة بأوجز عبارة وأعمقها: "ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتىٰ يقضي حاجته."(١) أمّا ما أمكن أن يدركه فكر العزلة وتهميش الطفولة، فهو فهمٌ مسطح يسير، فدلالة تلك الحادثة لا تعدو أنّ الرسول ﷺ يحب الأطفال، ذلك لأنّ مشاعر حبه ﷺ لحفيده لا يسوّغ -في حدِّ ذاته- إطالة السجود دون أخذه في الحسبان الناسَ من خلفه.

إنّ كل ما يعيه الطفل من الموقف هو نزول الجد الحبيب الودود إلىٰ الأرض، فما كان منه إلا أن سارع فرحاً إلىٰ اعتلاء ظهره للّعب والمداعبة. وهنا تأتي حكمة رسول الله ﷺ وإدراكه لطبيعة عالم الطفولة ومداركها وأساليب التعامل الودود معها، وهي فرصةٌ عمليةٌ يُعلِّم فيها رسول الله ﷺ أصحابه درساً بليغاً، فلم يسرع إلىٰ إنزال الطفل اللاعب عن ظهره، لأنّ الطفل لن يدرك من الموقف إلا أنّ جدّه قد طرده وأبعده، خاصة وأنّ الجدّ في وضعٍ لا يسمح له بالتحدّث والشرح.

وحين يذكر الأقرع بن حابس لرسول الله ﷺ وهو يراه يُقبِّل حفيده الحسن، أنه ما قبَّلَ أحداً قط من أبنائه العشرة، يقول له ﷺ: "من لا يَرحَم لا يُرحَم."(٢) وقد يُظَنّ أنّ المقصود فقط رحمة الله؛ ولكن من الوارد هنا أيضاً من الناحية النفسية التربوية أنّ من يقسو علىٰ الطفل في طفولته فسوف تناله قسوة

---

(١) النسائي، أحمد بن شعيب. **المجتبىٰ من السنن**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م، ج٢، ص٢٢٩، حديث رقم: ١١٤١.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٢٣٥، حديث رقم: ٥٦٥١.

الصغير عليه حين يكبر ويشيخ، وأنّ الأمراض والعلل النفسية تتعاقب على مرّ الأجيال والنفوس بسبب الجهل والقسوة.

ولننصت إلى رسول الله ﷺ يخاطب الصبي عبد الله ابن عمه العباس فيقول لـه: "يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف".(١)

فماذا نجد في هذا الخطاب؟ نجد معنيين تربويين أساسيين هما لبنة كل تربية سليمة للإنسان الحر المؤمن المعبّد للخير والإصلاح. أولهما: إقامـة علاقة حب وود وتَسانُد نفسي بين الفتى وربِّـه سبحانه وتعالى الذي يكلأ المسلم ويحفظه ويرعاه، وثانيهما هو تنمية روح الشجاعة والإقدام على أساس من حس القلب، واقتناع العقل، ومسؤولية الضمير، ومبادرة الاستخلاف "وإن أفتاك عنه الناس."(٢)

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج٤، ص٦٦٧، حديث رقم: ٢٥١٦.

(٢) أخرج الإمام أحمد بسنده عن وابِصَةَ بن معبَدٍ صاحبِ النبي ﷺ قال: جئتُ إلى رسول الله ﷺ أسأله عن البر والإثم، فقال: جئتَ تسأل عن البر والإثم؟ فقلت: والذي بعثكَ بالحق ماجئتك أسألك عن غيره! فقال: "البِـرُّ ما انشرحَ لـه صدرُكَ، والإثمُ ما حاك في صدرِكَ، وإن أفتاك عنه الناس". انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٢٩، ص٥٢٣، حديث رقم: ١٧٩٩٩.

الخطاب النبوي هو خطاب تربوي للطفل ينضح بحب الصغير واحترامه، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يمر بالصغار إلا سلَّم عليهم.[(١)] فالبالغ اليافع الكريم من الرجال والنساء هم أنفسهم أولئك الصغار الذين كانوا في طفولتهم موضع الاحترام والثقة والتقدير، فإن شئت أن ترىٰ بالغاً كريماً فنشِّئ صغيراً علىٰ الكرامة والاحترام والثقة والتقدير.

هذه هي طبيعة الخطاب النبوي التربوي للطفل، يدعو فيه إلىٰ إظهار العناية والرعاية والحب والمودة والرفق بالصغير. بل إن عنايةَ رسول الله ﷺ تبدأ بالاهتمام بأمر الطفل قبل أن ترىٰ عيناه النور؛ ويكون ذلك في حسن اختيار الوالدين المؤهلين لحسن تربيته " أنكحوا الصالحين والصالحات."[(٢)] "تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء..."[(٣)] و"تزوجوا الودود الولود."[(٤)]

لقد ضيّع المسلمون الخطاب النبوي التربوي الرؤوم في خطاب الطفل، وأحلّوا محلّه خطاب الاستهانة والقسر والترهيب، فلم يحفلوا بدراسة الطفولـة وتنميتها واستنبات القدرات والطاقات النفسية والجسدية الكامنة فيها، ولم يوظفوها لتحقيق التغيير واستعادة الطاقة؛ فذلَّت شعوبهم، وخمدت

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٢٩، حديث رقم: ٢٤٨٢.

(٢) الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. **سنن الدارمي**، تحقيق: فواز زمرلي وخالد السبع، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١٠، ١٤٠٧ هـ، حديث رقم: ٢٠٨٦.

(٣) القزويني، محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجة**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج١، ص٦٣٣، حديث رقم: ١٩٦٨.

(٤) السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج١، ص٦٢٥، حديث رقم: ٢٠٥٠.

مكامن الطاقة فيها، واستقدموا القبائل والمماليك والأغراب والأعداء للذود عن أنفسهم، وحماية بيضة دولهم، وليقمعوا شعوبهم ويجعلوها وأنفسهم -في خاتمة المطاف- فريسةَ سلاحِ جندهم وقهرِ أعدائهم.

الفصل الرابع:

الحل الأساس: بناء الطفولة

سبق أن ذكرنا أن العوامل الفاعلة في القضايا الكبرىٰ لا بدّ لها من أن تتعدد، وأن الجهود لحل الإشكالات الكبرىٰ لا بدّ أن تتنوع، وفي كل الحالات علينا أن ندرك أن كل عامل وكل جهد إنما يتوقف وزنه وأولويته علىٰ طبيعة الموقف، وعلىٰ ظروف الإشكال والتحدي والعلاقات المحيطة به. لذا فإنّ ما يقدّمه هذا البحث من رؤيةٍ وحلولٍ لتفعيل مشروع الإصلاح الإسلامي لا يلغي أهمية العوامل الأخرىٰ الكثيرة المؤثرة في أزمة كيان الأمة وقصور أدائها، ولا يلغي أهمية الجهود ومنطلقات العمل والإصلاح القائمة علىٰ مختلف الجبهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدعوية والدفاعية، وإنما يقصد به استكمال الأدوات المعرفية والفكرية والثقافية والتربوية حتىٰ يتم التصدي والتعامل مع كل العوامل المؤثرة في الموقف، واستكمال كل الجهود المطلوبة لتحقيق النجاح في حل الأزمة، واستعادة طاقة الأمة ودورها الحضاري الرائد، وبكل الطاقة والشجاعة الممكنة، مهما كان مذاق العلم بأوجه القصور حنظلاً، وكان طعم النقد الذاتي مراً.

والعامل الذي يستهدفه هذا البحث بالاهتمام هو في المحصلة الطفولة التي كانت وما زالت هي البُعد الغائب المهم في الفكر الإسلامي، الذي حال دون تفعيل مشروع إصلاح الأمة وتحريك كوامن طاقة التغيير فيها.

لقد أدىٰ الفصام بين النخبة الفكرية والسياسية -وما نجم عن ذلك من عجز- إلىٰ سيادة فكرٍ نصّيٍّ نظريٍّ، ونتج عن ذلك سفسطائيةٌ مدرسيةٌ في

"ثقافة الخاصة"، وسطحيةٌ وخرافيةٌ في "ثقافة العامة"، و"نصِّيَّةٌ استظهاريةٌ" في "منهج التعليم"، و"سلطويةٌ استعلائيةٌ قهريةٌ" في "منهج التربية"، واستبدادٌ وتبديدٌ وقهرٌ في مزاولة السلطة والحكم، وتمزقٌ وصراعٌ في علاقات المجتمع، وقصورٌ وانحطاطٌ في أداء الفرد والمجتمع، وتقهقرٌ وانهيارٌ في الحضارة والعمران.

أولاً: طريق الإصلاح ومواجهة التحديات

على الرغم من أن أزمة الأمة في أصلها كانت سياسية اجتماعية ناجمة عن صراع التوجهات والفئات والعصبيات، فإنها تحولت إلى أزمة فكرية ثقافية حضارية تشوَّهَتْ معها الرؤيةُ والثقافةُ، وخمد معها الفكرُ، ثم كانت الكارثة حين تحولت إلى أزمة نفسية وجدانية تربوية تتعمق وتتوارث، وتقعد بالأمة عن القدرة على الإصلاح والتجديد، واستعادة زمام المبادرة والقدرة على مواجهة التحديات.

ولكي تحل الأزمة، ويتم الإصلاح، وتستطيع الأمة أن تتخطى العقبات وتواجه التحديات، لا بدّ لنا من البحث والدرس، وأن نأخذ بالتفكيك والتحليل العكسي؛ بهدف معرفة جوهر التحديات، ووجوه قصور الأداء التي تواجهها الأمة لكي نتعرف معالم وجوه التغيير والإصلاح المطلوب؛ بحث تتمكن الأمة من مواجهة هذه التحديات، واستعادة القدرة على إتقان الأداء، وتمكين دين التوحيد والاستخلاف والعدل والعمل والتكافل والأمن والسلام من أداء دوره في التقييم والتقويم والعطاء الحضاري الإنساني.

التحديات:

حتىٰ تصبح الجهودُ فعالةً والإصلاحاتُ منتجةً؛ ينبغي أن نعلم ماهية التحديات الكبرىٰ التي تواجه العقل المسلم والأمة المسلمة؛ ليكونَ ذلك دليلَ هداية وتوجيهاً لأعمال التغيير والإصلاح، ويكون المقياس نتائج حقيقية عملية؛ لا مجرد تأكيد دعاوىٰ وسرد تمنيات القدرة العلمية والتقنية (التكنولوجية).

والتحدي الأكبر الذي يواجـه العالم الإسلامي اليوم يجب مواجهته والتغلب عليه قبل أي شيء آخر، وهو شرط للنجاح في كل شأن آخر. إنه تحدي "القدرة العلمية التكنولوجية" التي أخضعتْ شعوبَ العالم الإسلامي وقهرتها. وإن وسائلَ "العولمة"[(١)] تُضاعِف من قدراتِ الأجنبي -بإمكاناته العلمية والتكنولوجية- علىٰ تحقيق مزيدٍ من التحكم في مقدرات الأمـة وقهرها واستغلالها، وتهميش دورها وثقافتها، وتمزيق كياناتها.

وامتلاك "القدرة العلمية التكنولوجية" لا يتحقّق باستيراد الأدوات والمعدات وسَوْق جموع الشباب إلىٰ غرف الدراسة، لكن ذلك يتم بتطوير العقلية العلمية، وتنمية القدرة النفسية الإبداعية. لقد استوردنا كل الأدوات

---

(١) يجب أن نفرق بين العالمية والعولمة؛ ذلك أن العالمية -في رأينا- هي صيغة تقرير حقيقة، ولذلك فهي في بنائها اللغوي تعني القدرات والوسائل العلمية التي تمكّن بني الإنسان من التواصل والتعارف والتبادل والتعاون. أمّا العولمة وهي صيغة تعني الإقحام فهي المصطلح الذي يُقصَد به ما يجري اليوم من استخدام القدرات والإمكانات العلمية من قبل قوىٰ التسلطِ والقهر في التسلّط علىٰ الشعوب الضعيفة وقهرها والتحكم بمقدراتها، وسوء استغلالها.

والمعدات، ولم تكن النتيجة إلا تكريس الروح الاستهلاكية لدى أبناء الأمة، وإهدار الموارد في شرائها، وحشد زرافات من "الحفَّاظ" التقنيين الذين يملأون المكاتب بالبطالة المقنعة، ذلك لأنّ الإشكالية في جوهرها إشكاليةٌ فكريةٌ ثقافيةٌ تربويةٌ قبل أن تكون قضيةً ماديةً كميةً.

لا بدّ لأيةّ أمة تتطلع إلى الحصول على القدرة العلمية التكنولوجية الإعمارية من أن تمتلك فكراً إنسانياً اجتماعياً حياً، وعلوماً اجتماعية إنسانية حية، ومنهجيات علمية سننية تقوم على سواعد بشرية نابهة، تستند إلى هداية ثوابت الإيمان، وعلى أساس مبدأ غائية التوحيد الأخلاقية، وقيم العدل والتكافل والسلام، لا أن يكون همها الاستكثار والاستكبار وتوليد أسلحة البلاء والدمار. ولكي تتمكّن الأمة من مواجهة تحدي "العلم والتقنية" لا بدّ لها من التصدي لإشكالاتها الثقافية والتربوية حتى تستطيع أن توفر الشروط المنهجية والتربوية اللازمة للنجاح في امتلاك القدرة العلمية التقنية.

ثانياً: الإشكال الثقافي: فضُّ المعارك الوهمية وتصحيح المفاهيم

الإسلام دين العقل والاقتناع والعلم:

والإشكال الأول في هذا المقام هو الإشكال الثقافي، ولا بدّ من التصدي لتشوهاته ووجوه قصوره التي تغوص في أسس العقلية العلمية، وتشوّش المناهج السننية، وتُوهِن الطاقة الفكرية.

لقد خاطبت الرسالة العقل والضمير والوجدان، وسلكت طريق الإقناع العلمي، وحاربت طريق الجهل والمتابعة العمياء، إنه خطابٌ سأل

الأصحاب عنه، وجادلوا فيه، واعترضوا عليه، وآمنوا به إيمان فهمٍ وسلَّموا تسليم اقتناع، لا إيمان خوفٍ، ولا استسلامَ رعب وفزع، فكانوا هداة عاملين ومجاهدين أقوياء.

كان احترام عقل الإنسان واحترام اقتناع ضميره هما الصخرة المكينة التي بُني عليها عصر الرسالة، وكان تحريرُ الإنسان وتحرير ضميره غايةَ الإسلام وغايةَ فتوحات الإسلام: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩]. ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء: ٧٥]. ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤].

عقوبة الردة لا تتعلق بالإيمان أو الاقتناع:

وما فزع أحد على عهد رسول الله ﷺ من تهديد الموت لمن يرتد؛ لأنّهم كانوا يدركون أنّ الإيمان لا يكون إلا عن اقتناع، وأن ذلك أصل من أصول الدين ومقاصده ومنطلقاته، ولا يمكن ليهود تآمروا للدخول في الإسلام تظاهراً، ليخرجوا منه بعد ذلك فتنةً للناس. فهي قضية مؤامرة وكيد، وليست قضية إيمان واقتناع، ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢]، لذلك لم يروا في تهديد المتآمرين ووعيدهم إلغاءً لحق الإنسان في اقتناعه وإيمانه، ولم يأخذوا

أحداً من أهل الكتب والحضارات بالقهر والقسر في نظام حياته أو عقيدته، ليس فقط لعلمهم أنّ من آمن عن اقتناعٍ وعلمٍ ما كان له أن يستبدل بدين التوحيد والاستخلاف ومسؤولية قصد الخير خرافةَ الشرك والوثنيـة وجهالةَ الإلحاد والجحود، بل لأنّ هذه العقلية آمنت بالإنسان وبحقه في تقرير مصيره.

وهذا لا ينطبق إنسانياً وحضارياً على حال القبائل الوثنية العربية التي كان نظامها الاجتماعي في حالة بدائية.[1] فأَخْذُ قبائل العرب بمبدأ "إمّا حرب أو إسلام" إنّما هو أَخْذٌ بيد هؤلاء البدائيين الوثنيين إلى مجتمع الحضارة والنضج الاجتماعي والكرامة الإنسانية، وليس تنكُّراً لمبدأ حرية العقيدة.

القديم الجديد في المنهج: الديني والمدني:

هذا المثل يقودنا إلى إشكالية الجزئيـة والحرفيـة النصِّـيَّة، وضعف الضبط المنهجي في علاقات الأولويات والمبادئ والمنطلقات بالتفاصيل والأحداث في ثقافـة الأمـة، ودورها في تشويه العقلية العلمية، لأنه إذا لم تواجَـه هذه الإشكالية بصراحة علمية كاملة فسوف يظل الحوار الفكري حواراً عقيماً يدور في حلقات مفرغة تكرس التقابل والتعارض والاستقطاب بين مثقفي الأمـة ومفكريها، بين تقليدي وعصري، وديني ومدني وعلماني، وتُتْرَكَ الأمـة -بين صراع دِيَكَةِ مثقفيها- في غيبوبةٍ وخمودٍ.

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **النظرية الإسـلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية**. ترجمة: ناصر أحمد المرشد البريك، الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، (د. ت.)، ص٢٠٢-٢١١.

إنَّ كثيراً من (الكوادر) الدينية سيطر عليها إحساس الخوف بالخطر بسبب الهجمة الثقافية الغازية، وبحكم ضعف القدرة على مواجهتها، ولذلك أصبح السائد في خطابها مسحة "الترهيب" والهجوم المعاكس على المدني والعلماني، ووصم المخالفين بالخروج والمروق. هذا من جهة، كما أنّ عدم اقتناع المدني بمقولات الديني ومناهج فكره وخطابه أدى بدوره إلى إرهابية خطاب المدني والعلماني وعدوانيته، ووسم الديني جزافاً بالتخلّف والجهل؛ لأنه لا ينحو منحاه في انبهاره وتقليده الأعمى "للآخر".

هذا التصادم أدّى إلى استقطاب هدّام صرف المدني والعلماني الجاهل عن معرفة مكنون دينه وهويته وحضارته؛ ليقفَ من الدين والتاريخ موقفاً يتراوح فيه بين العداء وعدم المبالاة، كما صرف الديني في الوقت نفسه عما حققته الحضارة الإنسانية من معارف، خوفاً منه على دينه وتراثه وتاريخه من روح الهزيمة والاستسلام للمستورَد من العلوم الإنسانية والعقلية، وبذلك أصبحت الأمةُ مشلولةً موزعةً بين مدرسة دينية حرْفية تقليدية، فيما تقابلها وتعارضها مدرسة مدنية علمانية تقليدية حرفية مستغرِبة، وقد بُني جوهر قصورهما وتعارضهما -في كثيرٍ من وجوهه- على الخوف والعجز والجهل.

لابدّ من نزع فتيل الإرهاب الفكري في الخطاب لدى كل الأطراف من أصحاب الفكر والمعرفة، ولابدّ من إزالة عجز الجهل في جوانب فكر المتعارضين. هذا هو السبيل إلى فتح باب الحوار وإعمال الفكر في القضايا المطروحة القائمة أمام الأمة والتحديات المشرعة في وجهها، وأن يحلّ محلَّ التصادم روحُ التكاتف في بناء المشروع الحضاري الإسلامي للأمة، المشروع

المرتفع على قوائم عقيدة التوحيد والاستخلاف، وقيم العدل والتكافل والسلام، وأداة العلم والعقل، وأداء الإتقان والإحسان، وهي قيم ومبادئ سامية، ومطلب صادق لكل مخلص من أبناء الأمة، وهدف يسمو على الأنساب والانتسابات.

مطلب (الكادر) المدني المسلم من حيث المبدأ هو الحصول على قدرة العلمي السنني، وموقف (الكادر) الديني الإسلامي في الحقيقة لا يتعارض في ذلك مع هذا المطلب. ومطلب (الكادر) الديني الإسلامي من حيث المبدأ هو هداية قيم الإسلام السامية، ولا يتعارض (الكادر) المدني المسلم مع هذه الغايات والمقاصد السامية. ولكنّ الإشكال يأتي حين ينطلق الفريقان في الحوار على غير أساس منهجي، ومن منطلقات وتصورات ومخزونات فكرية قاصرة مشوهة، لا تمثل قاعدة صالحة لفهم مشترك أو حوار بناء.

يجب تمهيد أرض الحوار ابتداءً، ومن ثَمّ الاتفاق على الثوابت، والاتفاق على الأهداف، والغايات، وعرض الإشكالات الأساسية لدى كل فريق بما يسمح بتبادل وجهات النظر وتبادل المعلومات المتعلقة بقضايا الخلاف وإدراك جوهرها، وإيجاد الحلول المناسبة لمعالجة إشكالاتها؛ بما يقيم أرضاً وأهدافاً مشتركة مبنية على الثوابت والغايات المشتركة، وبروح تقبُّل الآخر، وإدامة الحوار المثمر، والتعاون الخير معه، في وحدة حضارية إنسانية.

يتفق الدينيون الإسلاميون وجمهور المدنيين المثقفين على الإيمان بالله الخالق الأوحد، وهداية الوحي، ومقاصده في قيم العدل والخير، وكرامة الإنسان، ومسؤولية العمل، ويتفقون على طلب السنن، وواجب السعي،

وإتقان الأداء، ومسؤولية الفعل.

يتفقون على ضرورة امتلاك القدرة في العلم والتقنيـة، وامتلاك أسباب القوة الماديـة والمعنويـة، وضرورة الإصلاح، وتحريك كوامن الطاقة في الأمة، والتزام مكارم الأخلاق.

ولكنّ هذا الاتفاق يصبح أقرب إلى الأمانّي والتمني حين لا يؤهل الأطرافُ أنفسَهم للحوار والتواصل بشأنها، على أساس من العلم والمعرفة بما في يد كل طرف من الأطراف، سواء أكان ذلك في ميدان الدين والتراث والتاريخ الإسلامي أم في ميدان التراث الإنساني في علوم السنن الاجتماعية ومناهج النظر والبحث العلمي فيها.

تعاني الأمة الإسلامية في الحقيقة من علمانية عجيبة تتساوى فيها الحالة الفكرية للمدني وللديني؛ التي تنجم عن إصرار كل فريق منهما على الجهل بالآخر وبحصيلة علم الآخر وفكره وقدراته، مما يحيل الحوار إلى منابذة الجهلاء ومُلاحاتهم، ويؤدي إلى تعميق الخلافات فيما بينهم، وسد منافذ اللقاء، فيغيب ضمير الأمة ويخمد عزمُها.

لنبدأ بإيجاد جيل جديد من العلماء والمثقفين الذين يتحلون بعلم الوحي والشهادة، وبإدراك مقاصد الدين وقيمه، وكنوز التراث ودروسه وعبره، وبمعرفة علوم الإنسان والاجتماع والمواد، ومناهج السنن التجريبية؛ وليأخذ العلماءُ والمثقفون مناهجهم بتوسيع دائرة معارفهم، وامتلاك ناصية الحوار والتعاون المثمر. وعلى الجامعات ومراكز البحث العلمي أن تقدم المناهج

وتهدي إلى المصادر، وتطور المواد اللازمة لثقافة المسلم في جوانبها المعرفية الدينية الإلهية والسننية الإنسانية. وفي هذا المجال شهدتْ الساحةُ العلميةُ جهوداً جادّة رائدة جعلت التأصيلَ، وإسلاميةَ المعرفة، وإصلاحَ مناهج الفكر، قضيةً مطروحةً على الساحة العلمية الثقافية في العالم الإسلامي؛ بحيث تتبلور على أساسها أدبيات وحدة ثقافة الأمة وغاياتها، ومناهج فكرها، وأساليب تربيتها، وهي جهود يجب تنميتها وتطويرها.

من المطلوب أن يجلس الفرقاء معاً مزودين بمعرفة مقاصد الدين وقيمه وطاقات علوم السنن، وتحول دون تمكنهم من حسن الأداء وقدرة العلم والتقنية، وكيف تنقّى ثقافة الأمة من فكر الشعوذة والخرافة والخزعبلات، وكيف يواجهون شيوع السلبية والخنوع وضعف البُعْدِ العام في بناء شخصية أبناء الأمة.

اهتمامات المدنيين وملاحظاتهم المنهجية:

من أهم القضايا التي يختلف فيها الفرقاء الدينيون التقليديون والمدنيون المستغرِبون على غير أساسٍ؛ مسائل مثل: هل التزام المدنيين وطلاب المعارف الإنسانية المنهجَ العلمي السنني هو بالضرورة إنكارٌ لعوالم الغيب وتصريف الله لشؤون الكون وفق حكمته بما لا يحيط بكلياته منطق الإنسان وإدراكه؟ وهل يعني التزام العقل والسببية إنكاراً للغيب وما يتعلق به من أقدار الله في تصريف شأن الكون؟ وينشأ هذا الخلط على الجانبين كما يلي:

أ- حينما يتحدث الدينيون عن الدعاء والتوكل والتسليم والحكمة الخفية لأقدار الله في تسيير شؤون الخلق يلقون عادةً بالنصوص والشواهد،

ويقدمونها في خطاب وعظي، ويعرضونها مبتورةً عن صورتها الكلية، مُنْبَتَّةً عن إطاراتها المعرفية، وعن أبعادها الزمانية والمكانية، ودون أن يلقوا بالاً إلى السنن في الخلق وآثارها في الوقائع؛ لأنّ جُلَّ فكرهم لا ينفعل بقوى الحركة والفعل في المجتمع، فيأتي وقع قولهم في آذان المدنيين وكأنّه غيبة وعي وإلهاء عن واقع الحال. فالدينيون حينما يتوجهون إلى شعوب الأمة ويدفعونهم إلى ما يجب أن يفعلوه -جزافاً- لتغيير أحوالهم والتصدي لتحدياتهم، وفي أحيان أخرى يقع قولهم وكأنه مجاراةٌ لمشاعر جموع الناس المأزومة، فيكون مجرد تفجير لإحباطاتهم، دون إدراكٍ أو تقديرٍ لواقع حالهم، وإمكانات طاقتهم، ممّا يفجر على غير هدى أزماتهم؛ فتزداد معاناتهم، وتنهك كياناتهم، وتبدد طاقاتهم، وتضيع جهود البناء والإصلاح.

ب- وتأتي اعتراضات المدنيين والعلمانيين والمتغربين في آذان الدينيين وكأنّ تساؤلاتهم المشوبة بالرفض ومتابعة الأجنبي المستعمر إنكارٌ لقداسة الدين وما يتلوه الدينيون من نصوص، وإنكارٌ لعالم الغيب ولوجوه قدرة الله وعنايته في تصريف شؤون خلقـه.

وإذا كانت الأطراف عامة -ومن زوايا مختلفة- هي في الحقيقة على اتفاق في المبادئ والمنطلقات التي تؤمن بالله وسننه وتدعو إلى التدبر والعمل: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز."[1] فيكف يحدث هذا الخلطُ مع وجود هذا القدر المشترك بين أبناء الأمة، انطلاقاً من مظنة غيبة الوعي من

---

(١) القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص٢٠٥٢، حديث رقم: ٢٦٦٤.

جانب، ومظنة الإلحاد والجحود من جانب آخر؟

إنّ مردّ هذا الخلط وهذا اللغط أنّ مُحْكَمَ القول والمنطلقات في الدين أصبحت دلالةُ كثيرٍ منها تضيع في حرفيات أكداسٍ من الروايات المتعلقة بأحداثٍ ومواقف تناثرت على مدى نصف قرن من الزمن، هو عهد النبوة والخلافة الراشدة؛ وقد استندت رواياتها إلى سلسلة جموع غفيرة من الرواة، تفاوتت درجات وعيهم وإدراكهم، وزوايا رؤيتهم وسلامة طوياتهم؛ على مدى قرنين من الزمان، على اختلاف البلاد والصفات والمشارب والولاءات، وما تعرضوا له -وتعرّضت له أجيالهم- من حروب وصراعات، وما توزعتهم من مصالح وتحزبات وعصبيات وآراء وغايات، مما جعل مهمة التدوين والتحقيق والموضوعية، والمؤثرات الواعية وغير الواعية فيها، من أصعب المهام؛ بعد مضي هذه العقود والقرون؛ التي يهولك أن ترى معها مدى الجرأة في التطاول على مقام الرسالة بالتحريف والكذب والوضع، ويصعب معها الضبط الكامل والتوثيق الدقيق.

إنّ من المهم لأهل العلم والمعنيين بدراسات توثيق النصوص أن يدركوا أنّ أمر النظر في النصوص، ولاسيّما نصوصُ السنة، والاهتمام بأمرها، وبحث قضاياها، وما يترتب عليها من الآثار، لم يعد مقصوراً على أصحاب الاختصاص في علم الرواية وعلم الفقه والقانون وحدهم؛ بل أضيف إليهم فئتان من الناس والاهتمامات:

الفئة الأولى: هي فئة عموم الأمة الذين أصبحوا -بسبب انتشار الثقافة، ووعيهم بمجريات شؤون حياتهم وما يؤثر فيها- يطّلعون ويقرؤون ويهتمون

بكثير من النصوص، وبأشكال مختلفة.

الفئة الثانية: هي فئة أصحاب الاختصاص العلمي في مختلف شؤون الحياة المادية والإنسانية الاجتماعية، الذين يحاكمون النصوص إلىٰ خبراتهم وعلومهم وحصيلة معارفهم السننية. وبذلك أصبح فحص النص علىٰ أيدي هؤلاء يتم علىٰ أسس علمية سننية لا يقف عند شكليات الرواية وحرفيات السند، بل تتعداه إلىٰ المتن والتطرق إلىٰ فحواه ودلالاته، وردّه إلىٰ أصوله وظروفه ووجوه الحق والإمكان فيه، والكشف عن الخفي من الظروف والأسباب والملابسات الممكنة.

إنّ اهتمامات الجمهور بشؤون حياتهم وما يؤثر فيها، واهتمام علماء السنن بتمحيص الفكر، يجب أن تقدَّر وتنمَّىٰ، لا أن تقابل بالإنكار والرفض بحجة التخصص الضيق. ذلك لأنّ نطاق البحث العلمي ذاته ووسائله قد اتسعت وتغيّرت، وكثير من طلبة علوم الدين والتراث علىٰ جهل بها وبأدواتها ووسـائلها.

الإمكانات الحديثة والمنهجية الشمولية في قضايا نقد المتن والسند:

إنّ ما روي من الأحاديث والسنن المعتبرة هو في حدود مئة ألف حديث، كثير منها تعددت رواياته بزيادة أو نقص أو اختلاف في اللفظ. وقد تتعارض الروايات ولا تستوي جميعها في مستوىٰ الثقة بالرواية، فمنها الصحيح، ومنها الضعيف، ومنها ما قد يَعُدّه بعضهم من الموضوعات. وكثيراً ما يختلف تقويم النص الواحد والرواية الواحدة بين طلاب علم الحديث إلىٰ حدّ يثير الحيرة

والتساؤل عن مدىٰ موضوعية المنهج ودقـة تطبيقه، ومدىٰ الحاجة إلىٰ إعادة النظر فيه، والإفادة من إمكانات العصر العلمية في تطويره.

وبرغم ذلك فإنّ هناك مئات الألوف من مزعوم الحديث التي رُفِضَتْ، ولم تروَ، حتىٰ إنّ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستقر بين يديه ما يقارب خمسمئة ألف حديث لا يقبل ولا يروي منها إلا حوالي خمسين ألف حديث، كثير منها يُعَدُّ من الضعيف، وهذا أمر مهم ومؤلم، يوضح الكمَّ الكبير من الروايات المكذوبة التي لا يُعْتَدُّ بها.

ومعرفة هذه الحقيقة، وإن ألقت ضوءاً علىٰ مدىٰ الجهد الذي بذله علماء الحديث، والصعوبات التي واجهوها، توضح أيضاً الحالة النفسية والذهنية وقساوة الصراعات والتيارات التي كانت قد سرت في كيان الأمـة، ووجدت في التعبير الديني وسلاح القداسة وسيلةً رائجةً للمقارعة والانتصار، وسمحت بالتحريف، وبدسّ الإسرائيليات والخرافيات وسواها من الأهداف والأغراض العقدية والسياسية، وسمحت برواية هذا الكم الهائل من مزعوم السنة والحديث.

ومن المهم كذلك ملاحظة أنّ جُلَّ النصوص المروية، عدا عشرات من الأحاديث والسنن الفعلية التي تابعها -بحكم طبيعتها- جمهور الأمة، لا ترقىٰ إلىٰ درجة التواتر الذي يمكن معه الجزم بصحة الواحد منها، واستحالة الخطأ أو الكذب فيه، بل إنّ كثيراً من المروي لا يسهل أن يفهم لماذا يُروىٰ آحاداً، وهو -بسبب عمومية موضوعه وأهميته وسعة مجاله- كان من المفترض أن يكون متواتراً، بل إنّ بعضه لا يخلو من التفاوت والتعارض -حتىٰ للراوي

الواحد- في اللفظ وفي المبنى، مما لا يقبله العقل في كثير من الحالات.

إنّ زهد شيوخ عهد الرسالة وقادتهم في رواية الحديث، والحرص على عدم إشاعة تداوله كان لإدراكهم خطر سوء فهمه بسبب عدم إدراك الناس للظروف الزمانية والمكانية التي صاحبت أحداثه، والتي دونها يصعب إدراك القصد والدلالة، خاصة مع ندرة ما صحب الرواية من توضيحات للظروف الزمانية والمكانية والمقاصد التي تعلقت بها.

إنّ ما جرّ إلى روايات الآحاد والإكثار منها لدى المتأخرين، صحيحها وضعيفها -وبذلك القدر من التهافت- إلى جانب الأغراض السياسية والعقدية، هو أيضاً فكر العجز والعزلة؛ بهدف تغطية عجز الفكر بقهر القدسية، وهي ظاهرة تفاقمت طردياً مع عجز الفكر والنظر وقلة الخبرة والتجربة، فكلما زاد العجز الفكري وعدم القدرة على الاجتهاد لمتابعة المتغيّرات ازدادَ طلبُ النصِّ على حساب الفكر والنظر المقاصدي؛ مما يفسح المجال للتقليد الحرفي، حتى أصبح بعضهم يفضل الأخذ بالنص الضعيف على الأخذ بالرأي.

وما دار من خلاف حول كتابة الحديث -نهياً عنه أو سماحاً به- يدل على اختلاف وجهات النظر في أصل سلامة الإكثار من الرواية دون دراية، لعدم إدراك ظروفها المكانية والزمانية وما يتعلق بمجالاتها، فهل هي أحاديث من باب البلاغ؛ أي تبليغ الرسالة: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة: ٩٢]، أو هي أحاديث وتوجيهات تتعلق بدور الرسول ﷺ في الحكم وإدارة الدولة

والرعية والتعليم والتنوير فيما يخص الناس والمجتمع، يجتهد لهم فيها بحسب حالهم على ضوء هدي الشريعة المنزلة: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]، أو هي طاعة في أمرٍ بعينه لم يفصِّله القرآن الكريم فبيَّنه الرسول ﷺ وفصّله من باب السنّة الفعلية، وهو ما نصَّ عليه القرآن بعينه بشأن الصلاة والزكاة؟ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: ٥٦]. فالصلاة والزكاة ركنان من أركان الدين لم يتعرّض القرآن الكريم لتفصيل أدائهما، على عكس الصوم والحج اللذين وضَّح القرآن الكريم أساسياتهما في نصِّ متنه، وبذلك كانت السنّة النبوية، ولا سيّما الفعليةُ منها، هي المصدر الأساس بشأن أداء الصلاة والزكاة. أمّا ما كان من قول الرسول ﷺ وفعله متعلقاً بشؤون الحياة ومطالب العيش فتوضّحه الآية: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ ﴿٦﴾﴾ [فصلت: ٦].(١)

كما يجب ملاحظة موقف الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة ورجال الصف الأول منهم بشأن مَنْ تجرَّأَ من آحاد الناس على رواية أقوال النبي ﷺ وتوجيهاته التي تعاملت مع الأحداث في ظروف بعينها، والحرص على بقائهم في المدينة حتى يتحدثوا فقط إلى مَنْ عاصروا العهد وأدركوا ملابسات الروايات.

---

(١) روى الإمام مسلم بسنده عن رافع بن خَديج أنه قال: "قَدِمَ نبي الله ﷺ المدينةَ، وهم يأبرون النخلَ، يقولون يلقَحون النخلَ، فقال: "ما تصنعون"؟ قالوا: كنا نصنعه. قال: "لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً". فتركوه، فنفَضتْ، أو فنقَصَتْ. قال: فذكروا ذلك لـه، فقال: "إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيءٍ من دينكم فخذوا بـه، وإذا أمرتكم بشيءٍ من رأيٍ فإنما أنا بشرٌ". انظر:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٣٥، حديث رقم: ٢٣٦٢.

كما يجب تفهّم كليات ما ورد عن الرسول ﷺ ذاته في النهي عن كتابة حديثه أو السماح به، وما نمَّ عنه ذلك النهي أو السماح من مقاصد، لمواجهة ما أصاب ثقافة الأمة من عيوب، وما تواجهه من تحديات، وما انتهى إليه كثيرون من سوء استخدام النصوص وعشوائيته، وجعلها مشاجبَ للخرافات والأساطير والأغراض والأهواء وانتصارات العداوات، ووسيلةً لقهر ضمير الأمة وإلجام عقلها وإرهاب وجدانها، وأداةً للحرب والصراعات، وعوناً وأداةً بيد الأعداء.

ويضاف إلى إشكالات الرواية ما نلحظه من ضعف نقد المتن، لأنّ النقد الفعَّال إنّما ينبع من دراية الناقد العلمية بطبيعة الموضوع وخبرته فيه، وهو ما لا يتوفر لكثير من الدارسين في مجالات الرواية؛ إذ تقتصر دراساتهم عادة على جوانب لفظية وشكلية وقواعد مستظهرة، بل تكاد مقولة "يُعْرَف القول بالقائل" -عند كثيرين- تحلّ محلّ مقولة "يُعْرَف القائل بالقول"، حتى رأينا -بسبب ضعف ملكة الدراية والنقد- كيف يروى للقائل القول ونقيضه؛ بما لا يتفق في كثير من الأحيان مع روح الشريعة ومبادئ العقل أو الرؤية العلمية السليمة.

وقد بلغ ضعف ملكة التدبر والنقد حدّ إهمال قياس صحة متن الأحاديث بمقياس القرآن الذي هو الكلمة الجامعة المقدسة المحكمة الحاكمة، والبينة المتواترة: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨] ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ [هود: ١]. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢]. وهكذا

تراجعتْ، في عصور انتشار فكر العزلة، مكانةُ القرآن الكريم الذي تتصف جُمْلَـتُـه بعموم التوجيه وتجريده؛ ليكون منبعاً للفهم والتوجيه والهدىٰ -علىٰ اختلاف الأحوال والمواقع والأزمان-، وحلّ مكانه كثيرٌ من نصوص الآحاد ذات الأبعاد الزمانية المكانية، الصحيح منها والضعيف، طلباً لراحة العقل من عناء التفكّر والنظر والاجتهاد ومواجهة المتغيّرات والمستجدات. يتضح هذا حينما نقارن الكمَّ الضئيلَ من نصوص السنّة؛ الذي استدل به الأئمة المجتهدون وفي مقدَّمتهم أبو حنيفة النعمان، والكمِّ الهائل الذي تعلو به -دون علمٍ أو درايةٍ أو تمحيصٍ- حناجرُ عامة صغار طلبةِ العلمِ.

وكثير من هذه النصوص كان من الأمور التي يصعب ضبطها وتحقيقها ومعرفة حقيقة رجالها الذين لم يرهم مدوّنو النصوص ولم يعاصروهم، مِـمَّنْ سبقوا عصرهم من رجال أسانيدهم، وما عُرفوا لديهم إلا بالسماع عنهم في عصور عمَّتها الأهواء والفرق والحروب والفتن.

نماذج في نقد المتن: علم الغيب وتلوث الثقافة:

ولا بأس في هذا المجال المهم من مَثَلٍ يدل علىٰ ما يواجهه الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية من إشكالات. فنحن نعلم أنّ المسلم يسعىٰ متوكلاً قوياً بإيمانـه، كاسباً بعمله، لا مكان عنده لكهانـة ولا عرافة ولا تنجيم ولا عيافة (الخط في الرمل) ولا طيرة ولا طرق ولا سحر ولا جبت، ولا أيّ شيء علىٰ شاكلتها من أمور الشعوذة والخرافة.[1] ومع ذلك نجد صحيح

(١) روىٰ أبو داوود في سننه بإسناد حسن عن قبيصة بن المخارق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "العيافة والطيرة والطرق من الجبت، وقال: الطرق هو طرق الطير تيمناً أو تشاؤماً، وقال =

مسلم يروي عن معاوية ابن الحكم أنّه قال: قلت: يا رسول الله، إنّي حديث عهد بالجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنّ منّا رجالاً يأتون الكهان، قال: فلا تأتهم. قلت: ومنّا رجال يتطيرون، قال: ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدهم.[1] قلت: ومنّا رجال يخطّون، قال: كان نبي من الأنبياء يخطّ، فمن وافق خطّه فذاك.[2] فيأتي هذا النص وكأنّ رسول الله ﷺ يقر "الخط" وما يؤدي إليه -مما يقصد إليه السائل ولا شكّ- من زعم كشف الغيب الذي يعارض صريح القرآن.

وإذا صح ذلك فإنّ الأمر يدعو إلى العجب من أنّ رسول الله ﷺ، وهو مَن يوحى إليه، لم يعلِّم الناس الوجه الصحيح لضرب الرمل حتى يفيدوا، ويفيد رسول الله ﷺ، من هذا الوجه العجيب المؤدي -حسب هذا النص-

= أبو داوود: العيافة الخط (في الرمل). انظر:

- السجستاني. **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج٢، ص٤٠٩، حديث رقم: ٣٩٠٧.

وقال الجوهري في الصحاح: "الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك". انظر:

- الصالح، صبحي. **منهل الواردين شرح رياض الصالحين**، إستانبول: (د. ن.)، (د. ت.)، ص٩١٣.

(١) أي لا يمنعهم.

(٢) لمزيد من التفصيل، انظر:

- الصالح، **منهل الواردين شرح رياض الصالحين**، مرجع سابق، ص٩١٤.

وفيه يشرح مسألة الخط بقوله: "أي المراد أن الخط في الرمال لا مانع منه إذا كان علماً موافقاً لما نقل نقلاً صحيحاً عن الأنبياء ولا سيما إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ، أما إذا كان كهانة دجلاً فهو مرفوض. وأصل الخط أن يخط الضارب بالرمال ثلاثة خطوط ثم يضرب عليهن بشعير أو نوى، ويقول يكون كذا وكذا. ومن الواضح أن الرسول الكريم ينهى عن كل ضروب الكهانة. أما تسامحه بالخط في الرمال فمردّه نسبة هذا إلى بعض الأنبياء كإدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ".

إلىٰ العلم بالغيب، وحتىٰ لا يقعوا -بسبب جهلهم بالوجه الصحيح لخط الرمل- فريسةً لاستغلال الدجالين والمشعوذين. إنّ مثل هذا النص، بهذا الفهم الصادر من رجل علم شرعي ومكانة شرعية يُعْتَدُّ بها، يقدِّم دعامة ويفتح منفذاً ويصنع مشجباً "شماعة" لأصحاب الأغراض.

والقرآن الكريم قد وضَّح -دون لبسٍ- وجه الحقِّ في هذه الأمور، وصدق الله ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨] ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧]. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ولا يختلف عن هذا كثيراً ما رواه الشيخان عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سأل رسولَ الله ﷺ أناسٌ عن الكهان فقال: ليسوا بشيء. فقالوا: يا رسول الله إنّهم يحدثوننا أحياناً بشيء فيكون حقاً، فقال رسول الله ﷺ: "تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مئة كذبة". وفي رواية للبخاري عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنّها سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الملائكة تنـزل في العنان وهو السحاب، فتذكر الأمر قضي في السماء فيسترق الشيطان السمع، فيسمعه، فيوحيه إلىٰ الكهان، فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم".

ووفقاً لهذا الحديث فإنّ الكهان يعلمون شيئاً من الغيب، يسمعه الجان والشياطين، ويوحون به إليهم، ثمّ هم يضيفون لما علموا من الغيب ما شاؤوا من الكذب، والقرآن الكريم يجزم أنّ الغيب لا يعلمه إلا الله، ويقرر أنّ الحال

قد تغيَّـر، وأنّ الاستماع مُنِعَ مع الرسالة الخاتمـة وبلوغ الإنسان مرحلة الرشد والمسؤولية الكاملة التي يحمل بها أمانـة استخلافه وإدارة شؤون عالمه، فلا يعلم الغيب أحدٌ إلا الله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: ١]؛ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ٨ – ١٠].

إذا كان القرآن الكريم يوضِّح بأجلى صورةٍ أنّ عالَمَ ما بعد رسالة "الكتاب" قد بلغ فيه الإنسان مرحلة الرشد، وأصبح يحمل كامل مسؤولية قراره وإرادته، فقد أصبح إذن في عهد الكتـاب والعلم والعالميـة، هو–وليس سواه– يدير عالمه ويُسْأَل عنه، وأنّه لا مجال بعد رسالة "الكتاب" لأيّ قوةٍ من قوى العوالم الأخرى أن تتدخل بأقدار الله وسننه في مجرى حياة الإنسان وعالمه، فلا يمكن لأحد أن يطلع على غيب عالم البشر للتحكم في سير حياتهم، فقد أُحْكِمَ الرصدُ، وأُحْكِمَتْ حمايـةُ الرسلِ وما ينـزل إليهم من الوحي، ومن اجترأ على محاولة استراق السمع فإنّه مقضي عليه من قِبَلِ نظامٍ مُحْكَمٍ من الشهب والرجوم الثاقبة التي لا تعجز ولا تخطئ، وأنّ الله بذلك أراد بالإنسان الخير ومنع تسلط العوالم الأخرى على عالمه وإعاقته عن حمل مسؤوليته. وليس عبثاً أنّ رواية سورة الجن كانت بصيغة الماضي (كنّا). أمّا (الآن) فإنّ الأمر قد تغيَّـر، بل إنّ إخبار الرسول ﷺ عنهم وعن عالمهم كان بالرواية لا بالمشاهدة: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴿١﴾﴾ [الجن: ١].

فإن صحت مثل هذه النصوص؛ فهل هي إذاً ممّا يمكن تأويله على أنّها حوارات قُصِدَ بها أشخاصٌ بعينهم، وعقليات بعينها أراد النبي ﷺ أن يصرفها عن إلحاق الضرر بنفسها ولكن بأسلوب ومداخل تناسب عقولهم وقدراتهم النفسية والعقلية، وبذلك تكون نصوصاً ذات طبيعة خاصة هي في ضرورات خطاب الناس، وتكون من باب أخف الضررين بهم؟

روى البخاري عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله". وروى مسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ما أنت بمحدثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة". إنّ علينا أن نحكِّم ليس فقط نقد السند؛ بل ونقد المتن، وأن نحكِّم التأويل ومنهجه؛ بحيث يكون القرآن الكريم ومقاصده ومفاهيمه هي الحَكَمُ في قبول ما سوى القرآن الكريم من النصوص والاجتهادات والتأويلات، ونسدّ بذلك –وعلى أساس من روح الشريعة– كل باب يتأتى منه الخلط والتشويه، ويكون مشجباً للخرافة والشعوذة والتلوث الفكري والثقافي.

إنّ السنّة النبوية الصحيحة كنز غني، ولسنا في حاجة إلى زيادته بما لا نجزم بصحته. أمّا ما صحَّ معناه ولم يثبت سنده من النصوص فنقبله فقط من باب الحِكَمِ والآثار نظراً لما يصح من معانيه ويتفق مع روح الشريعة.

عالَم ما قبل الرسالة المحمدية وعالَم ما بعدها:

إننا ندرك من مجمل الوحي، ومن واقع المرحلة الإنسانية التي نمر بها، أنّ عالَمَ ما قبل الرسالة المحمدية يختلف عن عالم ما بعد الرسالة المحمدية. إذ كان الأول عالماً متسماً بالخوارق والمعجزات، كما كان متسماً بالخرافة، فيما أصبح

الثاني متسماً بالكتاب والعلم والسنن.

ولعل من المفيد هنا أن نناقش فهم بعضهم لما ورد في القرآن الكريم بصدد تسخير الشياطين لنبي الله سليمان، وبصدد "الملكين"[1] ببابل هاروت وماروت، وجعل ذلك مشجباً يتكئ عليه الكثيرون لتمرير قدر هائل من فكر الخرافة والشعوذة، والتغرير بالعامة والبسطاء، والإيقاع بهم في شباك وأحابيل الأدعياء والمشعوذين والدجالين.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ [بفتح اللام وبكسرها] بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ

---

(١) يذكر محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٤٥ - ٧٥٤ هـ) في كتابه "البحر المحيط" في قراءة "الملَكين" ما نصّه: "قرأ الجمهور بفتح اللام، وظاهره أنهما ملكان من الملائكة، وقيل هما جبريل وميكال، وقيل ملكان غيرهما هما هاروت وماروت."

وقرأ ابن عباس والحسن وأبو الأسود الدؤلي والضحاك وابن أبزى "الملِكين" بكسر اللام، وقال ابن عباس: هما رجلان ساحران كانا في بابل؛ لأنّ الملائكة لا تعلّم الناس السحر. وقال الحسن: هما علجان ببابل العراق. وقال أبو الأسود: هما هاروت وماروت، وهذا موافق لقول الحسن. وقال ابن أبزى: هما داوود وسليمان على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام. وقيل: هما شيطانان. فعلى قول ابن أبزى تكون "ما" نافية، وعلى سائر الأقوال في هذه القراءات تكون "ما" موصولة.

ومعنى الإنزال: القذف في القلوب، وقد ذكر المفسرون في قراءة "الملَكين" (بفتح اللام) قصصاً عجيبة غير معقولة من الفسق والغرام والكفر، وأنّهما في بابل يعذبان، ممّا يناسب تلك الفترات التاريخية وتقبلها لكثير من الخرافات وتصيد الروايات والعجائب بسبب تفشي الجهل والخرافة وعجز الفكر. وعلى كل حال، فقد انتهى أبو حيان إلى ما يتفق فيه مع ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين لخص كل تلك التهريفات فقال: "وهذا كله لا يصح، والملائكة معصومون". انظر:

- أبو حيّان، محمد بن يوسف. **البحر المحيط**، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٢م، مج١، ص ٥٢٨.

يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولو أمعنا النظر في الآية السابقة لوجدنا أنّها تتحدث عن أمور وأحداث وممارسات تمت قبل الرسالة المحمدية. فالإنسانية قبل هذه الرسالة كانت في جوهرها بدائية مجزَّأة إلىٰ أقوام معزولة ومحدودة العلم والمعرفة، وقد توالت علي تلك الأقوام والأمم الرسالاتُ والتوجيهُ؛ بما يأخذ بيدها نحو الترقي الإنساني، وصولاً بها إلىٰ المرحلة المحمدية العلمية العالمية، ولذلك كانت الخوارق إحدىٰ متطلبات المرحلة البدائية، وكانت وسيلةَ الأنبياءِ والرسل في توجيه حياة أقوامهم والوصول بواسطتها إلىٰ قلوبهم وعقولهم التي هي في جملتها ساذجة، وإيجاد اقتناعات محددة لديهم نحو الرسول والرسالة، وهو ما توضِّحه سورة الجن.

وتوضِّح آية سورة البقرة (١٠٢) الآنفة الذكر أنّ ما سُخِّر لسليمان من أعمال الشياطين، وما سخر من قوىٰ الطبيعة، وما ذُكِر في مواضع أخرىٰ من القرآن الكريم، هو من باب العون الإلهي والخوارق النبوية، دون أيّ مساس بعقيدة سليمان ولا بإيمانه، ودون أيّ سعي منه غير مشروع للتواصل مع العوالم الأخرىٰ والشيطانية منها خاصة؛ لأنّ مَن يوصف بأنّه من الشياطين، سواء أكانوا من الإنس أم من الجن فلا بدّ أن يكونوا كفاراً مستكبرين عاصين لأمر ربهم؛ بما جعلهم يستحقون هذا اللقب.

أمّا أمر "الملكين ببابل هاروت وماروت" فإنّه أيضاً يتعلق بفترة ما قبل الرسالة المحمدية بشأن الخوارق وعلاقة عالَم الإنسان البدائي بالعوالم الأخرىٰ حقاً أو وهماً في تدرّجه صوب الكمال الإنساني، والاستقلال، وتحمّل كامل المسؤولية عن أدائه ضمن دائرة الصراع بين الحق والباطل، والنور والظلام، في نفسه، وفي عالمه، ولذلك فإنّه من غير المناسب أن يُفهَم النص القرآني -حتىٰ عن تلك الفترة- علىٰ أنّ الملائكة هم ذاتهم يعلِّمون الناس الشر والكفر، وهو ما لا يليق بالملائكة، ولا يقبله الحس الإسلامي المرهف السليم.

وقد أشارت المصادر إلىٰ صحة قراءتها بالملَكَين بفتح اللام: مثنّىٰ مَلَك بفتح اللام أيضاً، وجمعها ملائكة، وبكسر اللام: مثنّىٰ مَلِك بكسر اللام، وجمعها ملوك، وقراءة الملِكين بكسر اللام وجمعها ملوك هو في رأيي الأَوْلىٰ، فيصبح المعنىٰ أنّهم كانوا علىٰ شاكلة كهان معابدِ الحضارات القديمة التي كانت سائدة قبل الحضارة اليونانية، وكانوا يختصون أنفسهم بالعلوم والمعارف التي تمثّل لهم مصدر قوة وإبهار أمام عامة الأمة، علىٰ شاكلة ما ترويه قصة سيدنا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع سحرة فرعون الذين كانوا بحيلهم يوهمون العامة ويخدعون أبصارهم وحواسهم.

ومن المتصوَّر أنّ هؤلاء الملوك الكهان العُبَّاد الصالحين، حينما كانوا يعلمون الناس ما لديهم من علوم ومعارف ممّا تعلّموه وما ألهمهم الله به، كانوا يحذّرون تلامذتهم من هذه العلوم والمعارف الملهمة والمتوارثة، التي إنْ أساءوا استخدامها يكونوا فتنةً، ويكونوا قد مارسوا الشر والأذىٰ، وأضلوا الناس عن سواء السبيل. وهذا المعنىٰ هو الجدير بالفهم، وهو اللائق بمقام ملائكة الله.

ولعل من المفيد أيضاً أن نذكِّر القارئ بحيل الحركة والصوت والضوء والترتيبات المسرحية في ألعاب السيرك و"سحرة" المسارح، وكذلك في العروض السينمائية التي لولا أنّنا نعلم علم اليقين أنّها صور مفردة متتابعة وأنّها تعرض بسرعة معينة تخدع العين؛ لأقسمنا أنّها حركة حية حقيقية.

هذا مثال لما ينطوي عليه اختلاف النظر، وتضارب الفكر، وتعارض المناهج، من إشكالات ومخاطر، ومن آثار ضارة على عقلية الأمـة، وهو أمرٌ قلّما يجلس إليه أصحاب الاختصاصات العلمية المعنية، ويجلون وجوهه، ويسدّون ثغراته، ويرسون بشأنه قواعد التعامل الفكري والتربوي الإيجابي السليم، حتى لا تفسد في نهاية المطاف العقائدُ والعقولُ والعزائمُ، ولا تُصرف أو تنصرف عن هدي القرآن الكريم ومسؤوليات الاستخلاف.

ضرورة التصحيح المنهجي والتنقية الثقافية:

بسبب قصور مناهجنا؛ فإنّ كثيراً ممّا قد لا يصحّ من النصوص، لخلل أو آخر في الرواية أو المتن، قد يصحّ في مجال نقد المتن، وفي مجال دراسة الرجال دراسة مقارنة في ضوء نقد المتن. وبعضها قد يصح، ولكن في ظرفه الخاص الذي قد لا يعلم المطلع عليه اليوم حال المعنيّ به على زمانه، فيخطئ في فهمه، ويلوّث به ثقافةَ الأمة وعقليتَها، ويفتح -بقهر القدسية- باباً للخرافة والشعوذة التي تهدم المسؤولية الاستخلافية، والعقلية العلمية، والطاقة النفسية لأبناء الأمة.

إن الغاية مما سبق ليست أن نجزم في أي أمر من هذه الأمور بالرأي الفصل، بل فتح الباب لحوارٍ علميٍّ منهجي رزين بين العلماء والمفكرين

المؤهلين بمنهجية وعلم وثقافة متكاملة، تحدَّد بها الغاياتُ والأهدافُ، وتعالج أمورها على ضوء روح الشريعة ومقاصدها وواقع الأمة وأحوالها وإشكالاتها، وتُحرَّر الثوابتُ، وتُحتوى المتغيراتُ، وتُواجهُ التحدياتُ، وبذلك نعمل جادين على تحرير مناهج فكرنا وإصلاحها، والانتفاع بما جدَّ من الوسائل والإمكانات، فننقي بها ثقافتنا، ونسد بذلك الطريق على غير مكتملي الأداة وعلى مرضى النفوس وأصحاب الأغراض.

ثالثاً: الإشكال التربوي: النهج والمنطلق

إذا شئنا العمل الجاد من أجل تحقيق قدرة الأمة على الإصلاح والتغيير، والعمل على تمكين مشروع الإصلاح الإسلامي من أهدافه السامية، فلا بدّ من العمل على معالجة الإشكال التربوي.

لقد أنجبت الأمة عدداً كبيراً من المفكرين وقادة الإصلاح الذين كتبوا وجاهدوا ولفتوا الأنظار إلى كثير من العيوب التي تعاني منها الأمة، ومع ذلك لم توفّق الأمة حتى اليوم إلى إحداث التغيير المطلوب، والتخلص من العيوب والأدواء التي ما زلنا نعاني منها. ونحن نذهب إلى أنّ هذه العقول النيرة لم تتنبه بما يكفي إلى البُعد التربوي للطفولة، الذي هو أساس التغيير، وبقي الطفل والبُعد التربوي -إلى حدٍّ بعيدٍ- هامشيّين في فكر الأمة وسياساتها ونشاطها الفكري والاجتماعي.

وبانحطاط الفكر التربوي -بصفته جزءاً من انحطاط الفكر السنني الاجتماعي الإنساني- تشوَّهتْ دون قصدٍ الرؤية الاجتماعية الكلّية، وتمكّنت السلبيات والمفاسد الاجتماعية بسبب تفاقم داء الاستبداد والقهر في السياسة

والفكر والتربية، لأنّه لا شورىٰ ولا عدل ولا قدرة دون ثقافة وفكر، كما أنّه لا تنمية ولا تطور دون تربية وتعليم.

ومجتمع القهر والإرهاب والاستبداد هو مجتمع التفرّد والتسلّط الذي ينتفي فيه دور الآخر ومشاركته، ويستبد فيه كل فرد بمن هو دونه ويستعبده، فكل فرد له نفسية العبد، وهو مصاب بداء الخضوع لمن هو أقوىٰ منه. وفي الوقت نفسه، وبسبب ما يعانيه من المهانة والخسف، فإنّه إذا اقتدر كان -بحكم ما ألف - نخاساً وطاغيةً علىٰ كل مَن هو دونه وأضعفُ منه. ولا يربط بين أبناء مجتمع العبيد تكافلٌ ولا تعاونٌ، ولكنّها فردية وأنانية وتلهف علىٰ المنافع، وتفانٍ في التبعية والخضوع والاستبداد، في سلسلة لا تنتهي إلا عند السيد الأكبر والطاغية الأعلىٰ الذي يعبد ذاته، ويخضع بدوره للسيد القوي الأجنبي.

ومن الطبيعي في مجتمع نفسية العبيد، وهرمية الاستبداد، وفكر الوصاية والتفرّد، أن يأتي ترتيب الطفل -بضعفه- في أسفل سلّم الأولويات، كمّاً ضئيلَ الحجمِ والقدرِ، مهملَ القيمةِ والكرامةِ، وليس عدةَ المستقبل وبذرةَ التطور ومحطَّ الأمل وقِبْلَةَ الرجاء. فهذا الكائن عليه دائماً أن يلبي ويخضع، وليس لمثله أن يَسأل أو يُسأل، ولا أن يُناقِش أو يُناقَش، ولا يُؤْبَه لرغباته الصبيانية، وعليه، دون مساءلة أو اعتراض، أن يقوم بالحفظ والاستظهار والتقليد والمتابعة، فتلك في مجتمع العبيد مناهج التربية ومفاهيمها. وأمّا الإرهاب والعقاب فهما وسائلها وأدواتها الأساسية، المعلن منها والمستتر.

ضرورة مراعاة العلاقة بين المعرفي والوجداني التربوي:

لم يكن هناك -مع هذا النوع من المناهج والوسائل في المعرفة والتربية والتعليم- مجال للخطاب النبوي للطفل، المبني على الرفق والود والحب والعناية والاحترام والتشجيع، ولا مكان للدراسة العلمية الاجتماعية التربوية للطفولة وطاقاتها وإمكاناتها ودورها في الإصلاح والتغيير الاجتماعي والحضاري.

لذلك يجب أن يبدأ الإصلاح الفكري -بكل ما لديه من أدوات ثقافية وتربوية سليمة- بالاستثمار المكثف والمباشر لميدان التربية الذي تتمّ من خلاله إعادة تشكيل الشخصية المسلمة، وتحريرها، وبناء فرد سوي قويم يكون عضواً فعّالاً في جماعة سوية قوية مستقرة متضامنة اجتماعياً، تشتمل على عقلٍ مفكّرٍ متدبّرٍ من الناحية المعرفية، ونفسية مؤمنة حرّة إيجابية وكريمة تتحلى -من ناحية البناء النفسي وجدانياً- بالشجاعة والمبادرة.

وحتى يمكن أن نعيد بناء نفسية الطفل المسلم وعقليته، وإحداث التغيير الإيجابي الذي يمثّل روح الإيمان والتوحيد والعطاء الاستخلافي على أسس علمية متطورة، علينا أن ندرك الثوابت والمتغيّرات في منهج تربية الطفل المسلم، وأن ننمّي ونعمّق البحث العلمي التربوي في مجالاتها، في ضوء الثوابت الإسلامية، بحيث تتجاوب المناهج والوسائل والجهود والاهتمامات التربوية مع نمو المعارف والخبرات، ومع طبيعة المتغيّرات والتحديات، ومع ما يتوافر لهذا الطفل من الوسائل والإمكانات والطاقات لتنمية الصفات والقدرات اللازمة للتفوق والسبق في ميدان القدرة والعطاء.

انحطاطُ الفكر التربوي تبعٌ لانحطاط الفكر السنني:

مع غيبة العلوم الاجتماعية، وعدم الوعي بطبيعة المنهج النبوي التربوي، لم يكن غريباً غياب علوم التربية وأبحاثها ودراساتها في تاريخ الفكر الإسلامي. وصورتها الصحيحة -التي تفسِّر ما آلت إليه الأمة وقدراتها وطاقاتها - تعكس أوصافَ كتاتيب أبناء العامـة الأهلية، وقد كان يتحمّل عبء مصاريفها العامةُ والفقراء، وما كانت عليه أحوال هذه الكتاتيب، وأحوال معلّميها المتردية، ومناهج تعليمها البدائية.

وممّا يفسِّـر -من بعض الجوانب- تراجعنا الحضاري وتقدّم سوانا أنّنا إن دققنا النظر نجد أنّ كل ما ناله تعليم عامة أبناء الأمة وتربيتهم من اهتمام المفكرين والعلماء وأبحاثهم لم يكن إلا نزراً يسيراً من التأملات المجرّدة، والملاحظات الناقدة لمناهج التعليم، وأحوال الكتاتيب، وأساليبها، ووسائلها، وإمكاناتها، وثقافة معلّميها، وقدراتهم المتردية.

ومن الخطأ رسم صورة واقع التربية والتعليم في الأمة من خلال عدد من نصائح الخاصة والسادة والأمراء التي كانوا يوجّهونها إلى مؤدبي أبنائهم في دُورِهِمْ، أو في بعض التأملات من بعض رجال الفكر والعلم، فكل ذلك لا علاقة لـه بواقع التعليم والتربية في لاحق تاريخ الأمة. وتفشي هذه الانحرافات السياسية والفكرية في ممارسات قادة الأمة هو ممّا يعين على فهم تفشي ظاهرة التعليم الخاص والأجنبي للأبناء، ومن ثمّ انحطاط ثقافة عامة الأمة وانحطاط قدراتها في بلاد العالَم الإسلامي.[١]

---

(١) عقلية التسلط والاستعلاء: بين قلّةٍ خاصّة تتمتع بكافة ألوان الامتيازات التي تعزلها عن الأمة، =

رابعاً: بين الماضي والحاضر: الأسس والمنطلقات التربوية

القدوة: المنهج النبوي في التربية:

حتىٰ نفهم دلالة ما انتهت الأمّة إليه لا بدّ من النظر والتدبر الموضوعي المنهجي فيما بدأت به، وبذلك نعلم حقيقة الأخطاء التي وقعنا فيها، والأسباب التي أدت إلىٰ تراجعنا، ونأخذ منها المواعظ والعبر. وإذا كان الخطاب القرآني أساس فكرنا ومنهج حياتنا فإنّ الخطاب والمنهج النبوي في التربية يجب أن يكونا أساس منطلقنا، نستقيه من السنّة الفعلية، ومن سيرة حياته ﷺ، ومجمل

= وعامةٍ مسخَّرةٍ نصيبها الازدراء والإهمال وانتهاك الحرمات؛ ممّا يجعل العالَمَ الإسلامي وانتهاك حقوق الإنسان فيه من أهم وجوه تخلّفه وضعف كيانه، ومما يسهّل كذلك مهمة اختراقه والتحكم فيه.

وتفشي ظاهرة "خدم المنازل" ونوعية التعامل معهم، التي فشت في العالم الإسلامي، هي أيضاً صورة أخرىٰ قبيحة لهذه العقلية؛ حيث تكاد تنتفي -عن هذه الفئة عند كثيرٍ من الناس، ودون أيّ وازع من ضمير- جُلُّ الحقوق الإنسانية في الكرامة، وفي الدخل، وفي الراحة، ومن منطلق نظرة استعلائية نحو كائنات منحطة، حتىٰ إنّ بعضهم لا يرىٰ فيهم إلا "جنساً آخر" لا يليق به إلا "الشدة" والمهانة. لا يصح، ولا يقبل أن تبرز المهانة والقسوة في معاملة هؤلاء البؤساء لكونهم في أشد الحاجة إلىٰ ما يلقىٰ إليهم من فتاتٍ حتىٰ يُبقي علىٰ حياتهم.

لا بدّ من تدبر أمر هذه العقليات والممارسات والتشوهات والانحرافات عن مبادئ الإسلام ومفاهيمه في الإخاء الإنساني، وفي الإخاء الإسلامي، وفي العدل والبذل والإيثار، وفي نفوسنا وثقافتنا ومجتمعاتنا؛ وعلينا أن نواجهها بقوة وشجاعة في أصل تنشئة أبنائنا، وفي أصل بنائهم العقدي الوجداني؛ حتىٰ نكون أمة قوية، وحتىٰ نقضي علىٰ آفة التفتت وتجهيل جمهور الأمة وعامتها وإذلالهم وإضعافهم، ومن ثمّ إضعاف الأمة، وتسلط أعدائها، وإذلال فئات عامتها وخاصتها، وقهرها.

إن انتقائية القراءة لتاريخ عهود تخلف الأمة لن يعيننا علىٰ إدراك آفات كياننا ومعرفة أسباب الضعف والانحراف التي تنخر في هذا الكيان، بموضوعية، ومن دون خوف أو وجل.

توجيهاته، ومعالم شخصيته، وأساليب تعامله مع الناس من حولـه، ويضبط فهمنا لدلالاتها منطوقُ القرآن الكريم، ومقاصده وقيمه ومبادئـه، كما نتلمسها أيضاً في أوصاف الرسول ﷺ: شخصيةً، وخلقاً، ورسـالةً.

وقد حدّد القرآن الكريم معالم شـخصية الرسـول ﷺ بالرحمة والود وضبط النفس وحسن الخلق: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم: ٤]. ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وروىٰ مسلم عن ابن سعد عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: "ما ضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة ولا خادماً، ولا ضرب شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله...". وروىٰ أصحاب الصحيحين عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: "خدمتُ النبيَّ ﷺ (وهو صبي) عشرَ سنين فما قال لي أفٍّ قطُّ، ولا قال لشيء صنعتُهُ لِمَ صنعتَهُ، ولا لشيء تركتُهُ لِمَ تركتَه، وفي رواية "فما سبّني ﷺ قط ولا ضربني من ضربة ولا انتهرني ولا عبس في وجهي ولا أَمَر في أَمْر فتوانيت فيه فعاقبني عليه، فإن عاتبني عليه أحد من أهله قال: دعوه، لو قُدّر شيء كان." وروىٰ الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم". وروىٰ ابن ماجة والحاكم عن رسول الله ﷺ أنه قال: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي." وفي رواية البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: "ما خيّر رسول الله بين أمري إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فما كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله

فينتقم لله تعالىٰ".

وروىٰ الشيخان عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: "إنّ الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله". وأخرج الترمذي عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني قال: "اتق الله حيثما كنت". قال: زدني. قال: "أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها". قال: زدني. قال: "خالقِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ". وروىٰ أبو داوود والترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". وروىٰ الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: "ما رأيت أو سمعت رسول الله ﷺ يحدّث حديثاً إلا تبسَّم". وأخرج الإمام أحمد والحاكم والبيهقي عن أبىٰ هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

فما معالم هذا النهج وهذا الخطاب النبوي التربوي لنبي الرحمة ومكارم الأخلاق؟ وما ثوابت هذا النهج وهذا الخطاب؟ وما منطلقاتهما؟

الحبُّ والاقتناع والشجاعة منطلقات الخطاب التربوي النبوي:

لقد كان الحبُّ والمودة والملاطفة والرفق والرحمة واحترام المشاعر الأساسَ الذي ينبع منه النهج والخطاب النبوي التربوي لتنشئة الأطفال وبناء نفسياتهم وكيانهم الوجداني، ومن دون إدراك هذا البُعد وأهميته في بناء الكيان النفسي والوجداني للطفل لن نستطيع أن ندرك وجه القصور في مشروع إصلاح الأمة، وأن نتبين أسباب عدم قدرته علىٰ تحقيق جُلِّ أهدافه الكبرىٰ وبناء الأجيال القادرة علىٰ حمل أعباء التحديات التي تواجهها الأمـة.

رأينا كيف خاطب الرسول ﷺ الصبي ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وكيف أقام بينه وبين الله علاقة حب وتواصل ورعاية، وكيف بَثَّ في نفسه الشجاعة والثقة بالنفس، وكيف حرص وهو في صلاته على رعاية نفس الصغير الذي اعتلى ظهره، فتركه يلعب برهة دون أن يبادر إلى إنزالـه عن ظهره.

لقد كان الرسول ﷺ يحرص على احترام الطفل واحترام مشاعره، وكان إذا مرّ بالصبيان سلَّم عليهم كالكبار، وكان يتفقد الأطفال كالكبار، ويؤانسهم ويهتم بمشاعرهم، ولا يهمل وجودهم في مجلسه، وكان يداعبهم ويوصي بإكرام الأطفال، ويحث على العدل فيما بينهم.(1)

---

(1) عن سهل بن ساعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ أتي بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام (ابن عباس)، وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: لا والله، لا أوثر بنصيبي منك أحداً. انظر:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٦٠٤، حديث رقم: ٢٠٣٠.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال "من قال لصبي هاك ثم لم يعطه فهي كذبة". انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج١٥، ص٥٢٠، حديث رقم: ٩٨٣٦.

وممّا كان يلفت نظري وينال إعجابي ما كنت أراه من كثير من الأمهات الأمريكيات في تعاملهن مع الصغار حين يصحبنهم إلى الأماكن العامة في الشوارع، وفي الحدائق العامة، وفي الملاعب، وفي الأسواق، فكانت الأم حين ترغب في توجيه الخطاب إلى الطفل وتوضيح أمر له أو عتابه أو توبيخه على تصرف من التصرفات، فإنّها لا توجه الخطاب إلى الطفل منتصبة بقامتها فوق رأس الطفل، بل كانت تنزل وقد ثنت ركبتيها بحيث يصبح وجهها بمستوى وجهه، ثمّ تأخذ في مخاطبته والحديث إليه.

ولا أنسى مشهد امرأة وقد ملأت عربة اليد بما اشترت من البضائع، وبعد أن دفعت الثمن وجاءت إلى باب السوق لتذهب إلى سيارتها، وكان عليها أن تقطع الشارع المحيط بالمحل إلى ساحة موقف السيارات، وهي تمسك العربة بيد وتمسك باليد الأخرى يد طفلها الصغير، =

ويخطئ مَن يظن العنف والسطو باليد أو اللسان وسيلةً سليمةً في التربية، وهي في الحقيقة دليلُ العجز وقصور الأداء التربوي للآباء والأمهات، وتحطيم لشخصية الطفل واحترامه لذاته ولعزة نفسه وكرامته وثقته بها. وما أقسى أن نرى في تقاليد بعض شعوبنا وتراثها سمات شريعة الغاب، وضعف روح الإسلام وخلقه؛ حين تشيع فيها ظاهرة تقبّل السطو البدني من الأقوياء والأكابر، ليس في حقِّ الصغار فحسب، بل يغدو ذلك حقاً لصاحب كل سلطة وسطوة، ويخوّلهم ذلك حقَّ ضرب البالغين من الأتباع وانتهاك كرامتهم الإنسانية، ممّا يجعل ذلك رمزاً وتجسيداً للتدمير العقدي والحضاري والتربوي الذي أصاب الأمة، وهي التي كان يأخذ نبيها الغضب إذا ما امتدت يد رجل على مولاه، فلا يكف غضبه عنه ولا يكفِّر فعلته إلا إعتاقه،[1] بل إنّه يلعن مَن

= فالتفتت إليه وسألته إن كان يرغب ركوب العربة أو السير إلى موقف السيارات، فاختار السير، فأخذت في دفع العربة بيد، ويد الطفل بيدها الأخرى على ما في ذلك من العناء. ولا غرابة مع هذا السلوك التربوي أن يحترم مثل هذا الطفل ذاته عندما يشب ويعتد بنفسه وينشأ متمتعاً بالشجاعة الأدبية والذود عن حقوقه، ولا يسمح بتخطيها والعدوان عليها.

(١) روى مسلم عن أبي علي سويد بن مقرن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنّه قال: لقد رأيتني سابع إخوة لي، ما لنا خادم إلا واحدة لطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقها. انظر:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٢٧٩، حديث رقم: ١٦٥٨.

وروى مسلم عن ابن مسعود البدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنت أضرب غلاماً لي بالسوط، فسمعت صوتاً خلفي: "اعلم أبا مسعود" فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذ هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: " اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود"، قال فألقيت السوط من يدي، فقال: اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام" فقلت: يا رسول الله هو حرّ لوجه الله تعالى، فقال: "أما لو لم تفعل للفحتك النار، أو لمستك النار" انظر:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٢٨٠، حديث رقم: ١٦٥٩.

يؤلم ويؤذي حيواناً في غير ضرورة،[1] فما بالك بالعنف في التربية؟!

الحبُّ قوة ودافع: تربة العلاقات المؤثرة المثمرة:

إنّ الحبَّ يولّد الثقة والطمأنينة والشجاعة، بل إنّ من مزايا العلاقة القائمة على الحبِّ أنّها تولّد خوفاً إيجابياً يحرص فيه الطفل على مرضاة المحبوب: رباً وديناً ونبياً ووالداً ومعلماً ولا تساوره المشاعر السلبية الناشئة عن الخوف السلبي والمرارة والتحدي والرفض التي يسبّبها القسر والعنف، وفَقد مشاعر الحب والاحترام والثقة بالنفس، وافتقاد أحاسيس العدل وكرم المعاملة.

ولقلّة عناية جُلّ جمهور الأمة بالقراءة والاطلاع التربوي من جانب، ولقلّة المتوفر لهم علمياً وتربوياً واجتماعياً من المنظور الإسلامي من جانب آخر، نجد الآباء والأمهات والمربين كثيراً ما يخلطون بين مفاهيم الحبِّ

---

(١) روى الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله ﷺ قال: "عُذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض" انظر:

- البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٣٤، حديث رقم: ٢٢٣٦.
- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٧٦٠، حديث رقم: ٢٢٤٢.

وروى الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله ﷺ "لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً" انظر:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٥٤٩، حديث رقم: ١٩٥٨.

وروى مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ النبي ﷺ مرّ عليه حمار قد وسم من وجهه فقال: "لعن الله الذي وسمه" انظر:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٦٧٣، حديث رقم: ٢١١٧.

والحرية والنظام، وتبدو لهم هذه المفاهيم كأنّها أمور متعارضة متنافرة، وهي في الحقيقة متلازمة متآزرة.

فالحبُّ لا يعني التدليل المفرط، ولا يعني الاستجابة لكل مطالب الصغير ورغباته، ولا الإغضاء عن كل أخطائه وهفواته وتجاوزاته، ولكنّ الحبَّ الصحيح هو لُبُّ العلاقة التي تقوم بين الطفل والمربي تعبيراً عن مشاعر المودة والعناية والرعاية الصادقة الإيجابية، التي تهدف إلىٰ مصلحة الصغير، وتوفير مختلف الأساليب لراحته ورعايته وتنمية قدراته وبناء نفسيته علىٰ أسس إسلامية إيجابية سليمة. وهذا يعني بذل الجهد والصبر لفهم نفسية الصغير والمرحلة التي يمرّ بها، ومعرفة الأساليب التربوية التي يجب أخذها في الحسبان حين التعامل معه؛ بحيث يندفع الصغير إلىٰ السلوك السليم.

الحرية قوة: حدودها وضوابطها:

وبسبب جهل كثير من الآباء بالمفاهيم التربوية، وتقصير كثير من المثقفين والمفكرين والتربويين في أداء أدوارهم العلمية التبصيرية، فقد يكون مفهوم الحرية عند هؤلاء أنّها إلقاء الحبل علىٰ الغارب لفعل كل ما يخطر علىٰ البال، وتهواه النفس، وتقود إليه النـزوات، وهذا فهم خاطئٌ وواهمٌ، ومن المؤكد أنه سينتهي في نهاية المطاف إلىٰ الفوضىٰ والفساد والتحلّل والانهيار.

فالحرية الإنسانية لها حدود وقواعد وثوابت تنبع من طبيعة الإنسان وطبيعة مجتمعه، ولا بدّ من فهمها ومراعاة حدودها. فالإنسان ومجتمعه منظومـة مركبة لها قواعدها وثوابتها وحدودها التي يجب مراعاتها وعدم

تخطيها وإلا انهارت المنظومة كلها، يتساوىٰ في ذلك منظومة المجتمع الإنساني مع منظومات الذرة والخلية والمجرة. ولكنّ هذا يعني أيضاً أنّ هناك مجالاً للحرية والخيار في حدود طبيعة منظومة المجتمع الإنساني.

فليس لإنسان أن يحرم إنساناً آخر من حقّ الخيار ومسؤوليته. ولكن من واجب المجتمع أن يضع أعضاءه أمام واجباتهم ومسؤولياتهم، وأن يقوم بتعليمهم وتوعيتهم، وأن يفسح الطريق أمامهم لممارسة حريتهم المشروعة في القيام بواجباتهم ومسؤولياتهم، وأن يلزمهم حقوقَ المجتمع وحدود منظومته وثوابتها وقواعدها كما يقررها قانون المجتمع وشريعته وَفْقَ مبادئ الشورىٰ وحكمة جماعة الأمة، لأنّ جوهر الحرية هو القدرة -دون عوائق- علىٰ أداء الواجبات، وحمل المسؤوليات، والقدرة علىٰ تعبيد النفس للحق والقيام بأعباء الاستخلاف والعمران علىٰ طريق الحق والعدل والإحسان.

ولذلك لم تكن عبثاً حرية الدين والعقيدة والفكر في الشريعة الإسلامية، ولم يكن عبثاً أنّ الشريعة والحدود لا تطارد الناس في أسرارهم وخاصة تصرفاتهم فيما يتعلق بطبائعهم وهوىٰ نفوسهم، فذلك متروك لضمائرهم وتربية نفوسهم ومراجعة هفواتهم، ولا يؤخذون إلا بالمجاهرة وأذىٰ الآخرين بإشهار المفاسد، بل إنّ الشريعة تعاقب مَن يراقب هفوات الناس، ويتتبع عوراتهم، ويكشف أستارهم، ويروع نفوسهم.

والإسلام يتفق مع كل العقلاء علىٰ أنّ المقصودَ بالحرية إفساحُ المجال لكل إنسان لكي يحقّقَ مصالحه ويتصرّفَ وَفق اقتناعه بما لا يضر بالآخرين. أي إنّ القصد من ممارسة الحرية الإنسانية هو قصد إيجابي في حدود المصالح

المشتركة للجميع؛ والتي تقررها القوانين وَفْقَ اقتناع الجماعة ورؤيتها الجماعية على أساس الشورى الإسلامية.

وما يفرّق بين الإسلام وسواه من المجتمعات في العالم المعاصر أنه الدين الوحيد الذي يملك رسالة ربانية محفوظة، تقرّر -عن العلم الرباني الكلّي المطلق- ثوابتَ الصلاح والإصلاح للمجتمع الإنساني وكلّياته في شبكة علاقاته الإنسانية، وفي مداها الآني والآجل، وهذا لا يتأتى إلا من خالق الكون وصاحب العلم الكلّي بما خلق وأبدع، يشهد على صدقها علاماتُ النبوة للرسول ودلالاتُها ومصداقيةُ الرسالة على مدى الزمان والمكان:[1] ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

ولذلك لم يكن هناك بدٌّ أمام الأمم، التي خذلتها رسالاتها المحرفة، من الخلط والاضطراب وعدم القدرة على معرفة حدود حريات منظومة المجتمع الإنساني؛ بسبب افتقارهم إلى الثوابت، ولعدم قدرة الجزء على الإحاطة بالكل، وباءت محاولاتهم في معرفة هذه الحدود وتلك الثوابت بالإخفاق، وأصبحت أوروبا عاجزة عن تعويض ما يتساقط من موروثاتها وتقاليدها من سالف تأثير المسيحية والإسلام، وأصبح إلـه كل فرد هواه، وتخبطت نظراتهم واقتناعاتهم، وتفككت عرى وشائجهم، وانتشر التبذل والفساد، وانهارت الأسرة، وانطلقت قوى العنف والشهوات المدمرة من عقالها، وأصبح كل فرد -بحسب

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. "تأملات في ظاهرية ابن حزم وإعجاز الرسالة المحمدية"، **مجلة التجديد**، ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية، السنة ٢، العدد ٣، ١٩٩٨م.

معرفته وهواه- يقرّر ما يأخذ وما يدع، دون حاجة إلىٰ علم أو دليل، ودون قدرة علىٰ معرفـةٍ موثوقـةٍ بالعواقب أو حساب للآثار، وأصبح العقلاء -قبل سواهم- لهم في كل يوم رأي يضربون به علىٰ غير هدىٰ أخماساً في أسداس.

لقد حاول الغربيون الكشف عن مفهوم القانون الطبيعي، لكنّهم فشلوا، لأنّ تلك قضية كلّية لا يسعها ولا يحيط بها نظر الجزء، ولذلك فإنّهم ما زالوا في كل يوم يخرجون بنظرية، وفي كل يوم يقومون باستدراك، وفي كل يوم يظهر مذهب ومدرسة. وأصبح الملموس فقط هو آثار التخبط في التفسخ والعنف والجريمة والعجز عن معرفة ثوابت منظومـة المجتمع الإنساني وحدود حرية الإنسان، وما يجب التزام أعضاء المجتمع به للحفاظ علىٰ المنظومة الاجتماعية وحمايتها من التفكك والانهيار الذي لن يدرأه عنهم هديرُ الآلات، وكثرةُ الأدوات، وفتكُ الأسلحة والذخائر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩].

إنّ الغرب اليوم -علىٰ ما هو عليه من حال اجتماعي وأخلاقي- هو في أشد الحاجة إلىٰ الوحي الإسلامي المحفوظ ليعينه علىٰ معرفة حدود الحرية في المجتمع وحدودها.

أمّا الأمةُ الإسلامية، التي ما تزال ترتبط بالوحي المنـزل وكلّياته، فإنّ جمود فكرها وموروثاتها وما انتهت إليه من استعباد واستبداد وجمود؛ قضىٰ علىٰ مفهوم الشورىٰ والحرية في مجتمعاتها، وأورثها فكر الوصاية وخنوع نفسية

العبيد؛ ما يجعلها بادئ ذي بدء في حاجة إلىٰ التخلص فكرياً وتربوياً من هذا الفكر الاستبدادي الموروث؛ لاستعادة حسّ الحرية الراشدة والشجاعة الأدبية الدافعة، وإقامة مجتمع الشورىٰ ومؤسساته؛ أي إنّ الشعوب الإسلامية في حاجة إلىٰ حرية الانضباط في مواجهة حاجة الغرب إلىٰ انضباط الحرية.

جوهرُ النظام والانضباط: التعوُّد وحسّ الكرامة والمسؤولية:

إنّ النظام والانضباط -تربوياً- لا يعنيان القسر والإذلال والإرهاب والتبعية والطاعة العمياء، بل هما بالدرجة الأولىٰ تعويد النفس وتربيتها علىٰ أداء الحقوق، وتحمّل المسؤوليات، وإمساك الإرادة الإنسانية بزمام النفس وقواها، ودفعها في الاتجاه الذي يليق بالكرامة الإنسانية.

وفي الحالات الـمَرَضِيَّـة التي قد تتطلب معاقبة الطفل عقوبة بدنية فإنّ ذلك يجب أن يتم ضمن برنامج علاجي تربوي يتعامل مع أسباب الحالة، وتلافي ما سبق فيها من تقصير، ومن ذلك ما يتعلق بالبيئة المحيطة بالطفل، وبالعوامل التي تسببت في حالته المرضية، وسابق أسلوب تعامل القائمين علىٰ تربيته. وفي حال الحاجة إلىٰ عقاب بدني يتوجب ألا يتم ذلك إلا من قِبَلِ ولي أمر الطفل، وهو أمر يجب أن يتم بعد أن نستنفد كافة الأساليب الإيجابية، والتدرّج حسب الحاجة في أساليب العقاب: من إعراضٍ وجفوة، ثمّ لفتِ نظرٍ، ثمّ توبيخٍ وشيء من الحرمان من المزايا والمحببات، وذلك إذا كنّا فعلاً حريصين علىٰ سلامة نفسية الطفل والمحافظة علىٰ كرامته الإنسانية.

وشأن الطفل في موضوع العقوبة البدنية أكثر خطورة من شأن البالغ، فليس من الكرامة في شيء استصغار أمر الطفل واستضعافه، والاستهانة به

وبكرامته، وإنزال العقوبة البدنية به كلما بدر منه خطأ صَغُرَ أم كَبُرَ، على غير الحال -عادةً- في التعامل مع البالغ، لما تتركه تلك العقوبات في نفسية الطفل وشخصيته في مرحلة التكوين من تشوهات وآثار سلبية مستقبلية مدمرة.

إنّ تغليب الاهتمام المعرفي بحشو رأس الناشئة بالمعلومات واستظهارها، مع ضعف الاهتمام بالجانب النفسي والوجداني، وضعف ملاحظة آثار المعرفي النفسية والوجدانية في تكوين عقلية الناشئة ونفسيتهم وأخلاقياتهم، أشبه بمن يصب الماء الزلال في خزان الوقود، فيعوّق الحركة، ويتلف الطاقة، ولا يروي الغليل.

فالحبُّ هو التربة التي تنمو فيها العلاقات المؤثرة المثمرة، بها ينشأ الولاء والثقة والتعلّق بين الناشئ والمربي، فبقدرِ حرص المربي على منفعة الطفل، والتواصل معه، والتودد إليه، وتشجيعه، وتقدير جهده، بقدرِ ما يتعلق الطفل بالمربي، ويثق به، ويحرص على إرضائه ونيل ثقته، ممّا يجعل الطفل أرضاً خصبة للزرع، فتَسْهُلَ مهمة المربي الحصيف في الأخذ بيد الطفل، والمضي به قُدُماً على مدارج قدراته في السعي نحو الأفضل والأعلى والأجدر.

مراحل نمو الطفولة الأساسية ومنطلقات التعامل معها:

والمربي القدير يهتم قبل كل شيء بالتعرف على الصفات والقدرات العقلية والنفسية والوجدانية والجسمانية للطفل؛ حتى يأخذ بيده لتنمية قدراته في تلك المرحلة، وتكوين عقليته وبناء نفسيته ووجدانه، من أجل بذر أسمى القيم، وتفجير أعلى الطاقات، في حدود خصوصية الطفل وإمكاناته الذهنية والنفسية

والبدنية، بحيث لا يكلفه ما لا يطيق، كما لا يترك طاقاته تضيع هدراً.

ومن **طبيعة الطفل دون السابعة** أن يستجيب للمناغمـة والتعويد، وهذه المرحلة تتسم بالحاجة إلىٰ تكوين أبسط الخبرات وتكرارها، وتتميز بضعف القدرة علىٰ التركيز والمتابعة والتذكر، ولذلك كانت المناغمةُ والحوارُ والملاعبةُ والصبرُ والتكرارُ أساسَ التربية في هذه المرحلة. ومن المهم فيها ألفة الطفل لمربيه، وحبّه لـه وثقته به، وثبات خطة المربي، ومعرفته لما هو مطلوب من الطفل؛ حتىٰ يتحقق عن الطفل حسّ الأمن، وتتاح لـه فرصة التعود، وهذا يكون حين لا تتعارض توجيهات المربي ولا تتفاوت، ولا ينقطع خيط تعويداتها، بحث يأنس الطفل ويعلم ما هو مطلوب منه.

ثمّ تأتىٰ **مرحلة التمييز** في حوالي السابعة من العمر. وهي تستلزم جوَّ علاقةِ الحب والمودة والثقة والولاء الملموسة، والتعبير عنها بمختلف الوسائل. وفيها يستمر المربي في المتابعة الصبورة، وفي تعويد الطفل علىٰ العادات والأساليب الصحيحة والأخلاق الحميدة في التعامل مع مَن حوله من الصغار والكبار، وتوجيهه إلىٰ الألفة والمشاركة، واحترام حقوق الآخرين، والتعاون معهم، وبذل الجهد لإنجاز الواجبات، وربط مشاعره وإنجازاته الإيجابية بمدىٰ تحقيق هذه الغايات في سلوكه، وفي علاقاته مع الآخرين.

ومع بلوغ الطفل سنّ العاشرة تبدأ -بتفاوتٍ- مرحلةُ النضج الجسدي والنفسي لديه، وعندها يجب أن يبدأ المربي بتعويد الطفل علىٰ تحمّل تكاليف المسؤوليات، والتطلّع الإيجابي للسبق والتميّز الإيجابي، وفتح آفاق المعارف أمام نفسه المتطلّعة إلىٰ المعرفة، والشغوفة بالاستكشاف، والمولعة بالإنجاز

والإبداع، وبالرغبة في التميّز وتحمّل المخاطر؛ ولتحقيق هذه الأهداف يجب توفير كل وسائلها المدروسة، والحرص -في الوقت نفسه- علىٰ عدم تعرّض الطفل -بسببها- لغير المحسوب حسابه من المخاطر أو الإحباطات.

وهكذا، فإنّ الحب في كل مراحل الطفولة هو عماد التربية السليمة الناجحة، مع استئثار التعويد وضبط المنهج التربوي بنصيب الأسد.

أمّا **مرحلة المراهقة** ففيها يستولي علىٰ نفس الطفل حبُّ المعرفة وطلب الاقتناع وحبُّ الاستقلال وتلمّس الطريق بروح الاستكشاف والتسامي، في الوقت الذي يتعرّض معه لتغيّرات جسدية ونفسية ووجدانية ليس لـه سابق خبرة ولا معرفة بالتعامل معها، ممّا يثير الاضطراب في نفسه وفي علاقاته، وتتنازعه الأحاسيس، وقد تدفعه إلىٰ الانطواء واستيلاء مشاعر الخجل عليه، أو إلىٰ العكس من ذلك، فقد تدفعه إلىٰ العصيان والصدام والانفلات.

ومن خلال التواصل وإفساح الصدر والمجال لمشاعر الاستقلال والإنجاز والاستكشاف وطلب المعرفة، وفي ظل الرعاية، وتوفير المناخات النظيفة، والمتابعة الرؤوفة، والتوجيه اللبق، والخُلطَات السليمة، يمكن تحقيق النتائج الإيجابية، وبها يتم التفتح والتحكم في الطاقات والقوىٰ المتفجرة في كيان الصغير.

ومع النضج وبلوغ ريعان الشباب وطاقاته وتطلعاته والجرأة في سلوك فجاج الحياة؛ فإنّ الثقة والتشجيع، وإلقاء عبء المسؤوليات علىٰ الأكتاف الشابة هي ما يحتاج إليه الشاب ليكوِّن خبراته، ويشق طريقه في الحياة: عضواً

قادراً نافعاً، وإنساناً مبدعاً متميّزاً بالمبادرة والطاقة الوجدانية، والقدرة على تحمّل المسؤوليات، بالقوة والأمانـة اللائقـة بالمسلم المستخلف.

إنّ عنصر الاقتناع والتشجيع والاحترام وإفساح المجال للمبادرة والإبداع وتحمّل المسؤوليات هي أساس الجانب الجمعي في بناء الشخصية الإيجابية. وإذا تعهد المربون نفوس الأطفال والشباب بالعناية والرعاية في هذه المراحل، يكونون قد أفلحوا في بناء سواعد القوة والقدرة والأمانة، وصنعوا سواعد الصلاح والإصلاح، وإلا فلا مجال دون ذلك لميلاد جيل حملة الرسالة، ولا مكان لمجتمع القوة والتكافل والشورى والكرامة.

صفات المربي الناجح:

إن على المربي إذا شاء أن ينجح في مهمته أن يتسلح ويتلبس بالمعرفة والحب والإكرام والاحترام، وبالعدل والصبر والبذل، فهذه هي الأسس التي لا بدّ منها لتربية العقول والنفوس وإعدادها لتحمل المسؤوليات، وهي التي تكوِّن معادن النفوس في كل أمـة وفي كل أرض: "تجدون الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا."(١)

فالتربية الصحيحة والمعدن النفيس والبناء النفسي القويم إنّما يتعامل مع أصل طبع الإنسان وفطرته، بغض النظر عمّا إذا كان هذا الإنسان في جاهلية أم إسلام. فالإسلام والفقه بمقاصده السامية يوجّه تلك الطاقة ويوظّفها نحو

---

(١) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٣، ص١٢٨٨، حديث رقم: ٣٣٠٤. انظر أيضاً:
- الشيباني. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج١٦، ص٤٦١، حديث رقم: ١٠٧٩١.

الخير والإنجاز الخيّر. أمّا إذا لم يكن ذلك البناء النفسي وتلك الطاقة الوجدانية حاضرة فلن يجدي العلم والفقه في الدفع إلىٰ العمل والتضحية والبذل، إلا بالأدنىٰ الأقل.

العلم والمعرفة ضروريان لنجاح المربي والتربية، ومن دون العلم والمعرفة بنفسية الطفل وبمراحل نموه لن تجدي عواطف الحب، بل ربما كانت السبب في ضياع الطفل وسوء تربيته، فينشأ عاجزاً مدلّلاً أنانياً نرجسياً لا يستطيع أن يقيم علاقات سوية مع مَن سواه، وكما يقولون "عدوٌّ عاقلٌ خيرٌ من صديقٍ جاهلٍ". وكم من دُبٍّ جاهل قضىٰ بكل الولاء والحب علىٰ صديق نائم ليزيل عن رأسه ذبابة يخشىٰ أن تزعج منامه.

والعدل هو الأساس المتين الذي يستقر عليه الحبُّ والتكريم والاحترام وفاعلية التوجيه ما بين الطفل والمربي، لأنّ العدل هو محك مصداق مشاعر المربي نحو الطفل، ولن يستطيع الطفل أن يصغي لتعابير الحب ولا لمظاهر التكريم إذا لم يصاحبها إحساس بعدل المربي، وعدم التحيّزِ وتمييزِ طفلٍ علىٰ آخر، أو فئة علىٰ أخرىٰ.

والصبر والتربية صنوان لا يفترقان، لأنّ العجزَ والقصورَ، والتجربةَ والخطأَ، وحبَّ الاستطلاع، والتجريب، هي من صفات الطفولة التي لابدّ من التعامل معها من قِبَلِ المربي بروح إيجابية، وهذا هو الثمن الذي يجب أن يدفعه المربي لكي ينمو الطفل، بتكرار محاولاته، والتعلّم من أخطائه، واستكشاف طاقاته ومحيطه، ودون الحلم والصبر لن يثمر حبٌّ، ولن يفيد توجيهٌ، ولن تستقر عادةٌ، ولن يقوَّمَ سلوكٌ، ولن تنمو قدرةٌ.

ودون البذل والحرص على رعاية الطفل وتوفير حاجاته فليس هناك حبٌّ ولا إكرامٌ ولا عدلٌ، وبالحبِّ والبذل والصبر كانت الجنة تحت أقدام الأمهات.[1] ونال الوالدان مقام البر وحسن الصحبة.[2]

إن حُسن اختيار المعلمين للأبناء وإكرامهم وتكريمهم يُعَدُّ أحد أهم واجبات الآباء والمجتمع. والأمم التي تحسن فيها تربية الأمهات، وتعزُّ مكانتهن، ويتميّزُ فيها معلموها، تتميّزُ أجيالها ورجالاتها. والأمم التي تنحط فيها مكانة نسائها، وتتدنى تربيتهن، وينحدر فيها نوع معلّميها وإمكاناتهم، ويُحَطّ من قدرهم، تنحط ثقافة أبنائها وأخلاقهم وقدراتهم. وما استثمر الآباء والأمم فيما هو أهم وأعظم من الاستثمار في مجال التربية والتعليم.

لقد كان الرسول ﷺ المثل والقدوة في داره ومسجده وخطابه وتوجيهه وإرشاده وصحبته، وَحَرِيّ بالمسلمين أن يعوا دروس النهج والخطاب النبوي التربوي بشأن المرأة والطفل؛ لإعادة بناء الأجيال المسلمة على سمو الإيمان وقوته، وعلى جهاد العمل الصالح وتزكيته.

---

(١) روي من حديث معاوية بن جاهمة أنّه جاء النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك؟ فقال: هل لك أمٌّ؟ قال: نعم، قال: فالزمها فإن الجنة تحت رجليها. انظر:

- النسائي. **المجتبى من السنن**، مرجع سابق، ج٦، ص١١، حديث رقم: ٣١٠٤. والحاكم في المستدرك، وصححه ووافقه الذهبي، وأقرّه المنذري.

(٢) روى الشيخان أنّه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ من أحقُّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك. انظر:

- البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٢٢٧، حديث رقم: ٥٦٢٦.
- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٧٤، حديث رقم: ٢٥٤٨.

الفصل الخامس:

الأسرةُ المسلمةُ منبعُ الوجدان

أولاً: أسرار الشريعة في بناء الأسرة: الأسس والمنهج

إذا كانت أهداف التربية الإسلامية السامية هي بناء "المؤمن الصادق"، و"المستخلف الراعي"، و"القوي الأمين". فإن هذه الأهداف لا تأتي إلا بطاقة قناعة الإيمان، وحسّ مسؤولية الاستخلاف، وشجاعة القلب، ونبل الصدق والأمانة، وإحسان الأداء وإتقان العمل. وهذه معالم تُبنى في الطفولة، وتتشكّل في أساس تكوين الإنسان الوجداني، ولذلك كانت الأسرة وسلامة العلاقة الأسرية هي القاعدة الأساس للنهج التربوي النبوي للطفل، وغاية خطابه. ذلك لأنّ الأسرة هي المحضن الأول والأهم للطفل، نفسياً ومادياً، فهو يولد غير قادر على تحصيل حاجاته وحماية نفسه دون عناية أسريّة توفر له الحاجات المادية والنفسية وترعى طفولته، ولذلك كان بناء الأسرة ونوعية علاقاتها من أهم الأبعاد التربوية الإنسانية التي يتوقف عليها نوع بناء الشخصية الإنسانية.

وقد أولى الإسلامُ والقرآنُ الكريم ونبيُّ الإسلام الأسرةَ وعلاقاتها أعظمَ الاهتمام، وعدَّها النواة الأساسية في تكوين الفرد والمجتمع، ولذلك فإنّ من المهم أن نتعرف إلى الرؤية الإسلامية في بناء الأسرة وعلاقات أفرادها؛ حتى يمكن أن نقيم دعائمها على الأسس السليمة التي توفر المحضن التربوي السليم لبناء الطفل المسلم، ونزيل بعض ما لحقها من انحرافات أملتها

التقاليد، وأعانت عليها الظروفُ وغبشُ الرؤية وجمودُ الفكر، خاصة في هذه المرحلة التي تمرّ بها الأمة والتحديات التي تواجهها اليوم.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١]. ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤]. ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان: ١٣ - ١٤]. ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٥]. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

وقال رسول الله ﷺ: "إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله."[(١)] وقال رسول الله ﷺ: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم

---

(١) رواه أحمد في مسنده، انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٤٠، ص٢٤٢، حديث رقم: ٢٤٢٠٤.

لأهلي."[1] وروى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: "تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك."[2] وروى سعيد بن منصور عن رسول الله ﷺ أنّه قال: "إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن في الأرض فتنة وفساد كبير."[3] وروى أحمد وأبو داوود والنسائي والحاكم أنّ رسول الله ﷺ قال: "تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامـة."[4] وروى الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كلكم راع ومسؤول عن رعيته فالإمام راع ومسؤول عن رعيته والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته." قال فسمعت هؤلاء من النبي ﷺ وأحسب النبي ﷺ قال: "والرجل في مال أبيه راع ومسؤول عن رعيته فكلكم

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه والترمذي في جامعه، انظر:

- القزويني، **سنن ابن ماجه**، مرجع سابق، ج١، ص٦٣٦، حديث رقم: ١٩٧٧.

- الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج٥، ص٧٠٩، حديث رقم: ٣٨٩٥.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص١٩٥٨، حديث رقم: ٤٨٠٢.

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٢، ص١٠٨٦، حديث رقم: ١٤٦٦.

(٣) رواه سعيد بن منصور في سننه عن ابن هرمز الصنعاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر:

- البزاز، سعيد بن منصور. **سنن سعيد بن منصور**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٩٨٥م، ج١، ص٨٣، حديث رقم: ٥٩٠.

(٤) رواه أبو داود في سننه، انظر:

- السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج١، ص٦٢٥، حديث رقم: ٢٠٥٠.

راع وكلكم مسؤول عن رعيته."[1]

هذا الاهتمام بالأسرة في الإسلام، التي هي المحضن الأول والأهم في بناء الإنسان، ليس مستغرباً، لأنّ الإنسان هو أكرم المخلوقات، وهو المستخلف في الأرض، ولذلك كان في حاجةٍ إلىٰ التربية والإعداد، وكانت طفولته النفسية والبدنية طويلة الأمد؛ بل هي أطول طفولة في الكائنات الحية، تستغرق حوالي عقدين من الزمان قبل أن يكتمل عود الطفل الإنساني، ويكتمل بناؤه النفسي والجسدي. وهو خلال هذه الفترة يتلقىٰ مختلف ألوان العناية والرعاية والتربية والتقويم والتوجيه والتعليم والتدريب.

لهذه الأسباب ندرك لماذا أولت الشريعة الإسلامية بناء الأسرة كل هذه الأهمية الكبرىٰ، ولماذا جاء بناءها وهديها وتوجيهها قائماً علىٰ ما تمليه الفطرة وعلاقاتها الإنسانية في الأبوة والأمومـة، ولماذا كانت الأسرة الإسلامية مبنية علىٰ الأسس الفطرية في النفس الإنسانية التي تتسم بالثبات، لذلك تناولها التشريع الإسلامي بالتفصيل الذي يقرر الأسس الثابتة لبنائها، ويحدد علاقات أفرادها القائمة علىٰ ثوابت هذا البناء الفطري.

ولهذا فإنّ التشريعات الإسلامية للأسرة لا يمكن فهمها ولا إدراك حكمتها إذا لم تفهم الجوانب الفطرية السننية في تكوينها، والتي تحدد وظيفتها تجاه أعضائها، وطبيعة الأدوار المتكاملة لهم. إنّ إهمالَ جانب الدراسات السننية

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٩٠٢، حديث رقم: ٢٤١٩.
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٤٥٩، حديث رقم: ١٨٢٩.

الفطرية في تكوين الأسرة والاستجابة لمتطلباتها؛ هو الذي يفسّر ما تعانيه كثير من التشريعات الإسلامية المعاصرة من قصور في ملاحقة المتغيّرات، وملاحظة مدىٰ تأثيرها في الأسلوب الذي يؤدي به أفراد الأسرة أدوارهم.

وعدم إدراك المبدأ الإسلامي في تكامل أفراد الجنس البشري عامة، وأدوار أعضاء الأسرة بشكل خاص، يؤدي إلىٰ عدم فهم بناء الأسرة المسلمة، وعدم إدراك أدوار كل عضو فيها. لذلك يخطئ مَن يملي التماثل في الأدوار علىٰ أطراف العلاقـة الأسرية؛ لأنّ ذلك منطلق خاطئ من ناحية الحقيقة الفطرية، وتشويه للوظيفة الأسرية، وجور علىٰ حاجات أطراف العلاقة وحقوقهم.

التوافق والتكامل اللذان يحققان التعاون والرعاية والود والرحمة بين الأبوين -ذكراً وأنثىٰ- هما الأساس الذي تبنىٰ عليه الأسرة الإنسانية، وإذا ما انتفت علاقة التكامل والتعاون والود والرحمة بين الأبوين تحطمت أسس علاقة الآباء بالأبناء. ذلك لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولن يحظىٰ الطفل بالسلام والأمن والرعاية والتربية الضرورية لبنائه النفسي والمعرفي القويم إلا إذا حصل كل فرد في الأسرة علىٰ حاجته، وقام بدوره قدر طاقته، ممّا يهيِّئ لأفراد الأسرة ولأطفالها المناخ النفسي السليم للإحساس بالأمن، ولتنمية طاقاتهم وقدراتهم.

إنّ ضعف المرأة الجسدي ورقتها العاطفية، قياساً بالرجل، مع تعلّق الطفل مادياً ونفسياً بها، هو ما يجعلها ويجعل طفلها في حاجة إلىٰ الرعاية والدعم. ويعوّض ذلك ويقابله ضعف الرجل تجاه الجنس، قياساً بالمرأة، لأنّ في تحكمها في رغباتها حماية للمرأة ولنفسها ولطفلها، وبذلك جعل الله بيد

المرأة زمام القرار الجنسي وعقلانيته، فلا يؤثر على قرارها العقلاني في علاقتها بالرجل حضوره أو مظهره، بل تظل قادرة على اتخاذ قرارها وفقاً لإرادتها وما ترى فيه مصلحتها.

ولهذه الحقائق في كيان المرأة والرجل، ولما فيه مصلحتهما، نظَّمت الشريعة علاقـة الزواج والنسب على أساس من الخصوصية، وبها يتم انتماء الطفل للرجل، وولاء الرجل للمرأة والطفل. وعلى أساس من هذا التنظيم الحكيم يحمل الرجل -بما وهبه الله من قدرات العمل وتحمُّل المشاق- أعباء تبعات الأنوثة والطفولة، وعلى أساس من هذه الخصوصية وهذا الانتماء وهذا الولاء قامت العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس من الود والرحمة، لتكون الأسرة محضن حبّ وأمن لأبنائهما.

إنّ قوةَ الرجل وجَلَدَهُ وخلوَّه من مشاغل الأمومة الأنثوية؛ هو في رباط الأسرة قوةٌ مُيسّرةٌ لتوفير حاجات المرأة والطفل ورعايتهما. وإنّ في رقة المرأة وعاطفتها راحـةً ورحمةً وسكناً للطفل الضعيف والرجل المرهق، ولذلك أُوكلت النفقة إلى الرجل في الأسرة، فلا تعمل المرأة إلا بإرادتها، بحسب حالها وطاقتها والمرحلة التي تمرّ بها وطبيعة العمل المتاح لها، وأيّ جور عليها في ذلك أو غبن لحقوقها هو غبن وظلم لها ولحقها في العون وفي الإحسان.

وهذه الفطرة تفسّر المفهوم الإسلامي في مقدار عورة الرجل وعورة المرأة وحكمته، فهو ليس جوراً على المرأة، ولكنّه رعاية وحماية لطرفي الأسرة، فعورة الرجل المحدودة هي تيسير لعمل الرجل دون خوف على فتنـة المرأة أو تفريطها في حقوق الأمومـة في الأسرة. أمّا شمول عورة المرأة لمفاتن جسدها

وسترها فإنّه حماية لها من تعديات الرجال وعدوانهم على دور أمومتها، وهي أيضاً حماية للرجل من الفتنة والإضرار بأسرته وبحقوقها عليه.

إنّ هذه الأهداف السامية هي من الغايات المقصودة بالتفاوت بين عورة المرأة وعورة الرجل، فهي تنبع من فطرة كل واحد منهما، وتستجيب لحاجاتهما، ولطبيعة الدور المتعلّق بكلٍّ واحد منهما. ومن ذلك أيضاً حكمة منع التعدّد للمرأة، لأنّه يهدم الأسرة، ويضيع النسب، ويلغي دور الأبوة. فالمرأة لا تحمل إلا مرة واحدة ومن رجل واحد. أمّا الحكمة في السماح بتعدّد الزوجات للرجل؛ فلأنّه لا يلغي النسب ولا يهدم الأسرة، بل يعدّد الأسر. إلا أنّ التعدّد للرجال دون حاجة ليس من دواعي المحبة والوئام والولاء في الأسرة، ويحمل معه مخاطر الغيرة والتباغض بين النساء والأبناء، فلا يكون الرجل -على كل الوجوه- رابحاً نفسياً وأسرياً إلا إذا كان التعدد لحاجة حقيقية تمس حياة الفرد أو كيان الأمة.

وبهذا قامت الأسرة على الود والرحمة، ففي المشاعر تقوم على الود، وفي التكليف تقوم على الرحمة، فلا يكلف الزوج زوجتَه عنتاً بما لا تطيق، ولا تعنت المرأة زوجَها بما لا يطيق، كما لا يحقّ أن يُقْسَرَ أحد من أطراف الزوجية على البقاء فيها دون رغبته وإرادته، ولذلك أباح الإسلام الطلاق للرجل والـخُلْعَ للمرأة إذا ما دبَّ بينهما الشقاق، لأنّ فَقْدَ المودة والرحمة بين الزوجين أضرُّ على نفسيهما وأبنائهما من الفراق. وفَقْدُ الطفل لأحد أبويه في مرحلة أو أخرى من حياته أهون من عيشه بين أبوين هما في صراع وكراهية وقسوة وشقاق.

ولذلك اهتمَّ الإسلام، وفصَّل القرآن الكريم ووعظ، ووعَّىٰ الزوجين بطبيعـة علاقتهما، وبحقوق كل طرف منهما وواجباته، وترك لهما بالود والتراضي والتكافل حرية التصرف في أنفسهما وممتلكاتهما دون حرج، بما لا إثم فيه ولا غش ولا تفريط في الواجبات. كما علّمهما وأرشدهما إلىٰ سبل حل الخلافات وتجاوز العثرات قبل اللجوء إلىٰ الفراق وهدم الأسرة، وإيذاء الأطفال بالطلاق أو بالخلع. وحكمـة التراضي -بما لا يزيد علىٰ ما قدَّم الزوج للزوجـة من المهر لخلع المرأة من الزوج- ألا يكون المالُ سببَ طلبِ المرأة الطلاق أو الخلع، أو أن يكون مَن لـه تأثير عليها من القرابة سبباً في الفراق وهدم الأسرة، فهي تعيد إلىٰ الزوج ما قدَّم، وعندها لا يكون الفراق سبباً لمغنم. أمّا في حال طلاق الرجل للمرأة فإنّه ليس فيه جائزة مادية لـه، بل إنّه سيعاقب مادياً بسبب فَقْدِه المهرَ وتحمّل النفقة، فضلاً عمّا سيتحمّله بعد ذلك من التبعات اللاحقـة لبناء أسرة جديدة.

إنّ الأسرة في نظام الإسلام الاجتماعي هي المؤسسة الاجتماعية الأساسية التي توفر للإنسان أسباب الوجود الأساسية، وقد أقام الإسلام لها نظاماً خاصاً يناسب مهمتها، وأوكل إلىٰ كل عضو فيها مهمة ومكانة تناسب دوره وحاجته التي تبنىٰ علىٰ المودة والمحبة والرحمة والاحترام المتبادل.

دور الفرد بين الأسرة والمجتمع:

إنّ الخلط بين أدوار الأفراد، بصفتهم أعضاء في الأسرة، وبين أدوارهم في المجتمع ومؤسساته الأخرىٰ؛ أدىٰ إلىٰ كثير من سوء الفهم وتنازع الأدوار، وإهدار الطاقات، والتعدي علىٰ الحقوق.

فمقام الأب ومكانته ومركزه في الأسرة، ومقام الأم ومكانتها ومركزها في الأسرة، ومقام الابن ومكانته ومركزه في الأسرة، لا علاقة لأيّ منها بمقام أيّ واحد منهم ومركزه في مؤسسات المجتمع الأخرىٰ. فعلاقة الأبوَّة بالبنوَّة في الأسرة تتعلّق بالأبوَّة ومكانتها في النفس، وما لها من الحب والتوقير. أمّا موضع أيّ عضو من أعضاء الأسرة في المجتمع فإنّها هي الأخرىٰ تتعلّق بقدراته وطاقاته التي قد تفوق فيها قدراتُ الابن قدراتِ أبيه أو أمه وطاقاتهما. وكذلك فإنّ مقام الزوجة أو الابنة وقدراتهما وطاقاتهما في مؤسسات المجتمع قياساً بمقام الآخرين، أباً أو أمّاً أو إخوةً أو أخوات، يتعلّق بقدرة كل واحدة منهما وطاقاتها، والخلط في هذا الأمر يؤدي إلىٰ سوء الفهم، وإهدار الطاقات، وتنازع الأدوار، والتعدي علىٰ الحقوق، وزعزعةِ استقرارِ الأسرة، وسلامة أدائها.

إن مكانة الزوج في الأسرة تتعلّق بهوية الأسرة وانتماء أعضائها وتمكين ولائه لها وتوفير مشاعر الأمن والطمأنينة لـه ولبقية أفرادها. فولاء الرجل وانتماؤه للأسرة والزوجة والأبناء يتوقف في جوهره أصلاً علىٰ مدىٰ ولاء الزوجة وإخلاصها للعلاقة مع الرجل، ومدىٰ إعطائـه حسّ الأمن والثقـة في علاقته بها وبأبوَّة أبنائها، وبمدىٰ إعطائه دور التحكم في إدارة العلاقة بالأطراف الأجنبية عن العلاقة الزوجية الأسرية؛ الأمر الذي ينعكس في انتساب الأبناء وولاء الأب لهم، وثقة الأبناء بانتماء الأب إليهم واتحاده بهم.

ومن المهم أيضاً أن ندرك أنّ طبيعة المرأة بشكل عام –وفي جُلِّ أطوار حياتها الإنتاجية– تختلف عن طبيعة الرجل، ولا يغيّر من ذلك بعض

الاستثناءات. فالمرأة تتميّز بأنّها ثنائية الوظيفة والاهتمامات والقدرات، فبقدر ما تكون قادرة ومؤهلة للعمل والإنتاج وتتطلع إلى الإبداع فيه؛ تبقى مشدودة إلى الأمومة ووظائفها ومتطلبات "العش والفراخ".

أمّا الرجل فأحادي الدور والقدرة والاهتمام الذي يتعلّق في الجوهر بالعمل والإنتاج. فهو قد هُيِّئ لذلك جسدياً ونفسياً، ولذلك يجب توفير كل الشروط اللازمة لكي يوظف قدراته للعمل خدمةً للمرأة والطفل وحاجاتهما، ومشاركته لـهما ثمار إنتاجه، وتوفير الوقت والجهد اللازم للأم لكي تُعْنىٰ بالصغار، حتىٰ يبلغوا مرحلة النضج، في بيئة تتوافر فيها العناية والرعاية والتوجيه والتربية السليمة. هذا هو الأصل والمنطلق، وأيّ تعديل في مسار أداء كل منهما يجب أن يتم دون إخلال بالواجبات والمسؤوليات الأساسية لكل واحد منهما.

ولذلك فإنّه لا مجال للتمايز والتعالي والصراع بين أدوار الرجولة والأنوثة، فلكل واحد من الطرفين دور في بناء الأسرة والمجتمع. فالمرأة هي في بناء المجتمع المسلم -بالدرجة الأولىٰ- الأم والأمومة التي هي أساس الأسرة، ومرسىٰ بنائها، وعش أمنها وحنانها، وهي الأَولىٰ بالعون والبر والحماية، وهي كذلك أولىٰ بقوة الرجل وطاقته وعطائه لحماية العش ورعايته والسهر علىٰ راحته.

وكل تشريعات الإسلام إنّما تسعىٰ لتحقيق هذا الهدف والمقصد، وأيّ فهم لأدوار الرجل والمرأة في المجتمع المسلم ينافي ذلك هو انحراف عن أهداف الإسلام وعن الفطرة السليمة، سواء أكان ذلك باتجاه الغرب، إرهاقاً

للمرأة وإلزامها بالعمل، والمتاجرة بها جنسياً، وجعلها أداةَ تسليةٍ وعبثٍ فاجرٍ رخيص، أم باتجاه الخضوع للأعراف والتقاليد في بعض بلاد العالم الإسلامي، بإعناتها وإعضالها وسجنها والتضييق عليها وتجهيلها، بدلاً من تعليمها وتثقيفها ومشاركتها العبء وإعدادها للقيام بمهمتها في رعاية الأسرة، وحسن تنشئة أبنائها، وتوفير سبل رعاية الزوج، واستثمار فائض طاقتها في خدمة الأمة والمجتمع.

إنّ إبعاد المرأة المسلمة عن الإسهامات الثقافية والدينية والاجتماعية الإسلامية، هو الذي يفسّر -في كثير من الوجوه- ضعف تربية الأبناء، وضعف دور المرأة المسلمة في المجال الاجتماعي، مقارنةً حتىٰ بالمرأة الهندوكية علىٰ سبيل المثال، علىٰ الرغم من أنّ المرأة الهندوكية مهضومة الحقوق ولا تتمتع حتىٰ بالقليل من الحقوق التي كفلها الإسلام للمرأة المسلمة، إلا أنّ الفرق هنا أنّ المرأة الهندوكية لها أدوار فعَّالة، ولها حضور في النشاط الديني والاجتماعي الهندوكي. ويُذكر هنا ما سمعته من الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكرياته عن الطفولة والقرية، إذ يذكر كيف كان يرىٰ المرأة في كل مكان في القرية إلا في المسجد.

وكم أعجب حين أرىٰ جُلَّ مساجد المسلمين في كثير من بلادهم لا موضع فيها للنساء، وإن وُجِدَ مكانٌ لهنّ فهو خلف ستر وحجب يصعب معه الحضور والمشاركة الوجدانية، ولا أدري -والنساء في أكثر ملابسهن ستراً وأشدّ حالاتهنّ طهراً وتوجهاً- ما الذي يخشاه من يضع صفوف جموعهن خلف الحواجز والموانع، والجموع سوف تنطلق بعد قليل من موقع العبادة

والطهر إلى الأسواق والأعمال رجالاً ونساءً؟! أليس في ألفة نفوسهم للاجتماع الروحي المهذب في المسجد ألفة لنفوسهم في التعامل المهذب خارج المسجد؛ بدل أن تغيب صفوفهن نفسياً ومادياً داخل المسجد؟!

وكم هو عجيب أيضاً أن يصل الأمر في كثير من مساجد المسلمين إلى ألّا يسمح للمرأة بحضور صلاة الجمعة وخطبتيها، ولا يُهيَّأُ لها موضعٌ مناسبٌ فيها، وكأنّ الخطاب والحضور والتذكير وعرض شؤون المسلمين لا يخصُّ المرأة في شيء، وكأنّها ليس لها في المجتمع دور ولا شأن. إنّ منع المرأة من حضور صلاة الجمعة والجماعة هو سوء فهم لرخصة عدم إلزام المرأة حضورَ جماعات الصلوات، وذلك أنّ طبيعة مهمتها في رعاية الأسرة لا يمكّنها من تنظيم وقت أدائها، فلا يمكن للأم أو مَن في موضعها تأجيل رضعة الصغير أو العناية به أو تركه دون رعاية أو انتظار عودته من مدرسته، وما إلى ذلك، ولهذا لم تُلزم المرأة بالجماعات، خصوصاً في جماعات الليل والعتمة. أمّا إذا لم يكن من ذلك شيءٌ يشغلها ويحول بينها وبين حضور الجماعة، ولا سيّما صلاة الجمعة وخطابها، فالرجل والمرأة أعضاء في المجتمع، وهم معنيون به سواء بسواء، فالأمر أمر تيسير وإباحة، لا أمر منع وإعفاء، "فلا تمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله."[1]

---

(١) البخاري. **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص٣٠٥، حديث رقم: ٨٥٨. انظر أيضاً:

- القشيري. **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٣٢٦، حديث رقم: ٤٤٢. "لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد".

الأمومة والعمل في نظام المجتمع المسلم المعاصر:

من أخطر ما ابتلي به المسلمون اليوم، في هزيمتهم الحضارية المادية أمام الغرب، متابعتهم للغرب في كل أمر "حذو القذّة بالقذّة" دون وعي بخصوصيتهم وخصوصيتنا، وبمقاصد شرعتهم وشرعتنا.

إنّ إخراج المرأة إلى العمل؛ بالشروط نفسها المطلوبة من الرجل، وبذات المتطلبات والترتيبات التي يتعامل بها الغرب مع المرأة، قد أدّى إلى تفكك الأسرة، وإرهاق المرأة، والتفريط في عرضها، والمتاجرة بها، وتعريضها لكل ألوان الاستغلال والانحراف.

إنّ المرأة ليست مثيلاً للرجل، فلكلٍّ منهما طبيعته وخصوصياته وحاجاته، وهما متكاملان وليسا متماثلين، ومعاملتهما على أنّهما متماثلان إجحافٌ بكلٍّ منهما، إجحاف بالرجل نفسياً وأبوياً في علاقته ودوره المحوري "القوامي" في حياة الأسرة وتوفير الأمن والرفاه لها، وإجحاف بالمرأة على وجه الخصوص في دور أمومتها المحوري في حياة الإنسان ونشأته، وفي تربية الطفل، وفي السهر على بيت الأسرة وراحتها وهناءتها.

لذلك كان وما يزال على المجتمع المسلم ومفكريه وقادته أن يسألوا أنفسهم عن طبيعة دور الرجل والمرأة في الشرعة والمجتمع المسلم المعاصر، وكيفية حماية خصوصياتهما وتحقيق مقاصد الشرعة الإسلامية، مع تحقيق الكفاءة، وتسخير طاقات المرأة والرجل على أفضل وجهٍ ممكن في خدمة المجتمع، بما يحقّق مقاصده بأسلوب متوازن، ويمكّنه من الإفادة من طاقاته ومواجهة تحدياته بأفضل أسلوب.

ولتحقيق هذا الأمر يجب دراسة سوق العمل والإعداد لـه وتنظيمه، وتسهيل الأولوية فيه على ضوء الحاجات والقدرات والأدوار التي يطبّقها ويؤديها مختلف أفراد المجتمع وفئاته، رجالاً ونساءً، والتي تنسجم مع غايات المجتمع وتحقّق لـه خصوصياته.

وفي حالة المرأة فإنّ دور الأمومة الحيوي يُعَدُّ الأساس المهم للمجتمع، وإنّ بقاءه واستمراره بالشكل الفعَّال هو من أهم الاعتبارات التي يجب أن ينظّم على أساسها سوق العمل في المجتمع المسلم. والمرأة في دور الأمومة تحتاج إلى الرعاية المادية لكي تؤدي دورها في خدمة الأسرة والسهر على راحتها، كما تحتاج إلى الرعاية المعنوية للحفاظ على جوهر الأمومة في الحفاظ على عفتها وكرامتها.

وهناك مجالات عديدة في المجتمع المسلم يجب إعطاء الأولوية فيها للمرأة، ومن أفضل نماذجها التعليم في مرحلة الروضة، وفي مرحلة التعليم الابتدائي؛ حيث تكون المرأة بطبعها أقدر على التعامل مع الطفل.

وانطلاقاً من طبيعة المرأة ودورها الحيوي والاجتماعي فإنّها حين تبلغ العشرين تكون قد انتهت أو قاربت على الانتهاء من إعدادها المهني بالحصول على شهادة الدبلوم أو البكالوريوس، وهي في هذه السن أكثر ما تكون استعداداً أيضاً لمزاولة دور الأمومة، وأكثر ما تكون قادرة –من الناحية الوراثية والطاقة الجسدية والنفسية– على إنجاب الأطفال الأصحاء، والقدرة على تربيتهم ورعايتهم نفسياً وبدنياً. ولذلك فمن المهم توفير فرص العمل المرن المناسب لانشغال المرأة بالأمومة في هذه الفترة التي تمتد إلى حوالي

الأربعين من عمرها، حين يصبح أصغر أطفالها قادراً على الاعتماد على نفسه، ويكون قد تعدىٰ الفترات الحرجة جسمياً ونفسياً.

وهذا يعني أن يرحَّبَ بهن في هذه السن في ميدان العمل، ويعطين الأولوية، وتقدَّر مزاياهن، بل وتحتسب لهن الأمومة خدمة كل عامين أو ثلاثة أعوامٍ بعامٍ خدمةٍ، وَفْقَ ما تُحتسَب به الخدمات والخبرات في ميزان التوظيف، خاصةً أنّ المرأة -بخبراتها من ناحية، وبطبيعة التغيّرات البيولوجية التي تلحق بها في حوالي سنّ الخامسة والأربعين؛ بسبب انقطاع الدورة الشهرية وانتهاء فترة القدرة على الحمل- تصبح أكثر صلابةً وإيجابية بسبب زيادة هرمونات الذكورة وتراجع هرمونات الأنوثة لديها، بعكس ما يحدث للرجل في مثل هذه السن حيث يميل بعدها إلىٰ اللين والدعة ورقة العاطفة، لذلك فمن المناسب أن تعطىٰ المرأة حق التقاعد في سن الخامسة والستين أو حتىٰ السبعين من العمر، فليس سراً أنّ المرأة أطول عمراً، وهي أيضاً أمتن بناءً من الرجل في هذه السن المتأخرة.

إنّنا في ضوء التبعية الغربية، التي تميل إلىٰ المتاجرة بالمرأة وبأنوثتها، وتقلّل من أهمية دور أمومتها، نسعىٰ لنرهقها ونصرفها عن دور أمومتها في صدر شبابها وربيع عمرها، ثمّ نغلق الأبواب أمامها حين تنضج وتخلو من شواغل الأمومة؛ لتصبح عاطلةً وحماةً ومصدراً للمنازعات والمشكلات الأسرية.

ومن الناحية الأخرىٰ، فإنّ تنظيمَ سوق العمل، بحيث يكون فيه قطاع أعمال النساء له استقلالية عن قطاع أعمال الرجال، أمرٌ ممكن، علىٰ شاكلة استقلالية قطاعات الأعمال المختلفة، فذلك في جوهره عملية تنظيمية يعين

عليها التكوين النفسي والقيمي للإنسان وللمجتمع المسلم. فمن المهم عدم خضوع المرأة في سوق العمل لسلطة الرجل الأجنبي المباشرة، بحيث لا يُسمح بنمو العلاقات الشخصية الخاصة الحميمة من ناحية، ولا يسمح للإغراءات الوظيفية والمادية أن تسخَّر بهدف التأثير أو الضغط على المرأة. فلو أنعمنا النظر في علاقات السلطة الرئاسية والمرؤوسية -حتى بين الرجال- لهالنا ما يمكن أن يكون لها من تأثيرات قد تدفع كثيراً من الرجال إلى الخضوع والنفاق وارتكاب المخالفات إرضاءً للرؤساء، وتلافياً وتجنباً لغضبهم وسلطتهم، وطلباً لنفعهم في المراكز والعلاوات والترقيات.

إن طبيعة الضعف البشري وطول المصاحبة بين الرجل الرئيس والمرأة المرؤوسة، ومعرفة نقاط الضعف والقوة فيما بينهما، وما يتعاور حياة الفرد من المصاعب وعلاقاته الأسرية من المتاعب، ولما في يد الرئيس من السلطات الإيجابية والسلبية؛ كل ذلك قد يجعل عِرْضَ المرأة أهمَّ ما يتطلع إليه الرئيس الرجل، وقد يكون، في حالات الضعف، هو أيسر ما تعطيه المرأة المرؤوسة للسيد الرئيس. وما تتكشف عنه الحياة الوظيفية الغربية اليوم من ممارسات التعديات الجنسية يجب أن يكون نذيراً كافياً لنا، ولا سيّما أنّ شريعتنا وقيمنا وخصوصياتها تجعل الآثارَ المترتبة عليها في كياننا -على الرغم من فداحتها عندهم- أعظمَ وأبشع أثراً ممّا هي لديهم.

إنّ علينا أن نهتم بالتخطيط الاجتماعي اهتمامنا بالتخطيط الاقتصادي، حتى لا ننتهي قبل أن نبدأ، ولأنّ حسن التخطيط الاجتماعي وفاعليته -حتى من الناحية المادية- ليس أمراً يسيراً فحسب؛ بل إنّ لـه مردوده الاقتصادي، وهو

يؤدي في كثير من الأحوال إلى حسن استخدام الموارد، وتحقيق كفاءة الإنتاج.

ثانياً: معالم الطريق في "سيناء" العصر

دور الأسرة:

اتضح لنا فيما سبق أن الطفل والعناية بتربيته، وتطوير منهج هذه التربية، وتنقية الثقافة والمفاهيم التي يرضع لبانا في سني صباه، لم تكن في بؤرة الاهتمام العلمي والتطوير العملي لدى أهل المعرفة والفكر والقرار في العالم الإسلامي. فكيف للأمة أن تكسب معركة تربيته وتنشئته إسلامياً وهي تعاني من تشوهات موروثها الثقافي، ومن سطحية ثقافة خاصتها وأحاديتها وغربتها في الزمان والمكان، مع قصور ثقافة العامة وانحطاطها، وهي في الوقت نفسه تعاني من هجمة الغزو الفكري الأجنبي والإعلام العالمي والغايات الاستعمارية ووسائلها القهريّة التي تستغل انبهارها الحضاري، وجهلها الإسلامي، وفسادها السياسي والاجتماعي؟

الأنظمة والمؤسسات: دورٌ تابعٌ:

من الواضح أنّ القطاع الإسلامي الإصلاحي في الأمة هو المعبّر عن ضميرها ووجدانها، فبيده مفاتيحُ محركات طاقاتها، ويملك القدرة على خطاب روح الأمـة، وتقديم مشروع ناجح للإصلاح، وإعادة البناء، وإعادة التواصل مع عهد الرسالة، ومع رؤيتها الكونية الشمولية، وروحها الجهادية الإصلاحية.

هذا القطاع لا يمكنه الاعتماد على الأنظمة وصفواتها السياسية لإصلاح التربية والتعليم بشكل جذري، ووفق المنظور الإسلامي، لأنّ مصالح

الأنظمة -وبتأثير طبيعتها والقوى المؤثرة فيها- هو الإبقاءُ على الحال القائمة التي يتمتعون فيها بما في أيديهم من المصالح والامتيازات، ويحرصون على استبقائها باستجلاب رضى القوى العالمية الكبرى المتحكمة فيهم، وعدم التعرّض لمصالحهم ومكتنـزاتهم ومتعهم وأنظمتهم. وهذا لا يعني إهمالَ خطاب الأنظمة وقياداتها، والوقوفَ عن بذل الجهد في نصحها وكسب شيء من اقتناعها، والتعاونَ معها في حدود إمكاناتها، والسعيَ إلى التقليل من مقاومتها ومناوأتها للجهود المبذولة في سبيل الإصلاح.

والحديث نفسه يُقال عن الإعلام والدوائر الإعلامية، فإنّ نوعية الثقافة والمصالح التي تتحكم في الإعلام والمؤسسات التي تسيّره تقعد به عن التحمس لمشروع التربية الإسلامية وتحقيق أهدافها. ولكن تظل هناك مساحة واسعة يمكن للمفكرين والمثقفين المخلصين الإفادة منها في تمكين جهود الإصلاح الإسلامي الحضاري، والاستفادةِ من وسائل الإعلام والاتصال الإلكترونية التي تعطي للأفراد والمنظمات مجالاً واسعاً من القدرة على الاتصال الحرّ بالجمهور، مخترقة بذلك مختلف أنواع الحدود والحواجز.

وإذا لم يكن من الممكن تجنيد الأنظمة بشكل فعال -في ظل الظروف التي تحكمها- من أجل تفعيل مشروع الإصلاح الإسلامي، فضلاً عن أنّ دعاة الإصلاح التربوي لن يجدوا للأمـة "سيناء" قصيّةً يعزلون فيها جموعاً من صغار الأمـة وناشئتها؛ لكي ينشئوهم التنشئة السليمة التي يتطلعون إليها، كما فعل سيدنا موسى وأخوه هارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ في "سيناء" جزيرة العرب من قبل، وحيث إنّه لم يعد، في عالَم العولمة والاتصال الفضائي والإلكتروني

والنفاث الصاروخي، مكانٌ لأحلام حواجز الحماية الثقافية والجمركية، فإنّه لا بدّ للمشروع الإسلامي من مواجهة الواقع -بكل ما للآخر من تفوق مادي، ومن قدرات الغزو الثقافي الغربي- وجهاً لوجهٍ، ونوعاً لنوعٍ، وقدرةً لقدرةٍ، وثقافةً وحضارةً لثقافةٍ وحضارةٍ، وأن يتم التغيير على الأرض، وفي المجتمع، وتحت أعين الأنظمة، ومناوأة قوى التخلّف التغريبي والتقليدي، الثقافية والفكرية فيها، على حد سواء.

والحلّ الذي يمكن أن يتحقّق في مثل هذه الظروف لا بدّ له من أن يستند إلى دافع ذاتي فطري فعّال، وهو الدافع الوحيد الذي يجعل الإنسان المسلم راغباً في الأداء، وقادراً عليه، وحاملاً "سيناءه" بين جوانحه؛ أياً كان وضعه المادي والاجتماعي، فيعيد به تشكيل ذاته، وتربية أجياله، وتشكيل نفوسهم، وتزويدهم بالطاقة والقدرة الحضارية الإصلاحية الإسلامية التي يُنهضون بها أمتهم، ويقدمون بها نموذجهم وتحديات إصلاحاتهم للحضارة الإنسانية المعاصرة. فما هو ذلك الدافع الفطري؟ وما هو مفتاح تشغيل التغيير في المجتمع؟؟

دافع الفطرة الأبوي مفتاح تشغيل التغيير الاجتماعي:

إنّ طوق الإنقاذ، و"سيناء" عصر العولمة، ودافع المسلم الذاتي، ومفتاح التشغيل من أجل التغيير الإيجابي في الأمة؛ يجب أن ينبع من نفس المسلم ولا يعتمد على أحدٍ إلا على الله ومن ثَمَّ على نفسه ذاتها، دون أمر ولا إذن من النخب المسلوبة الإرادة، ولا من مصالحها المتعارضة. وهذا الطوق والمفتاح والـ"سيناء" إنّما يتمثّل في "الأسرة" محضن الطفل ووجدانه، ومصنع بنائه

النفسي الذي يقوم على دعائم الدافع الذاتي الفطري، دافعِ "الأبوة" أو "الأمومة" الذي يهدف دائماً إلى ما فيه مصلحة الطفل وحده دون سواه، وعلى أساس من المفاهيم الواضحة للآباء ذكوراً وإناثاً، واقتناعهم بما فيه تحقيق مصالح أبنائهم وفلذات أكبادهم.

ودافع الآباء الفطري لما فيه مصلحة الأبناء هو المفتاح الوحيد المتبقي في هذا العصر مُنْطَلقاً فَعَّالاً للإصلاح الثقافي والتربوي الإسلامي. والأمر عندئذ يعتمد على المفكر والتربوي والمصلح المسلم في ذاته ليقوم بواجبه في إمداد الآباء بالثقافة والأدبيات التربوية العلمية الإسلامية السليمة، والوصول إلى تحقيق اقتناع هؤلاء الآباء والأمهات بما فيه مصلحة أبنائهم، وكيفية إعادة تشكيل بنائهم النفسي والوجداني على أسس إسلامية سليمة توفر لهم سعادة الدارين؛ إيماناً وقدرةً وكرامةً.

وإذا شاءت المدرسة أن تؤدّي دوراً مهماً فعالاً في خدمة الأمة، وتطوير نوعية الأجيال وقدراتهم، فبإمكانها أن تقدّم برامج تربوية للآباء، وإعدادهم لأداء دورهم بالقدر المتطور الذي تسمح به ظروف المجتمع، وأن تجعل تثقيف الآباء وتوعيتهم وتزويدهم بالمفاهيم والقدرات اللازمة جزءاً لا يتجزأ من برنامج عمل المدرسة ودورها في المجتمع.

ويستطيع التعليم العالي أن يسهم في هذه المهمة من خلال برامج دراسية إجبارية لمنسوبيه من الشباب تُعِدُّهم لتكوينِ أسر إسلامية ناجحة، والقيام بدورهم في تربية أبنائهم وتوجيههم الوجهة الإسلامية الحضارية السليمة.

إنّ المدارس والجامعات الخاصة الإسلامية هي من المؤسسات القادرة على الإسهام في القيام بهذه المهمة؛ حيث تتضاءل العقبات في قدرتها على رسم البرامج التكميلية التي يجب أن تجعل لمهمة إعداد الآباء (طلاباً وطالبات) لإحسان تربية أبنائهم الأولويةَ الكبرىٰ في خدمة مستقبل الأمة وترقية نوعيتها، ولا سيّما أنّ آباء الأطفال في هذه المدارس عادةً ما يكونون من المثقفين القادرين على القيام بهذه المهمة إذا أحسن توجيههم تربوياً من المنظور العلمي الإسلامي في شكل قراءات ومحاضرات وندوات وورش عمل، ويجب أن يُعَدَّ تفاعل الآباء معها شرطاً من شروط قبول الطالب في هذه المدارس.

دور الوالدين التربوي الوجداني:

إنّ فاعلية كل الأدوار في تربية الطفل والناشئة، في المدرسة والإعلام والمجتمع، إنما يستند إلىٰ موقف الوالدين، فهما اللذان يمنحان كل القوىٰ والمؤسسات الاجتماعية إمكانية الوصول إلىٰ الطفل والتأثير فيه؛ بما يوفران لتلك القوىٰ من المشروعية اللازمـة في ضمير الطفل، إيجاباً أو سلباً، وذلك من خلال القيام بالدور المنوط بهم في الإشراف التربوي الفعال، وتهيئة أبنائهم للوجهة التي يرغبونها، أو بالسلبية والتخلي عن أدوارهم التربوية، وتسليم قيادة أبنائهم لهذه المؤسسات دون حسيب ولا رقيب.

فالأسرة بيدها القوة والمشروعية التي تحدّد نوع التأثير الذي يمكن أن تمارسه المؤسسات وبقية قوىٰ المجتمع علىٰ الطفل، وعلىٰ بنائه النفسي والوجداني، وعلىٰ قدراته المعرفية. والأسرة بمنزلة النظّارة الملونة علىٰ عيني الطفل وبصيرته، يصبغ لونها ما يراه الطفل من الوجود والبيئة. ولا يصبح المهم

في الحقيقة وفي العمق ماذا يسمع الطفل أو يرىٰ، ولكن المهم كيف يفهم الطفل؟ وكيف يعي ويدرك ما يسمع وما يرىٰ؟ ولذلك يختلف الأطفال -فيما وراء قدراتهم الطبيعية- في كثير من توجهاتهم ونوعية معادنهم وسلوكهم، وهم يدرسون في مدرسة واحدة، وفي صحبة دراسية واحدة، وعلىٰ منهج دراسي واحد، وعلىٰ يد مدرس واحد. ويعود السبب في ذلك -في المكان الأول- إلىٰ تأثير الأسرة والبيئة المنـزلية ونوعية الأصدقاء -الذين يجب أن يسهم الآباء في اختيارهم- علىٰ البناء النفسي للطفل وطاقاته وتوجهاته الوجدانية.

قصور التربية والتعليم في الأمة:

وإذا أدركنا أهمية الطفولة والتربية في إحداث التغييرات الجذرية المعرفية والوجدانية، فإنّ أول ما يخطر علىٰ الذهن هو المدرسة والتعليم، وقد يأتي ثانياً تأثير الإعلام، أمّا الأسرة فإنّها تأتي آخراً، ويكاد دورها يقتصر علىٰ مهمة التغذية وتوفير الحاجات والمتطلبات الماديـة للطفل من مأوىٰ وغذاء وكساء.

وإذا قسنا ما يُصرف علىٰ المدارس والتعليم -علىٰ الرغم من ضآلته النسبية في بلدان العالم الإسلامي- وكذلك ما يُنفَق علىٰ الإعلام، مقارنة بما ينفق علىٰ دور الأسرة التربوي، وترقية هذا الدور وتثقيفه وترشيده وتزويده بالمفاهيم والوسائل اللازمـة للأداء التربوي الفعّال، وجدناه لا يكاد يذكر، إذا استثنينا بعض الحديث الإنشائي والوعظي عن أهمية دور الوالدين بصفتهما قدوة للصغار والناشئة، وينتهي الأمر عند ذلك الحد، فلا يقوىٰ الآباء علىٰ تغييـر معادنـهم، ولا يعلمـون كيف يمكنهم، بأساليب عملية، تحسين معادن أبنائهم وصوغها علىٰ غير شاكلتهم، علىٰ الرغم من حرصهم الفطري علىٰ

العمل بكل ما يطيقونه لمصلحة أبنائهم وترقية نوعيتهم.

والمؤسف أنّ تصورات الآباء لمستقبل أبنائهم، في ضوء ثقافتهم وخبراتهم وتجاربهم، متأثّرٌ بالتوجهات المادية الفردية الاستهلاكية المحضة للثقافة الغربية، والمرحلة التي تمرّ بها، وحاجاتها، والمقاصد والتصورات التي تحكمها، مضافاً إليها أمراض عصور تخلّفنا الثقافي. فليس لدىٰ جمهرة الآباء عندنا إلا المزيد من تطلعات الأثرة والأنانية، والحرص علىٰ لقمة العيش والاستهلاك وتكديس الأموال ما سنحت الفرص ومكنت الأحوال. أمّا المجتمع، والنظام العام، والمصلحة العامة، والتضامن الاجتماعي، والإخاء الإسلامي والإنساني، والكرامة الإنسانية، وحقوق الاستخلاف، ومجتمع القانون والقيم والعدل والإحسان ولذة المعرفة والإبداع، فقد أمست قضايا سفسطية بديعية جوفاء المعاني في عالم النفاق والصراع والقهر والظلم والفساد والتبديد والاستبداد.

ولا غرابة في أن نجد المدارس ومؤسسات التعليم والإعلام لا تؤدّي في عالمنا المهمات المرجوة منها في تخريج أجيال الكرامة من المواطنين الأقوياء الأمناء؛ الذين يتمتعون بالقدرة والمبادرة والأداء المتقن المتميّز علىٰ مستوىٰ العصر وتحدياته.

ولو نظرنا إلىٰ مؤسسات التعليم العالي وإسهاماتها في إعداد الكوادر والخبرات التربوية لوجدناها فقيرةً محدودةً تقتصر علىٰ تخريج دفعات المدرسين الذين يفتقدون الوسائل والبرامج والأبحاث والطاقات الفعّالة اللازمة لهم في تعليمهم وتدريبهم. بل إنّ مهانة مكانة المعلّم وتدني مستوىٰ معاشه والخدمات التعليمية المتاحة له تَصرف (الكوادر) المتميّزة عن هذه

المهنـة وعن الانخراط في سلكها، كما تؤثّر سلباً على ولاء الممارسين لها، وعلى الرغبة في إتقان أدائها.

ولو قارنا نسبة ما تستثمره الأمم الحية المتطورة من الموارد على التربية والتعليم إلى مجمل ميزانية مصاريفها وإنتاجها القومي؛ لأدركنا ضآلة ما تصرفه دول العالم الإسلامي في هذا المجال. بل إنّ مجمل نفقات التعليم إنّما تمثّل -عادةً- "بند" رواتب ضئيلة متدنية، تحط من كرامة المعلم، وتدمر ولاءه، وتقتل روح العطاء في نفسه، وتدفعه إلى ممارسات مريضة مرهقة لكي يستخلص ويستكمل بعض دخله من آباء التلاميذ في المحاباة والدروس الخاصة. أمّا ما يتبقى من الموارد المخصصة للتعليم فإنما ينفق على مرافق متهالكة لا تعرف يد التطوير إليها سبيلاً.

ولو نظرنا إلى المناهج ووسائلها التربوية، ومدى تدني وعيها بأهمية البناء النفسي والوجداني للطفل، وملاءمتها للمراحل والتحديات التي يمرّ بها الطفل وتواجهها الأمـة؛ لأدركنا السبب في سوء الأداء التربوي، وتردي الممارسات والمناهج التعليمية التي تقوم على الإرهاق والإرهاب والاستظهار، ويُحرم الطفلُ معها من النمو الوجداني والمعرفي والجسدي، ومن تنمية مهاراته بالمستوى الذي يوفره ويتطلبه العصر، وروح العصر، وتحدياته.

ولو نظرنا إلى الآباء -رجالاً ونساءً- وإلى نصيبهم من الثقافة والتثقيف التربوي لصدمنا بأمية تربوية تكاد تكون مطلقة حتى بين المثقفين منهم، وذلك بسبب فساد خبرتهم في الممارسات التربوية التي نشأوا عليها في الأسرة والمدرسة، وبسبب ضآلة الأدبيات العلمية التربوية الموجهة إلى الآباء، وهي

تكاد تقتصر على الجانب الفقهي القانوني، والجانب الوعظي التقليدي، والترجمات الأجنبية التي لا تتعلّق بعقائدهم وثقافتهم وبيئتهم، ولا تعينهم على بناء الشخصيّة المسلمة، وإتقان الأداء، ومواجهة تحديات العصر.[1]

---

(١) شهدت شخصياً حادثة تصور مدى تخلف بعض العلماء وتبعيته في إدراك دور المرأة والأم في بناء المجتمع والمشاركة الجادة في أدائه، وهو مثل يصور حالات كثيرة من قصور هذا الفكر وتبعيته في مواجهة الكثير من المتغيّرات، وإدراك أبعادها وسبل مواجهتها. فقد كنت أيام الطفولة أستمع إلى المذياع، الذي كان في ذلك الوقت شيئاً جديداً ومثيراً، وكان ذلك صباح الجمعة حين اعتدنا أن نستمع بعد الافتتاح بالقرآن الكريم إلى حديث الصباح الديني، الذي كان يلقيه أحد علماء مكة المشهورين، وكان حديثه في ذلك الصباح عن تعليم المرأة، فسمعت الوالدة رَحِمَهَاٱللَّهُ تقول: "هل تغيّر الدين؟" فسألتها عن سرّ هذا التساؤل، فقالت: "أليس الذي يتحدث هو العالم فلان؟" قلت: "بلى" فقالت: "إنّه هو الذي أفتى قبل ذلك بتحريم تعليم الفتيات الكتابة، لأن ذلك سيكون لكتابة خطابات العشق والغرام"، حتى إنها انصياعاً لفتواه ونصحه أخذت تضرب أصابع ابنتها الكبرى التي كانت قد تعلمت مبادئ الكتابة في الكتّاب في ذلك الوقت حتى تمنعها من الكتابة ومواصلة تعلّمها، ثمّ قالت: "كيف هو اليوم ينصح بتعليم الفتيات ويحض عليه؟" وتساءلَتْ بدهشة واستنكار وألَمٍ إن كان الدين قد تغيّر.

وهناك مثال آخر على العجز المنهجي في توظيف الشمولية والتحليلية بهدف إدراك المتغيّرات وتمكين الأمة من القدرة على التعامل مع التحديات، وهو قضية ما يُسمّى بالتصوير الشمسي، الذي أصرّ على تحريمه رجال الفتوى لأمدٍ طويل، وما يزال كثير منهم يصرون حتى اليوم على تحريمه. فمَن أباحه فمن منطلق أنّه ليس عملاً يقوم به الإنسان مضاهاة لخلق الله، ولكنّه حبس للظل! ولا أدري لماذا يبيح الإنسان لنفسه القيام بعمل يؤدي إلى صنع صورة من ظل الكائن الحي، فإن نقل الشيء نفسه ولكن بمهارة يده كان محرماً!

فإذا أدركنا أنّ صور الحاسوب الآن ليست حبساً للظل؛ أدركنا أنّ الفتوى تأخرت وما عادت تحلّ الإشكال في تمكين المسلم من استخدام وسائل العصر.

والجواب الصحيح -كما أراه- يكمن في استخدام المنهجية الشمولية التحليلية، لأنّنا لو نظرنا إلى الموضوع من ناحية الجوهر لأدركنا أنّ حكمة منع التصوير في العصور الماضية تكمن في محاربة الدينية الوثنية. أمّا بعد الثورة الصناعية العلمية التقنية واختراع التصوير الشمسي =

أهمية أدبيات الأبوَّة التربوية:

وأهم هذه الحلقات في سلسلة أسباب الإصلاح التي يجب أن يوجه المفكرون والمثقفون اهتمامهم إليها هي حلقة الأسرة والأبوة: آباءً وأمهاتٍ. ولهذا الأمر أسبابٌ عدّة:

أ- إنّ للأسرة أهمية قصوىٰ في تشكيل نفسية الطفل وعقليته وتكييف استعداداته؛ لأنّها المنشأ والمحضن والملاذ لنشأة الطفل: فعلىٰ أساس رؤيتها ومحيطها وتوجيهها -إيجاباً وسلباً- يُكوِّن الطفل طبيعةَ مفاهيمه ورؤيته.

ب- دافع الوالدين اللذين يحرصان بالدرجة الأولىٰ، وبدافع الفطرة، علىٰ تحقيق مصالح الأبناء، وترقية نوعية حياتهم ومستوىٰ أدائهم. فدور الوالدين والأسرة من أهم الأدوار التي تحدّد مدىٰ تأثير بقية الأدوار والمؤسسات التعليمية والتربوية لدىٰ الطفل، وهو الذي يوجه ويعدل مسارَ تأثير تلك المؤسسات وفاعليتها.

ت- إنّ المفكر والكاتب والمصلح قادرون علىٰ الحديث والخطاب إلىٰ الوالدين، وتكلفة ذلك في متناول اليد، ويعين عليه فطرة الآباء

= والصور الإلكترونية فقد غدت ذات غايات علمية تعليمية إعلامية تقنية، ولا تمت إلىٰ ما جاء من الأمر والنهي النبوي بشأنها إلا بمشابهة لغوية. فاللفظ الذي أطلق علىٰ الأهداف الدينية أطلق هو ذاته علىٰ الأهداف العلمية التعليمية التقنية، كما هو الحال في حالات أخرىٰ كثيرة؛كلفظ "السيارة" في القرآن الكريم الذي يعني قوافل نقل التجارة، ولكنّه اليوم يطلق علىٰ عربات النقل ذات الحركة الذاتية، فلا يجمع بين "سيارة الماضِي" و "سيارة الحاضر" إلا اللفظ وعموم معنىٰ الحركة والنقل.

والأمهات في السعي لما يظنون أنّ فيه مصلحة أبنائهم، وبذل الجهد للحصول عليه، على عكس بقية الأطراف والمؤسسات التي لها مصالحها وتوجهاتها الخاصة؛ فهي تحرص على بقاء الأمر الواقع واستقراره، وأيّ تغيير إنّما يجب أن يتم في إطار الحفاظ على الوضع القائم؛ لصيانته وعدم الإخلال بتوازناته المعقدة، وبمصالح المتنفذين في المجتمع، وإنّ أيّ تغيير من قِبَلِ المؤسسات إنّما يتمُّ للحفاظ على هذه المؤسسات وعلى الأوضاع القائمة، وهي على أفضل الوجوه تستجيب لمطالب التغييرات الأساسية من جمهور الأمة، ولكنّها بكل تأكيد ليست هي الجهات التي تبدأ بالتغيير أو تبادر به وتفجِّر طاقاته. لذلك يجب أن يهتم المفكرون والمصلحون بالأسرة من قبل المفكرين والمصلحين، وبدورها التربوي، وإنتاج الأدبيات اللازمة المقْنِعة والعملية لتوعية الآباء والأمهات، وتعليمهم كيف يكونون قادرين على أداء دورهم التربوي على أسس علمية صحيحة مجرَّبة، وعلى قواعد الثوابت القيمية والثقافية والوجدانية الإسلامية السليمة.

يجب النظر إلى الأسرة والأبوَّة والأمومة على أنّها "سيناء" الأمة والعصر؛ إذ إن المفكرين والمربين من رسل الإصلاح الحضاري الإسلامي، يستطيعون -بالجدّ والإخلاص المبنيّين على العلم والدراية- أن يخاطبوا الآباء والأمهات؛ لكونهم أهم الأطراف المعنية بتربية الطفل، مباشرة، ودون حواجز، وبأقل التكاليف.

وفي حياة جيلنا نماذج وصور كثيرة توضِّح كيف أمكن للآباء والأمهات أن يتخطوا بأبنائهم تلك الحواجز، وأن يقفزوا بهم قفزات حضارية واسعة في مدىٰ جيل واحد؛ لأنّهم تعرضوا لمفاهيم وتصوراتٍ أقنعتهم بقيمة التغيير المطلوب، وقُدّمت لهم المعلومات والخبرات المطلوبة.

وباقتناع الآباء والأمهات يتصاعد التأثير والضغط العملي علىٰ مختلف المؤسسات الاجتماعية التربوية والتعليمية، لتحسين مستوىٰ أدائها وتجاوبها مع كثير من تطلعاتهم، ممّا يسهم في تحسين أداء هذه المؤسسات في تربية الأجيال.

والحب والحنان والرعاية والأمن شروط أساسية لنجاح الجهد العلمي التربوي واستخدام طاقة الحب في التوجيه الإيجابي للطفل. فحبُّ الوالدين وحنانهما يولّدان مشاعر الحبِّ والتعلّق والتطلّع لدىٰ الطفل نحو والديه، وكما أن علاقة الحب من قِبَلِ الوالدين تنتج العنايةَ والرعايةَ التي يمنحانها للطفل، فإنّ علاقة الحب من قِبَلِ الطفل لوالديه تولّد لديه الرغبة في الاستجابة لتوجيهاتهما وخشية إغضابهما. وطاقة الحبِّ هذه بشقيها، الإيجابي: وهو الرغبة في كسب حب الوالدين، والسلبي: وهو الخشية أو الخوف الإيجابي من خسران حبهما وثقتهما وإعجابهما به، تدفعه إلىٰ الاستجابة والاجتهاد لإرضائهما، وبذل الجهد وتوليد الطاقة ليكون عند حسن ظنهما.

ولذلك يجب أن نبثَّ الوعي لدىٰ الأزواج، وأن نهيّئهم لفهم أدوارهم الإيجابية، وبناء علاقتهم علىٰ التواد والتراحم فيما بينهم أولاً، إذا ما أرادوا لهذه الصفات أن تكون من صفات أبنائهم، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والبيت

المفكك المهدم المبني على الازدراء والتنازع والتربص والكراهية هو محضن لا يُؤْمَلُ منه أن يحسن تربية صغاره، وأن يوفر لهم البيئـة التي تنمّي في نفوسهم ووجدانهم معاني الخير والبذل والمبادرة والإبداع. بل إنّ مثل هذه البيئـة هي المرتع الخصب للكراهية والأحقاد والشر والفساد الذي يسوق إلى الانحراف والجريمة والحقد على المجتمع.

كما يجب أن تكون هذه التوعية وهذا الاهتمام بأدبيات بناء الأسرة جزءاً مهماً من جهود المفكرين والإصلاحيين، وفي برامج التربية والتوعية والتعليم في الأمة؛ بحيث لا تكون هناك أمّية بقواعد علاقات الأسرة ومسؤولياتها وفهمها والاقتناع بها على أسس علمية. ومن ذلك تقديم برامج دراسية تتعلق بها، ابتداءً من مناهج المدارس الثانوية، مع تقديم مساقات جامعية خاصة متعلّقة بتكوين الأسرة وعلاقاتها، إعداداً للشباب لحياة أسرية تربوية ناجحة، تعتمد على الأدبيات العلمية التي ينتجها المفكرون والمتخصصون ومراكز البحث العلمي.

وبالطبع فإنّ عواطف الحبِّ وحدها، وبذل العناية بالطفل دون معرفة للسنن النفسية والاجتماعية على أسس علمية مدروسة، لا يضمن حسن التربية والنجاح فيها، بل إنّ الحبَّ الجاهل قد يؤذي أطرافه أشد الضرر إذا أدّى إلى التدليل المفرط الذي يولّد العجز والأنانية، وما يترتب عليهما من تشويه في قدرات الناشئ ومشاعره ومعاناته التي تدفعه في نهاية المطاف إلى التمرد والفساد والجريمة.

فاعلية المعرفة التربوية: تجربة أُسَريّة:

لعل من المفيد أن أورد مثالاً لدرس تربوي خبرته شخصياً يوضِّح كيف أنّ المربي الذي يسعىٰ إلىٰ أن يتحلّىٰ أبناؤه بالصفات الحميدة يجد في الأساليب التربوية عوناً مهماً لـه في تحقيق أهدافه، وتجنيب صغاره كثيراً من الأخطاء وسيِّء العادات. ومن دون الفهم والتواصل التربوي لن تؤدي القدوة وحدها الأثر المطلوب، فإنّ كثيراً ممّن هم في ذاتهم قدوة في سلوكهم وطبائع نفوسهم يكونون غير متواصلين تربوياً مع أبنائهم، مما يفسّر انحراف كثيرٍ من أبناء هؤلاء الآباء الذين لم يشفع لهم صلاحهم في حسن تربية أبنائهم وسلامة توجهاتهم.

أذكر مشهداً بين الوالدة رَحِمَهَاٱللَّهُ وأخي الصغير حين دخل البيت مرةً وهو يتلعثم بالانفعال، لأنّه لم يجد الكلمات المناسبة ليعبّر عن أحاسيس فرحته بما تحمله يداه الصغيرتان. فقد كان يحمل "محمصة" مزركشة المقبض، من تلك التي يُحمّص بها البنّ لإعداد القهوة العربية، وقد وجدها ملقاة في عرض الطريق الضيق أمام الدار، ولعلها ممّا سقط من متاع بعض المارة من عرب الجزيرة الوافدين إلىٰ مكة، الذين يكثر مرورهم في ذلك الطريق. واستقبلت الأم الطفلَ وأنا أنظر إليها مترقباً ما عساها أن تفعل بهذه "اللقية"، ولدهشتي رأيتها تحمل الطفل في رفق علىٰ ذراعها ومعه "المحمصة" في يده، وترفع يده ليلقيَ بها إلىٰ الطريق ثانيةً وهي توضِّح لـه أنّ هذه المحمصة ليست لنا فلا نأخذها، ومن الواضح أنّ قصدها كان هو ألا يتعوّد ابنها أن يأتي إلىٰ الدار بما ليس لنا.

حين أمعنت النظر في هذا الدرس أدركت أنّ مثل ذلك الطفل لن يمدّ يده بعد ذلك إلىٰ ما ليس له، وسوف يستقر في قرارة نفسه -وبلغة تربوية

أولىٰ- عدم التطلّع إلىٰ مال سواه، ولو كان ملقىً علىٰ قارعـة الطريق. وكم من طفل تحوّل إلىٰ سارق حين مدّ يده الصغيرة إلىٰ مال الآخرين وعاد بأسلابه الوضيعة إلىٰ الدار؛ حيث يجد الفرحة بغنيمته مع تصديق جميع أكاذيبه؛ فتأنسَ نفسُه، ويتعوّد -ببراءة- عادةَ السرقة والكذب، بسبب جهل الأهل وغفلتهم، وعدم متابعتهم لسلوك أبنائهم ونشاطاتهم.

ولم يخفَ عن الابن أنّ جوّ المحبة والوفاق والرعاية والأمن في داره كان خلف الاستجابة التي مكنت الوالدين من أن يؤثّرا -بالحسنىٰ- في نفوس صغار الدار، الذين كانوا يأنسون إلىٰ جوار والديهم ومراتع دارهم، بعيداً عن صحبة الأشرار ونفوذ جلساء السوء، وأمكنهم أن يعبُروا بأبنائهم في جيل واحد قروناً حضارية تدل علىٰ ما للأساليب التربوية من قدرة علىٰ الإصلاح والتغيير.

ولأنّني أعلم تربوياً أنّ الطفل يهمه دائماً أن يعلم رأي والديه فيما يعنُّ لـه من أفكار، وما يثور لديه من تساؤلات، وما يواجهه من مواقف، فإنّني كنت أحرص -ما استطعت- علىٰ أن أكون مع الأطفال وهم يشاهدون برامج التلفزيون. وكان أهم دور أقوم به حين ألحظ رسالة سلبية يبثّها مشهدٌ من هذه البرامج أن أقوم بتعليق عابر قصير محدّد، وبأسلوبٍ مناسبٍ، ليكشف زيف الرسالة، ويردّ عليها، ويصحّح مغالطاتها، دون أن يحرم الأطفال من متعة المتابعة والاستمتاع بحبكة القصة أو البرنامج. وإذا كان لابدّ من مزيدٍ من التعقيب والمناقشة فيتم ذلك بعد البرنامج، وبأسلوبِ حوارٍ مفتوحٍ لمناقشةِ أهم ما فيه بهدف التوضيح والتصحيح، وتعريف الطفل بوجهة نظر والديه، وترك الأمر يدور في رأس الطفل حتىٰ يتسرّب إلىٰ أعماقه بهدوء وطمأنينة.

وقد كان لذلك الأسلوب من خلال تجربتي أثرٌ فعَّـالٌ في مقاومة كثير من الآثار السلبية للبرامج التلفزيونية. وعلى المربين أن يزوّدوا الآباء بكثير من النصائح التربوية لحسن التعامل العملي الفعَّـال مع ما يواجهونه من مواقف تربوية في حياة الطفل، ومع ما يجدونه من مواقف وتحدياتٍ لن يكون آخرها تحديات البثّ الإلكتروني (الإنترنت) وبرامج (الكمبيوتر).

إنّ أهم عناصر المشروع التربوي الذي يدعو إليه هذا الكتاب هو تكريس جزء مهم من جهود المفكرين والتربويين والإصلاحيين الإسلاميين، وتوفير الدعم المعنوي للدراسات العلمية التي توجه الخطاب العلمي الإسلامي المقنع المؤثر إلى الآباء والأمهات، وتثقيفهم تربوياً، وتعريفهم وجوهَ التشوه الثقافي والقصور التربوي، وأثر ذلك في بناء أبنائهم وأمتهم، دينياً ونفسياً ومعرفياً وحضارياً، وتبصيرهم بالمعلومات والطرق والوسائل التي تمكّنهم من أداء أدوارهم في تربية أبنائهم، ورعاية نموهم، واستقامة بنائهم النفسي والوجداني والمعرفي، حيث تنطلق طاقات الحبِّ والعدل والبذل والصبر الذي تمتلئ به جوانح الوالدين الفطريـة نحو أبنائهم.

ومن العار أن نجد مكتبات الأمم تمتلئ بالمئات والألوف من الكتب والأبحاث العلمية التربوية التي تبصِّر الآباء والأمهات بالوسائل الثقافية التربوية التي تعينهم على القيام بأدوارهم في تربية الأبناء، فيما نجد المكتبة الإسلامية في شؤون الأسرة والتربية تكاد تكون خِلْواً من الكتب والأبحاث العلمية الجادة، وأنّ جُلَّ ما يتصدرها، من النـزر اليسير من الكتب، لا يعدو أن يكون مكرورَ خطاباتٍ وعظيةٍ سلطويةٍ، أو كتبَ قانونياتٍ وفقهياتٍ تتعلّق

بأحكام عقود الزواج وأحكام الطلاق، والوصاية علىٰ الأطفال، وتقسيم التركات، وجُلُّها أمور لا تتعلّق بجوهر التربية والعلاقات الإنسانية، ولا تقدِّم علماً سننياً، ولا دراية علمية ثقافية تربوية، وهي أمور لا حاجة للعامة إلىٰ أن يتعلموا تفاصيلها الدقيقة، لأنّ المأذون والقاضي والحاكم سوف يتولون تفاصيلها عند الحاجة إليها، ويقومون -حينذاك- بإجراءاتها، وإصدار الأحكام اللازمة فيها.

إنّ المعالجات والثقافة المطلوبة التي يجب إنتاجها من أجل ترقية شؤون الأسرة والتربية والتعليم وتطويرها يجب أن تستمرّ في سيلٍ لا ينقطع من دراساتٍ وأبحاث وتجارب، ومتابعاتٍ للتحديات، ولمتغيّرات العلاقات والظروف والإمكانات، ولمستجدات المعارف والمعلومات، بما في ذلك الدراسات النفسية، ودراسات الدماغ البشري، والجينات، وسواها من مجالات المعرفة المتفجرة التي تمتد إلىٰ آفاق واسعة جديدة في معرفة أسرار فطرة النفوس والكائنات.

المعلم رديف الأسرة:

وإذا كان الدافع الفطري لدىٰ الآباء في الحرص علىٰ مصالح أبنائهم وتوفير ما فيه مصلحتهم هو الأساس الأول المكين، الذي يجب أن يستند إليه كل جهد جادّ لإصلاح معدن الإنسان المسلم، فإنّ المعلم صاحب دورٍ مهم في ذلك أيضاً؛ لكونه الداعمَ والرديفَ الميداني الأول لدور الأسرة في التربية؛ ولأنّه العنصر الذي يَكِل إليه المجتمع أمر تعليم الصغار، ورعايتهم، وتوجيههم، وتنمية قدرات الناشئة، وصقل مواهبهم.

ولثقافة المعلم ومناهجه التربوية والوسائل المتاحة لـديه أهمية كبرىٰ في تنمية الطفل معرفياً ووجدانياً. وكلما توافقت مفاهيم الآباء والمعلمين، وتناسقت جهودهم، كانت الجهود أكثر فاعلية، والنتائج أكثر إيجابية.

وجُلُّ الأخطاء وأوجه القصور في أداء المعلمين والمدارس وخطط التربية والتعليم في كثير من البلاد "النامية" ليس ناتجاً بالضرورة من سوء تدبيرٍ أو سوء قصد، بقدر ما هو ناجم عن قصورٍ في الأداء، ومتابعةٍ تغريبيةٍ عمياء في بناء الخطط والمساقات والبرامج والنشاطات التعليمية.

إنّ الاهتمام بقضايا المعلم وإعداده ورعايته، وكذلك الاهتمام بقضايا التعليم العام ومناهجه ووسائله ووجوه القصور فيه، يضع هذه القضية أمام الأمة، ويعين كثيراً علىٰ تصحيح منظور الجهات المسؤولة عن التربية والتعليم التي لن تجد -في كثير من الحالات- غضاضةً في إصلاح كثير منها، وفي الاستثمار من خلالها في الأجيال القادمة، بأسلوب تربوي متوازن، ولا سيما إذا لمستْ الأمةُ آثار هذه الإصلاحات والمناهج في تنمية القدرات الناشئة وتحسين أدائها.

إنّ المعلّم مثل الوالد في حرصه علىٰ مصلحة الطفل، وعلىٰ النجاح في مهمته، ولن يستطيع أن يؤدي دوره إلا إذا تـمّت توعيته، وتحسّنت ظروفه المعيشية ومكانته الاجتماعية، ودُعِمَ دوره التربوي بالأبحاث التربوية العلمية، وبالكتب والمواد المدرسية المنهجية الفعالة المتطورة. والمفكرون، والمؤسسات التربوية الرسمية وغير الرسمية، وجهود المصلحين، يمكنها أيضاً أن تسهم بنصيب وافر في دعم المعلم وتطوير فكره ووسائله التربوية.

خطاب القداسة الديني: العلاقة بين المعرفي والوجداني:

إن المعلومات لن تنتهي بدفقها وتجددها، ولن يتوقف طلب المزيد منها، وإعادة النظر والتطوير فيها، ما دامت الحياة تجري في عروق البشر. فالمعرفة تُطلب وتتجدد من المهد إلىٰ اللحد. أمّا الجوانب الوجدانية النفسية التربوية فلها أوانها ومداها من مراحل العمر والنمو الإنساني الذي لا تتعداه، ولذلك يجب أن يكون الوجداني النفسي هو الأساس الذي يُبنىٰ عليه نوع المعرفي وأسلوب تعليمه، حتىٰ في مجال تعليم العقيدة والقيم والأخلاق.

إن كل ما يقدَّم إلىٰ الطفل من علوم ومعارف -حتىٰ في مجال تعليم القرآن الكريم- يجب ملاحظة آثاره علىٰ تكوين العقلية والبناء النفسي والوجداني للطفل، وفي كل مرحلة من مراحل طفولته، إذ إنه لكل مقام مقال".

ولعل من أهم المجالات التي يجب أن نوضح فيها علاقة المعرفي بالوجداني، وملاحظة التأثير المتبادل بينهما، هو مجال التعليم الديني -بما في ذلك تعليم القرآن الكريم للطفل- حيث درجت المناهج التقليدية علىٰ تعليم القرآن الكريم بشكل عفوي عشوائي، وهم يبدؤون بتعليم الصغير منذ نعومة أظفاره قراءة الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، واستظهاره، ولعل ذلك بسبب الظن أنّ قصارَ السور أيسرُ حفظاً من طوال السور، ولأن جُلَّ موضوع تلك السور المكية هو الغيب والعقيدة،[1] وهذا المنهج -في رأينا- يجب تصحيحه

(١) يبلغ عدد سور الجزء الثلاثين سبعاً وثلاثين سورة، كلها مكي إلا ثلاث سور، هي: سورة النصر، والزلزلة، والبيّنة، والآيات الثلاث الأولىٰ من سورة الماعون. انظر:

- مخلوف، حسنين. **صفوة البيان لمعاني القرآن**، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، ط٣، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م.

وتقديم القرآن الكريم للطفل علىٰ أسس منهجية علمية تربوية.

فالجزء الثلاثون هو خطاب إلهي، يغلب عليه خطاب الكفار الجبابرة والجاحدين المنكرين، وما يتوعدهم من الهوان والعذاب وسوء المصير، بكل ما تحمله اللغة من قوة وبلاغة في التهديد والوعيد، داعياً هؤلاء المستكبرين إلىٰ إدراك حقيقة حالهم وسوء مآلهم. وهو خطاب يناسب حال البالغين المستكبرين لكي يحمِّلهم مسؤولياتهم، ويبصرهم بعواقب أمرهم، ويعيدهم إلىٰ صوابهم ورشدهم. ولن يكون من آثار هذا الخطاب للبالغين أن يحيلهم إلىٰ رجال جبناء، ولن يقوِّض بناء نفوسهم ويقضي علىٰ مكامن القوة والشجاعة فيهم، لكنه يبصرهم ويرشدهم ويلزمهم الحجة، ويدعوهم لإمعان النظر، والتفكر والتدبر، وحساب العواقب، وترشيد الخيار.

ولكنّ الخطاب ذاته، إذا وُجِّهَ إلىٰ الطفل الصغير أخضر العود صغير السن، لن يكون له الأثر نفسه، لأنّ الصغير ليس في حاجة إلىٰ التهديد والوعيد. فلو أخطأنا وخاطبناه بما خاطب به القرآن الكريم الجاحدين المنكرين فإنّ الأثر النفسي والوجداني -في حالة الصغير البريء- مختلف ومدمر لبنائه النفسي، لأنّه يشيع فيه الخوف والرعب، ويميت فيه القوة والشجاعة، ويجعل الحياة أمامه مفازة يخشاها، ويقف منها موقفاً سلبياً، فيتحرك لا بروح الاستخلاف، ولكن بروح الخوف وغريزة البقاء، ولا يمكن أن تنمو في نفس الخائف المروع ملكة إبداع ولا قدرة عطاء، ولا ينتظر أن تُبنىٰ علاقته بالله وبالحياة وباليوم الآخر علىٰ مشاعر الحب والأشواق والطاقات الإيجابية.

ولعل ذلك يفسّر -إلىٰ حدّ كبير- سلبية النفس المسلمة في عصور الانحطاط، حيث ضعفت فيها محبة الله، وتوارت جدية الحياة، ولا ترىٰ مثل هذه النفوس في صورة الدار الآخرة إلا أنها سعير جهنم، برغم أنّ مصير المسلم -يرحمة الله- إلىٰ الجنة، "وإن زنىٰ وإن سرق؛"[1] لأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحاسب الناس علىٰ كلّيات أعمالهم، وليس علىٰ ما يرتكبون من الأخطاء فقط، فيؤتىٰ بحسناتهم وسيئاتهم، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود:١١٤]. وجُلُّ الناس يَغلبُ الخيرُ علىٰ الشر في حياتهم ونفوسهم، فلا غرابة إن سيطرت مشاعر الخوف والوجل في عصور التخلّف علىٰ أكثر نفوس المسلمين في كل شيء؛ لأنّهم لم يدركوا آثار الخطاب التربوي الخاطئ الموجه إلىٰ المسلم، ولا سيّما الطفلُ، والمبني علىٰ التخويف والإرهاب والعقاب، وليس علىٰ الحبِّ والمودة والاحترام والثقة والتشجيع والتبصير وتحمّل المسؤوليات والأمانات.

وعلىٰ المربي -علىٰ أساسٍ من هدي الخطاب النبوي للطفولة، والبحث العلمي التربوي المبني علىٰ أساس الرؤية القرآنية وقيمها ومقاصدها- أن يقدِّم للطفل الاختيارات القرآنية التي تناسب طبيعته في المراحل النفسية التي يمرّ بها، بما يقربه من الله، وينمّي في نفسه مشاعر الحبِّ الإيجابية، ويحبب إليه

---

(١) روىٰ أحمد في مسنده، أنّ أبا الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: "قال رسول الله ﷺ: من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له دخل الجنة. قال: قلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟ قال: وإن زنىٰ وإن سرق. قلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟ قال: وإن زنىٰ وإن سرق. قلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟ قال: وإن زنىٰ وإن سرق علىٰ رغم أنف أبي الدرداء". انظر:

- الشيباني. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٤٥، ص٤٨٣، حديث رقم: ٢٧٤٩١.

قيم الإسلام وغاياته، حتى إذا بلغ مرحلة التمييز شجعناه -عن طريق الاختيارات القرآنية المناسبة- على تحرِّي الخير والصواب، والبُعد عن الشر والأذى، وغرسنا في نفسه المبادئ والقيم، وفي الوقت نفسه نزيل من ذاته الغضة الخوفَ والفزع حين الوقوع في أخطائه الصغيرة، كبعض الكذب، وإيذاء الأخدان، ومثالب حبِّ الاستطلاع؛ وبذلك نفتح أمامه -بالاختيارات القرآنية المناسبة- سبلَ مراجعة النفس، والبُعد عن الخطأ، وتهذيب الذات بمعاني التوبة والغفران والرحمة الإلهية، فلا يحسّ بالإحباط الذي يقود إلى الهروب النفسي والاستسلام للأخطاء والانسياق فيها.

فإذا بلغ الطفل مبلغ الرجال وُضِع -بالاختيارات القرآنية المناسبة- أمام مسؤولياته، وبُصِّر بعواقب أفعاله، كما وُضِع رجال العرب الأحرار الأقوياء من أصحاب رسول الله -وقد آمنوا رجالاً- أمام مسؤولياتهم، وبُصِّروا بعواقب أفعالهم، فحملوا مسؤولياتهم الجسام بقوة معادن نفوسهم الشجاعة القوية غير الهيابة، والصفاء الذي نُشِّئوا عليه في نعومة أظفارهم.

إنّ الإصلاح الثقافي التربوي يجب أن يمتد إلى كل جوانب التكوين المعرفي والنفسي والوجداني للطفل والناشئة، وأن يوظف لخدمة التكوين السليم لعقلية الطفل ونفسيته. والجانب الديني والعقدي هو من أهم هذه المكونات، ويجب أن يكون الخطاب النبوي الودود، على أساس من التدبر والفهم العلمي السنني، هو الدليل والأساس في بناء المناهج التربوية المعرفية والنفسية والوجدانية للطفولة.

علينا أن ندرك علاقة المعرفي بالوجداني والنفسي فيما نعلِّم للطفل حتىٰ حين نعلّمه القرآن الكريم الذي لا أظن أننا اتّبعنا في تعليمه المنهج التربوي السليم في اختيار ما يناسب كل مرحلة من مراحل نمو الطفل وبنائه النفسي، فنبدأ بمحبة الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ومحبة دينه وأمته والتعلق بربه وعقيدته، وحسن فهمها، ونتدرج به إلىٰ المراحل التي يصلب فيها عوده وينضج، ليدرك مسؤولياته وعواقب أفعاله تجاه نفسه وأمته؛ فيخاطَب خطاب المسؤولية والتبصير بها، ويرشَد -في نصحٍ وحدبٍ- إلىٰ ما يترتب علىٰ أفعاله من العواقب والمسؤوليات.

وينطبق هذا المفهوم التربوي، الذي يراعي الآثار الوجدانية، علىٰ كل ما يقدّم للطفل من فكر وثقافة ومعارف، بما يناسب كل مرحلة من مراحل نموه، لا فرق بين فئة وأخرىٰ، وصفوة وعامة، فالجميع إخوة، وهم جند الأمة المسلمة القوية الكريمة.

إنّ علىٰ فئات الأمة كافة؛ مفكرينَ ومصلحينَ، آباءً وأمهاتٍ، مربين ومعلّمين، أفراداً ومؤسساتٍ، أن يولوا شؤون التربية والتعليم الأولويةَ والأهميةَ والجهدَ المطلوب لهذا المجال المهم، وأن يعيدوا بناء قواعد كيان الأمة، وتفجير طاقتها في طفولة أبنائها، وتنمية مواردها البشرية علىٰ أسس معرفية ووجدانية إسلامية علمية سليمة.

وحتىٰ يتحوّل القولُ إلىٰ عمل، والفكرُ إلىٰ فعل، يجب البدء بوضع خطط عمل جادة شاملة، تتعاون فيها كل الأيدي المخلصة؛ لاستنبات جيل الإيمان والقدرة والعزة والإصلاح.

الفصل السادس:

خطة العمل

أولاً: جبهات العمل

الأصل في كل خطة عمل أن تكون متعددة الأبعاد، وأن يتم العمل فيها علىٰ عدّة جبهات تتوازىٰ وتتكامل وتتناسق؛ حتىٰ تؤتي في نهاية المطاف ثمارها المرجوة. والغاية من هذه الخطة بشأن الطفولة هي التغيير النفسي والوجداني حتىٰ تصبح النفس المسلمة قوية، مؤثرة، وبنّاءة مبدعة، وهي إعادة بناء العقلية المسلمة لتكون عقلية سليمة مؤمنة، وقوية علمية جادّة.

وحتىٰ يتم ذلك لا بدّ لنا من استعادة الرؤية الإسلامية الكونية القرآنية لعهد الرسالة، وذلك بواسطة التنقية الثقافية ممّا أصاب الرؤية والثقافة الإسلامية في عصور التمزق والاستبداد، وعن طريق استعادة الخطاب التربوي النبوي للناشئة ليكون أساساً للإصلاح التربوي: الذي يغرس بذرة الإصلاح المعرفي والوجداني في تربة الطفولة علىٰ أساس مكين، ويعيد إلىٰ الأمة هذا "البُعد الغائب" في مشروع الإصلاح الإسلامي الحضاري.

توعية المثقفين والمفكرين:

والخطوة الأولىٰ في هذه الخطة هي التوعية بطبيعـة المشكلة وأبعادها الثقافية التاريخية. فعلىٰ الرغم من الإخلاص الهائل الذي تحلّىٰ ويتحلّىٰ به كثير من المثقفين والمفكرين، والجهود الكثيرة المرهقة التي بذلت علىٰ مدىٰ القرون ضمن الظروف والتحديات التي أحاطت بالأمة، فإنّ تلك الجهود ظلت

محدودة الأثر، ولم تؤتِ ثمارها وتحقق غاياتها في استعادة طاقة الأمة وقدراتها؛ لافتقارها إلى النظرة الشمولية، وتغييب دور العقل السنني الصحيح في النظر والبحث والدرس النفسي الاجتماعي، بسبب ما تسرّب إلى العقل المسلم من الفكر الميتافيزيقي الصوري الإغريقي الذي سيطر على فكر الأمة وآفاقها المعرفية، إلى جانب عنف الصراع السياسي الذي اضطر إليه كثير من العلماء في مواجهة الصفوة السياسية المستبدة، دفاعاً عن المقدسات والمواقع، وحفاظاً على الموروث الذي ما زالت آثاره -حتى اليوم- تسيطر على الفكر الديني التقليدي، وتوهن البناء النفسي والطاقة الوجدانية للأمة.

وإذا نجحت التوعية في توجيه قدر مناسب من اهتمام المفكرين والتربويين والإصلاحيين إلى أهمية الطفل والأسرة تربوياً، وبذلِ الجهد اللازم للتنقية الثقافية وتطوير المفاهيم والوسائل التربوية، وتكثيف الدراسات الجادة في هذه المجالات، وإصدار الأدبيات المطلوبة، فإنّ إحداث التغيير في جيل واحدٍ أمرٌ ممكنٌ، وهو ما برهنه النهج التربوي الذي اتبعه سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في تحرير المستعبدين من بني إسرائيل،[1] وكما قدّمه النهج الذي مثّله الخطاب والقدوة

(١) من المهم أن نلاحظ الفرق بين طبيعة القوم الذين أُرسل إليهم سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والقوم الذين حملوا رسالة الإسلام المحمدية إلى الأمم، وأثر ذلك في النهج الذي أخذ به سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في التعامل مع قومه، والخطاب الذي وجهه الرسول ﷺ إلى قومه، ودلالة ذلك في النهج والخطاب المطلوب لخطاب الشعوب المسلمة. فسيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسل إلى بني إسرائيل الذين استعبدوا في مصر وكانوا كالخيل المعطوبة التي يرجى نسلها؛ فكان نهجه كما أمره الله هو تنشئة جيل حرّ كريم شجاع في "تيه سيناء" على مدى أربعين عاماً. أمّا سيدنا محمد ﷺ فقد كان قومه العرب الذين كان لهم شرف حمل الرسالة إلى العالمين، وقد كانوا قبائل بدوية حرّة كريمة لم يذل أعناقها قياصرةٌ ولا أكاسرةٌ، ولذلك أخذهم الرسول ﷺ بخطاب التبشير والمسؤولية للمؤمنين، =

النبوية المحمدية في تربية النشء، إلىٰ جانب ما أثبتته التجارب الحية للأمم المعاصرة، وما يعرفه كثيرٌ منّا في أنفسنا من تغيير كبير حدث في المفاهيم والمعارف، وفي غضون جيل واحد فقط هو جيلنا، ممّا يدل علىٰ أنّ مثله وأكثر منه عمقاً ومجالاً يمكن أن يحدث في عمر جيل واحد من بعدنا؛ إن نحن جَدَدْنا واجتهدْنا خلال الأربعين أو الخمسين عاماً القادمة بإذن الله.

تنمية الفكر الإسلامي الاجتماعي الناقد:

لقد بُذِلَتْ جهودٌ، وقُدِّمتْ أطروحاتٌ كثيرةٌ، بغرض الإصلاح الفكري، والتكامل المعرفي بين هداية الوحي وآيات الكتاب من ناحية، ونظر العقل وآيات الكون والحفاظ علىٰ الثوابت وتفعيل المتغيّر من ناحية أخرىٰ. ولكنّ عزلة أهل العلم المدرسية، وممارساتهم العلمية الدراسية التقليدية، جعلت تربة الثقافة والفكر الإسلامي لا تعين علىٰ النمو والتفعيل حتىٰ اليوم، ودون أن يشعر بخطر ذلك -مع كل الإخلاص وحسن النية- كثيرٌ من أهل الصنعة ومن المصلحين ومن عامة الناس.

= والإنذار والوعيد للمعاندين والجاحدين والمناوئين، فحملوا الرسالة بقوة وأمانة ورفعوا راية الإسلام وأقاموا قواعد حضارته. وحين أذلت الملوك والسلاطين أعناق الشعوب الإسلامية كانت صحوتها الثانية علىٰ يد قبائل الأتراك الحرّة الشجاعة التي دخلت الإسلام وأقامت الدولة العثمانية. واليوم فإنّ النهج التربوي الذي أخذ به سيدنا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو النحو الذي ينطبق علىٰ حال الشعوب الإسلامية، ولا بدّ لهم من إعادة بناء القواعد وإصلاح منطلقات العقل المسلم ومعدن وجدان ناشئته علىٰ النهج الذي نستعيد معه سمات الخطاب النبوي للأطفال والناشئة. كما أنّ المطلوب ملاحظة معادن الوافدين إلىٰ الإسلام من أبناء الشعوب الحرّة المتقدمة التي تتصف بالقوة والشجاعة، والذين هم قوة للإسلام، وأن نحفظ لهم صفات القوة والشجاعة، وألا يكون ما نقدّمه لهم من ثقافة ملوثة وسيلة سلبية تغل طاقاتهم وتدمر وجدان ناشئتهم.

ولتفعيل العقل السليم وإخصاب تربته لا بدّ من تشجيع الفكر الإسلامي العلمي الاجتماعي الناقد الذي يهدف إلى استرداد الرؤية الكلّية الشمولية الإسلامية، وإلى تكامل مصادر المعرفة الإسلامية في الوحي والعقل والكون، وأن يتم -على أساس هذه الرؤية وهذا المنهج- تنقية الثقافة الإسلامية ممّا أصابها من تلوث، وتطوير المناهج التربوية لإعادة بناء النفسية والعقلية الإسلامية الاستخلافية.

لقد بذلت جهود مهمة وكثيرة للإصلاح لم يكتب لها النجاح في تحقيق أهدافها وإنهاض الأمة؛ لأنها لم تهتم بالتغيير التربوي للطفل، بل بقيت خطاباً ترهيبياً ونداءً معرفياً جدلياً موجهاً للبالغين. ومن أهم هذه الجهود في تاريخ الأمة جهود الإمام أبي حامد الغزالي (توفي ١١١١م). فقد تبين الغزالي مبكراً الحاجة إلى الإصلاح المعرفي في كتابه "تهافت الفلاسفة" بهدف التوفيق بين الديني والعقلي، وهدفَ في كتابه "إحياء علوم الدين" إلى التوفيق بين الشرعي العقلي والوجداني، إلا أنّ هذه الدعوة وهذا التوجّه لم ينجحا في إحداث التغيير والإصلاح المعرفي الذي يؤدي إلى التفاعل بين القيمي والسنني؛ لأن نجاحه مشروط ببنائه على أسس منهجية من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن نجاح الإصلاح الوجداني التربوي مشروطٌ أيضاً بأن يوجه بشكل علمي مدروس إلى الطفولة.

كذلك فإنّ الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية (توفي ١٣٢٨م) أدرك أمراً مهماً في بناء الشخصية الإنسانية وهو العقيدة وسلامتها، إلا أنّ غلبة الفكر النظري الجدلي الصِدامي -الذي أملته ظروف العصر وثقافته- لم يمكِّن لهذا البعد

المعرفي من أن يأخذ طريقه إلى الجانب التربوي واستثماره في مناهج تربوية عملية فعالة من أجل التغيير وبناء الطفولة، بل إن كثيراً ممن تأثروا بفكر الإمام كانوا أبعد الناس عن إدراك الوسائل النفسية والوجدانية والتربوية أو الاهتمام بها.

وقد أسهم الإمام علي بن أحمد بن حزم (توفي ١٠٦٤م) في بناء أسس المنهج العلمي السنني الاجتماعي، كما أرسى العلامة أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (توفي ١٤٠٦م)، قواعد هذا المنهج، ولكن فكر هذين الإمامين قد هُمِّشَ كما هُمِّشَ فكر كثيرٍ من المبدعين في عصور التقليد والركود الفكري. فالأول ظاهري، وكتابات الثاني ليست من اهتمامات الفكر التقليدي ولا من قراءاته، ولذلك لم يوظف هذا الفكر في بناء المعارف الاجتماعية الإسلامية، ولا في تطوير الدراسات العلمية التربوية لإحداث التغيير المنشود في أصل بناء الطفولة المسلمة.

ومن المتأخرين نجد الإمام محمد عبده (توفي ١٩٠٥م)، ومن بعده أعلام مدرسة المنار وتلامذتها، وقد أكدوا أهمية السلامة العقدية، وتمكين العقلية العلمية، وتنقية الثقافة الإسلامية من مفاهيم الخرافة والشعوذة. كما أنّ الشيخ عبد الرحمن الكواكبي (توفي ١٩٠٢م) قد أدرك أهمية البعد العام والسياسي وضرورة إرسائه على أساس متين من مبادئ الإسلام وقيمه، وضرورة القضاء على الاستبداد في المجتمع. إلا أنّ هذه الإصلاحات لم تبلغ العمق المطلوب، ولم تحقق الغايات المرجوة، لأنها بقيت في دائرة المعرفي وفي دائرة خطاب البالغين، ولم تتجه بفكرها وبحثها نحو الطفولة والتربية والتغيير في أساس بناء الشخصية الإنسانية.

كل هذه الجهود وما جاء بعدها لم تنتج التغيير المطلوب؛ لأن فكر الركود، والجمود المدرسي، والتقليد قد هَمَّشَتْ كلَّ هذه المحاولات وَحَدَّتْ من آفاقها، ولم تسمح لها بالتطور والتفاعل لإرساء فكر علمي إسلامي يقوم على التكامل المنهجي المعرفي، وبناء العلم النفسي الاجتماعي، وتطوير المنهج التربوي.

ومن الناحية الأخرى فإن فكر الاستيراد والتغريب بقي غيرَ متجاوبٍ مع وجدان الأمة ونفسيتها وأسس بنائها العقدي؛ مما هَمَّشَ أيضاً، وبشكل تلقائي وأسباب موضوعية، تأثيره في وجدان الأمة.

الإصلاح التربويّ وأدبيات الأسرة التربوية:[1]

---

(١) من وجوه اهتمام مدرسة إسلامية المعرفة بالجانب التربوي والأدبيات التربوية للأسرة المسلمة قيام المعهد العالمي للفكر الإسلامي بإصدار عدد من الكتب المهمة، وتنظيم العديد من الندوات العلمية في شؤون التربية على مدى أكثر من عقد من الزمان، ومن ذلك إصدار ثلاث طبعات لكتاب "دليل مكتبة الأسرة المسلمة" الذي سبق أن وضعتُ خطته وأشرفتُ على إعداده حين كنت أميناً عاماً للندوة العالمية للشباب الإسلامي (١٩٧٣ - ١٩٧٩م)، (الطبعة الثالثة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام، القاهرة ٢٠٠٨م)، ومادة الدليل هي تعريفٌ بأفضل ما يتوفر في المكتبة العربية من الكتب والأدبيات الإسلامية المتميزة، ولمختلف مراحل عمر أفراد الأسرة، ومختلف أدوارهم الأسرية، وقد ألحق بالدليل فهارس متعددة تعين القارئ على الوصول إلى بغيته من هذه الأدبيات، ووفق المرحلة، أو الدور المطلوب، أو الاختصاص، وبكل يسرٍ وسهولة، مع التعريف بمؤلفي هذه الكتب ما أمكن ذلك.

كما أنّ المعهد يُعِدّ في الوقت الحاضر لعمل موسوعي شامل هو "دليل القصة الإسلامية"؛ ليخدم الأسرة المسلمة؛ إذ يُعرِّف الدليلُ بالقصص النظيف الذي يوفر المتعة البريئة، ويساعد على النضج الاجتماعي، ويغرس القيم السامية ويدعمها لدى أفراد الأسرة، وفي مختلف مراحل العمر والثقافة، وهو لذلك يشمل كل أنواع القصص، وكل أنواع الكتَّاب، بغض النظر عن موضوع القصة أو هوية الكاتب؛ لأنّ المعيار هو نوعية القصة فنياً، وقيمتها، وأثرها الترويحي =

وإذا كنا قد أدركنا أهمية التنقية الثقافية، والمنهج التربوي للطفل، فإنّ من المهم تركيزَ الاهتمام من قِبَلِ المفكرين والاجتماعيين والنفسيين والتربويين على تقديم الأدبيات العلمية التي تعلّم الآباء كيف يكونون آباءً حقاً، وتوفر لهم المفاهيم الإسلامية العلمية، والاجتماعية التربوية، التي تعين على بناء الأسرة السليمة والحفاظ عليها محضناً تربوياً فعالاً لتنشئة الطفل.

ومن المهم هنا، ونحن بصدد الحديث عن الأدب بشكل عام، والقصة وأدب الطفل بشكل خاص، أن نشير إلى أن الأدب هو من أهم الوسائل الفنية المؤثرة في ناشئة الأمم، فهو يبرز خصائص الأمم والثقافات ويظهرها ويبلورها. والوعي بهذه الخصوصيات ورموزها لـه أهمية كبيرة في التواصل مع روح الحضارة، وسوء فهم هذه الخصوصيات والرموز -خاصةً في عهود الانحطاط - يُعدُّ من الأمور التي تسهم بنصيب وافر في التشويه الفكري والثقافي للشعوب.

ومن ذلك ما حدث من سوء فهم الرموز الإسلامية التي وُظِّفَتْ في قصص التراث، ولا سيّما قصصُ "ألف ليلة وليلة" وما يشابهها، فهي كثيراً ما تصور رموزاً شريرةً شرسةً كاسرةً من البشر والوحوش والزواحف كالأسود والثعابين، ومهمتها في هذه القصص أن تحول دون الوصول إلى

= والتربوي، ومدى إسهامها في إنجاح مشروع الإصلاح الإسلامي المنشود.

كما تقوم المؤسسة أيضاً بإعداد مختارات أدبية عالية متميّزة من "النشيد الإسلامي" لمختلف الأغراض الاجتماعية الوجدانية، وذلك لما للشعر والنشيد من أثر في بناء الجوانب الوجدانية والجمالية في النفس الإنسانية عامة، والإسلامية منها خاصة.

الكنوز والنفائس، ولكنّ هذه القوىٰ الشريرة تتلاشىٰ في الهواء أمام شجاعة الأخيار الشجعان من طلاب الكنوز، لأنّ هذه الرموز في حقيقة إطارها الخيالي الإسلامي هي رمز لقوىٰ الشر والفساد والطغيان التي تقف حائلاً أمام كنوز الحق والخير، وكيف أنّ شجاعة طلاب الحق والخير وصمودهم وإقدامهم تهزم قوىٰ الشر والطغيان، وأنّ سطوة قوىٰ الشر والفساد هي في الحقيقة وهمٌ وسرابٌ.

ومن المؤسف أن تتحوّل خصوصيات الحضارة والثقافة الإسلامية ورموزها الأدبية بسبب جهل أبنائها وتجهيلهم؛ فتصبح مدخلاً وتربة لفكر الخرافة والشعوذة والأوهام والخيالات الكاذبة التي تطلق في قلوب أبناء الأمة الرعب والخوف من موهوم عوالم قوىٰ الجان، فتتحول من خيالات ورموز أدبية إبداعية، وصور فنية، وأدوات ترفيهيه تدعم طاقات الإيمان والشجاعة، وتنمي طاقات مقاومة الظلم والفساد لدىٰ اليافعين والشباب، إلىٰ أدوات للخرافة؛ فتحيل الطاقات الحضارية الإيجابية إلىٰ معاولِ هدمٍ وتخلّفٍ، ووسائل فعَّـالة للإرهاب النفسي، وتعمل علىٰ تمكين أنظمة القهر والاستبداد، وتعين علىٰ ترويج صناعة كُهّان الخرافة والشعوذة.

إصلاح التعليم العالي:

ولإنجاح مشاريع الإصلاح المنهجي الفكري الثقافي، فإنّ من الضروري إصلاح التعليم العالي، ولا سيّما الجامعات الخاصة الخيرية التي يمكن أن تتمتع بقدرٍ أكبر من الحرية والدافعية إلىٰ التجديد والتغيير، وكذلك الجامعات التي تكون في دول تتمتع بقدرٍ من الحرية واستقلالية القرار واحترام الأداء

الأكاديمي، ذلك لأنّ التعليم الجامعي هو الجهة المنوط بـها إعداد "الكوادر" المثقفة العلمية والتقنية والفنية، خاصة في مجال العلوم العقدية والقانونية الفقهية، والاجتماعية والإنسانية. ولتحقيق هذه الغايات لا بدّ من إصلاح المنهجيات العلمية التي تُدرَّس في مراحل التعليم العالي، وتوحيد هذه المناهج ومصادر المعرفة فيها وتكاملها إسلامياً وسننياً؛ حتى يبني المثقفُ والمتخصصُ الإسلامي البديلَ في كل مجالات المعرفة الإنسانية والفيزيائية، وحتى يمكنه أن ينتج الفكرَ والثقافةَ الإسلامية الهادفة الموحدة البديلة.

إنّ عالمية التواصل وما حققته من إمكانات ومن وسائل الاتصال والتعليم الإلكترونيين، إلى جانب فتح المجال للتعليم أمام جهود الإصلاحيين ورجال الأعمال المخلصين ومشاريعهم، تفتح المجال واسعاً للمشاركة في إصلاح التعليم العالي، وتشجيع البحث العلمي ودعمه وتحسين مستواه كماً وكيفاً، وبالتالي توفير "الكوادر"، وتوفير الأبحاث والأدبيات التي تستجيب لحاجات الأمة، ومواجهة تحديات العصر، وتعمل على التنقية وإزالة التشوّهات، والقضاء على التغريب والجمود والتمزق الثقافي.(١)

---

(١) ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أهمية تعليم كل أنواع المعرفة الإنسانية الاجتماعية والفيزيائية والتقنيّة في جامعاتنا باللغة العربية لكونها وجهاً من وجوه إصلاح التعليم الجامعي، لأنّ اللغة العربية هي اللغة الأولى للأمة العربية الإسلامية، ويجب إثراؤها بما حققته وتحققه الحضارة الإنسانية من الكشوفات العلمية السننية؛ ذلك أنّ الإبداع لا يتم إلا في اللغة الأولى، وهي في هذه الحالة اللغة العربية. ولا شك في أنّ من أسباب فشلنا في مواجهة التحدي العلمي والتكنولوجي على مدى قرنين أنّنا كنّا -وما زلنا- نعلّم العلوم الفيزيائية والتكنولوجية في جامعاتنا باللغات الأجنبية. وحين علّمنا العلوم الإنسانية باللغة العربية لم نصل شرايين ثقافتنا ومؤسساتنا العلمية بنتاج الحضارة الإنسانية من خلال ترجمة الدوريات العلمية المهمة التي ينشر =

إن العمل الجاد لتحقيق ما تقدّم، ولا سيّما الاهتمامُ السريع بإنتاج أدبيات ثقافة الأسرة المسلمة، المبنية على رؤى ومفاهيم ثقافية وتربوية إسـلامية علمية سـليمة، وتوفيرها بأيسر السبل، مطبوعة ومسموعة ومرئية وإلكترونية، ودفع الشباب إلى الإقبال عليها واقتنائها وقراءتها وتطبيقها، أمرٌ يجب المبادرةُ إليه، وتوعيةُ المفكرين والتربويين والمثقفين والناشرين والقائمين على شؤون التربية والتعليم بأهميته القصوى في هذه المرحلة، ليكون جزءاً لا يتجزأ من اهتمامات الأمة والعناية به؛ حتى يصبح في أصل ثقافتها وممارساتها.

ثانياً: خطة مدرسة إسلامية المعرفة وتأصيل الفكر الإسلامي

لا يكتمل فهمنا للتيارات الفكرية في العالم الإسلامي المعاصر، كما لا يكتمل إدراكنا للجهود المبذولة للإصلاح الحضاري الإسلامي وإعادة بناء

= فيها الجديد من الأبحاث والكشوفات العلمية، واكتفينا بترجمة بعض الأعمال الأدبية الكلاسيكية والروايات التجارية.

إنّ التعليم في كل مراحله باللغة الأولى أمر مهم بشرط أن تدعمه الترجمة العلمية لكل ما يجدّ من أبحاث وكشوفات علمية، وذلك من خلال مؤسسات الترجمة العلمية و"كوادرها" من الطلاب وأساتذة الدراسات العليا ومراكز الأبحاث العلمية الذين يشترط حسن إعدادهم في اللغات العالمية.

وكلّي أمل أن يُصار إلى إنشاء كلّيات للترجمة ومؤسسات وطنية للترجمة والنشر العلمي لإثراء ثقافة الأمة، وتوسيع دائرة الثقافة العلمية حتى تصبح ذات مردود تجاري يغري رجال الأعمال بالإسهام الواسع في إثراء ثقافة الأمة، وأرجو أن ننصرف إلى العمل والكفِّ عن الجدل البيزنطي الوهمي حول قدرة اللغة العربية على هضم المعارف والعلوم، فقد قامت اللغة العربية بذلك من قبل كما تقوم به اليوم كل أمم الأرض الناهضة، مع أنه ليس لها ما للغة العربية من ثراء وقدرة وبناء، وعلى مجامع اللغة ووسائل الإعلام أن تقوم بدورها في بناء المصطلحات وتوحيدها وترويجها في تعليم أبناء الأمة وإعلامهم.

الأمة وتفعيل دورها الحضاري إذا لم ندرك طبيعة مدرسة "إسلامية المعرفة" والأهداف التي سعت -وما زالت تسعىٰ- إلىٰ تحقيقها، والجهود التي بذلتها خلال العقود الماضية لدفع الجوانب الفكرية والثقافية والتربوية في عجلة الإصلاح الحضاري الإسلامي.

وعلىٰ أيّ حال فإنّ ما نذكره هنا عن مدرسة إسلامية المعرفة لا يقصد منه تفصيل جوانب هذه الجهود والتجارب؛ ولكن المقصود هو إعطاء فكرة مختصرة عن أبعاد هذه الجهود والآفاق التي نتطلع إليها.

النشأة والمسار:

لقد قامت هذه المدرسة علىٰ يد شبابٍ جمعوا بين الثقافتين الإسلامية والوضعية، وظهرت بواكير فكرها في نشاطاتهم وكتاباتهم وأُطروحاتهم المبكرة قبل أن يلتقي جمعهم وتتكاتف جهودهم وتتكامل أدوارهم في مجال العمل الإسلامي وخدمة النهضة الإسلامية. ومن هذه البواكير كتاب "نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة"، لكاتب هذا البحث، وقد صدر عن دار الخانجي بالقاهرة عام ١٩٦٠م،[(١)] حيث وضع الكاتبُ اليدَ علىٰ أسس منهج الفكر الإسلامي المطلوب، وعلىٰ أهميته، وإمكاناته في إحياء

(١) كان من نتائج إدراك الكاتب أهمية كشفه في المنهج أن جعل موضوع بحثه العلمي للحصول علىٰ إجازة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا بفلادلفيا، هو "النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة في الفكر والمنهجية" (١٩٧٣م) وقد بسط فيه الجوانب التجديدية في المنهج، وبرهن علىٰ قدرة هذا المنهج علىٰ التجديد الفكري في ذلك البحث، وتطوير الفكر الإسلامي في ذلك المجال، وقد قام أستاذ العلوم السياسية بجامعة الملك سعود بالرياض في المملكة العربية السعودية، الدكتور ناصر البريك، بترجمة الكتاب إلىٰ العربية ونشره.

الفكر الإسلامي المعاصر.

وقد تحوّلت رؤى هؤلاء الشباب إلى برنامج عمل حين تلاقى رعيلهم الأول في الستينيات من القرن المنصرم، ضمن موجة البعثات الدراسية إلى الولايات المتحدة من بلاد العالم الإسلامي ودوله الحديثة العهد بالاستقلال والتحديث. وكان بداية اجتماع هذه المجموعة هو العمل على إنشاء مؤسسات طلابية ثقافية إسلامية تحتضن الشباب المبتعث في غربته الدينية والثقافية والاجتماعية؛ بهدف الحفاظ على هوية الشباب المسلم المبتعث، حمايةً لعقيدتهم وولائهم، وتوجيهاً لطاقاتهم وجهودهم، بما يعين على خدمة أمتهم وتحقيق غاياتها وتطلعاتها.

ومن خلفية هذه المجموعة من الشباب، وبحكم اتساع أفقهم الثقافي، أدركوا أهمية البُعد الفكري في أزمة التخلّف العلمي الحضاري للأمة، وأدركوا أهمية إعادة تأهيل الأمة بإصلاح مناهج فكرها وتنقية ثقافتها، وتطوير مناهجها التربوية وأساليبها التعليمية؛ لتنمية الطاقة النفسية الوجدانية، والقدرة المعرفية والتكنولوجية اللازمة لحمل أعباء مشروع الإصلاح الإسلامي والتغيير الحضاري.[1]

---

(١) يحلو لبعضهم -جهلاً، أو تجاهلاً- أن يتساءلوا كيف يمكن أن تكون هناك علوم ورياضيات إسلامية وعلوم ورياضيات غير إسلامية؟ والجواب أنّ المقصود بإسلامية العلوم والتقنيات هو ما يتعلّق بفلسفة العلوم وبالغايات والأهداف من العمل في هذه المجالات، وسبل توجيهها، والاستفادة منها إيجابياً بروح المسؤولية الاستخلافية؛ فلا تكون أداة للقهر والظلم وتدمير البيئة وإهدار الموارد.

وبهمة هؤلاء الشباب ورؤيتهم تكوَّن أولاً في عام ١٩٦٣م "اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا MSA of the US and Canada" وأصبحت هذه الجمعية الطلابية خلال عقد واحد من الزمان، أكبر جمعية ثقافية طلابية إسلامية في الغرب، ضمَّت في عضويتها ألوف المثقفين من كل أبناء العالم الإسلامي المبتعثين في الغالب الأعم للدراسة العليا.

وانبثق خلال هذه الفترة عن اتحاد الطلبة المسلمين عدد من الجمعيات المهنية العلمية الإسلامية المتخصصة، وأهمها "جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين Association of. Muslim Social Scientists" التي تأسست رسمياً عام ١٩٧٢م، وكان القصد من هذه الجمعية توحيد جهود الطلبة الإسلاميين من طلاب الدراسات الاجتماعية والإنسانية لتوظيف معارفهم ومهاراتهم العلمية في تأصيل الفكر الإسلامي، وإصلاح مناهجه، والعمل على إنشاء علوم اجتماعية وإنسانية إسلامية تُبنى على مقاصد الشريعة وثوابت الإسلام ومفاهيمه ومنطلقاته، وإيجاد لغة علمية مشتركة مع طلاب العلوم الاجتماعية والإنسانية المعاصرة. فقد غلبت على الكتابات الإسلامية الروح الدفاعية والدعاوى الجزافية؛ بسبب افتقاد التخصص العلمي والسطحية العلمية لدى جُلِّ الكُـتَّـاب في المجالات الإسلامية، ممّا أَوْجَدَ هوّةً وجفوةً بين رجال الفكر الإسلامي، ورجال الإصلاح الإسلامي، وطلاب الدراسات الاجتماعية الغربية المعاصرة من ناحية، ومن ناحية أخرى رجال الحكم والصفوة السياسية ودعاة التغيير والتطوير والتحديث، وذلك بسبب التكوين الفكري التغريبي لهؤلاء الأخيرين ومسؤولياتهم العملية.

وفي العقود اللاحقة استقر عدد كبير من المبتعثين المسلمين في الولايات المتحدة، وتدفقت هجرة واسعة للعقول المسلمة إلى أمريكا، بسبب تدهور الأحوال السياسية والاجتماعية في كثير من البلاد الإسلامية، فانبثق عن اتحاد الطلبة المسلمين: "الجمعية الإسلامية لشمال أمريكا" Islamic Society of North America - ISNA عام ١٩٨٠م، وكان الهدف من ذلك هو خدمة الثقافة والهوية الإسلامية للجالية المسلمة في أمريكا الشمالية وكندا.

ومع مطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) قام "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" مؤسسةً علميةً فكريةً إسلاميةً متخصصةً مستقلةً، تعمل على خدمة الفكر الإسلامي وإعادة بنائه المنهجي المعرفي، وتنقية الثقافة الإسلامية على أسس إسلامية علمية سليمة، بإزالة ما أصاب رؤيتها الكلّية من تشوهات، بعيداً عن فكر الخرافة والشعوذة، وإعادة بناء النفس الإسلامية، وتحريرها معرفياً ونفسياً ووجدانياً، واستعادة بُعدها الجماعي، وطاقتها العمرانية الحضارية الإبداعية، والمعهد في ذلك كله يتعاون ويتكامل مع جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في خدمة الفكر والثقافة الإسلامية.

لقد قطع المعهد العالمي للفكر الإسلامي -في سبيل إعداد الساحة الثقافية والأكاديمية للقيام بدورها في إعادة بناء منهج الفكر الإسلامي، وتنقية الثقافة الإسلامية- شوطاً مهماً، أساسُه وقاعدتُه الإصلاحُ المنهجي، وتكاملُ مصادر المعرفة الإسلامية. ولم تعد المعرفة الإسلامية في مفهوم مدرسةِ إسلاميةِ المعرفة مجرّدَ معرفةٍ مدرسية استظهارية، بل أصبحت معرفة شمولية متجددة Prosses تعنى بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية والعلمية،

وتسبر غور الطبائع، وتهدي المسيرة على ضوء ثوابت الوحي الرباني الإسلامي وغاياته السامية.

وقد أصدر المعهد حوالي خمسمئة كتاب حتى اليوم في مختلف ميادين العلوم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وعُنِيَ -وما يزال يُعْنَى- بمعالجة كيفية التعامل مع القرآن الكريم والسنّة النبوية، وكيفية التعامل مع التراث، وكيفية التعامل مع الفكر الغربي، وكيفية التعامل مع علوم السنن في الحياة والكون، إلى جانب معالجة قضايا مناهج الفكر وسبل تفعيل الفكر الإسلامي، وتسخير مصادره لبناء العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية والتربوية والاقتصادية الإسلامية.

كما نظَّم المعهد للغرض ذاته مئات المحاضرات والندوات والمؤتمرات العلمية في عدد كبير من الحواضر العلمية في مختلف بلاد العالم، وسخّر لذلك عدداً من المكاتب الثقافية التابعة لـه، أو المتعاونة معه، من أجل إيصال رسالة المعهد، وطرح قضايا الثقافة الإسلامية، وإشكالات الفكر الإسلامي وسبل إصلاحه، أمام المفكرين والمثقفين والأساتذة الجامعيين في مختلف ميادين العلوم.

وأصدر المعهد العالمي للفكر الإسلامي لخدمة الأقلام الإسلامية في قضايا إسلامية المعرفة، وإصلاح مناهج الفكر الإسلامي، وبناء العلوم الاجتماعية الإسلامية؛ دوريتين عالميتين: إحداهما باللغة العربية (مجلة إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر)، والأخرى باللغة الإنجليزية (المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية، American Journal of Islamic Social Sciences - AJISS، عدا ما يصدر عن بعض مكاتب المعهد والمكاتب

المتعاونة معه من نشرات ودوريات محليـة.

المؤسسات المتخصصة في دراسات الطفولة ورعايتها:

وإذا كان دور إسـلامية المعرفة، والمؤسسات الثقافيـة والفكريّة، ومؤسسات البحث الأكاديمي والتعليم العالي، أساسياً في إعادة بناء الساحة الفكرية، وتأهيل العقل المسلم، وحل الإشكالات المنهجية، وتنقية الثقافة، وبناء "الكوادر" الثقافية والعلمية المؤهلة إسلامياً وعلمياً لتؤدي دورها في مواكبة المتغيّرات، وتمدّ الأمـة بالخبرات والقدرات، فإنّ الحاجـةَ أيضاً ماسةٌ وعاجلةٌ إلىٰ نشاط علمي تربوي مركّز في مجال قضايا التربية الإسلامية؛ يؤدي إلىٰ إمداد الأمـة والآباء والمدرسين وقادة الرأي العام والمسؤولين بالأبحاث والأدبيات، التي توضِّح الرؤية، وتوفر الخبرة، والوسائل المطلوبة الضرورية لمواجهة المتغيّرات والتصدي للتحديات، وتبصّر الآباء والمعلمين والمسؤولين بالجديد والفعّال؛ بهدف تحسين نوعية الناشئة وجدانياً ومعرفياً، ورفع مستوىٰ أدائها.

مؤسسة تنمية الطفولة:

وإبرازاً لأهمية الجانب التربوي ودوره في الإصلاح الإسلامي، ولإعلان حملة جهادية إسلامية تربوية لتجنيد الطاقات الفكرية اللازمة لخدمة الفكر التربوي والتغيير والتجديد الاجتماعي، وبناء مؤسسات متخصّصة علمية بحثية تربوية تعمل علىٰ خدمة الأبحاث والدراسات، وتوفر الأدبيات العلمية في مجال تربية الناشئة وخدمة مؤسساتها، فقد أسهم "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" في هذا الاتجاه، إلىٰ جانب تجربة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، بإنشاء مؤسسة إسلامية بحثية تربوية مستقلة لهذا

الغرض في الولايات المتحدة الأمريكية أسماها "مؤسسة تنمية الطفولة" Child Development Foundation: CDF، والتي دمجت مشاريعها التربوية فيما بعد في المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

ويقف المعهد اليوم أمام قضية الإصلاح التربوي، والتغيير في الجذور الاجتماعية، وإعداد العدّة اللازمة لتحقيق ذلك، بإعادة بناء الرؤية الإسلامية الإيمانية التوحيدية الاستخلافية الأخلاقية، وبناء العقلية العلمية الإسلامية، وتنقية الثقافة والتراث من مدسوس الخرافة والشعوذة، وحماية العقل المسلم من سوء استعمال ما ورد من لمحات نصية عن عالم الغيب، وما جَنَّ[1] من عوالم الكون، وما سلف فيما سبق من مراحل الإنسانية وعصورها من معجزات الرسل؛ بحيث لا تصبح تلك اللمحات موضعاً لسوء الفهم والتأويل على غير ما تقتضيه مقاصد الشريعة وكلياتها.

في هذه المرحلة المهمة لا بدّ من أن تهدف الدراسات المنهجية الأكاديمية إلى إنجازات تطبيقية، وتجعل من مقاصد القرآن الكريم وكلّياته ومبادئه ومفاهيمه ضابطاً للفكر الإسلامي، وحارساً للعقل المسلم من الانحراف والخرافة والقصور، ودافعاً إلى العمل والاجتهاد والجهاد وإحسان الأداء، في سبيل إقامة مجتمع العدل والكرامة والإحسان، وحضارة الأخلاق والعلم والعمران.

إنّ على العقل المسلم الاستفادة من التراث الحضاري الإنساني الذي بين يديه في كل مجالات المعرفة الإنسانية، في العلوم الاجتماعية والإنسانية

---

(١) جّـنَّ: أي استتر وخفي.

والفيزيائية والخبرات الحضارية والعمرانية، وعلى العقل المسلم المعاصر أن يعي الدرس الذي دفع السلف ثمنه غالياً حين تفاعل سالف العقل المسلم مع سالف التراث والفكر الإنساني الحضاري، ولا سيّما الفكر الفلسفي الإغريقي، ولكن بشكل عفوي عشوائي، ودون منهجٍ علمي سليم؛ حيث ينتهي به تفاعله العفوي العشوائي إلى متاهات الفلسفات الإنسانية الميتافيزيقية، التي أنهكت طاقة العقل المسلم فيما لا فائدة من ورائه، وأدت إلى تمزيق نسيج وحدة الأمة، وصرفها إلى التهويمات الغيبية الظنية.

سيكون هناك كثير من المثقفين على جانبي الطريق الذين تؤهلهم ثقافتهم وإدراكهم لمعرفة أبعاد التغيير المطلوب ومقاصده ووسائله، وعلى هؤلاء أن يتحلوا بالشجاعة، وينزلوا إلى الساحة، ويشمروا عن ساعد الجد، فهم رجال العمل في هذه المرحلة، وعليهم أن يُعِدُّوا الجيلَ الجديدَ القادرَ بمؤهلاته المعرفية والنفسية ليكون قادراً على حمل الرسالة، ورفع الراية، ومتابعة المشوار.

تجربة إسلامية المعرفة في إعداد "الكوادر" البديلة:

وتجربة إسلامية المعرفة في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا (١٩٨٨-١٩٩٩م) وخطط إعداد "الكوادر" الثقافية والعلمية والأكاديمية الإسلامية فيها، تُعدُّ تجربةً علمية عملية رائدة في هذا الاتجاه. فقد عُهِد بالتجربة إلى أحد مؤسسي المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ممّا جعل لها بالنسبة لمدرسة إسلامية المعرفة أبعاداً مهمة؛ إذ كانت تطبيقاً لمفهوم إسلامية المعرفة

ومنهجيتها ونتائج تجربتها.[1]

ومن المهم أن ندرك أنّ عمل "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" وعمل "مؤسسة تنمية الطفولة" ضمن تجربة "مدرسة إسلامية المعرفة" هما عملان متكاملان؛ لأنّ الإصلاح الثقافي والإصلاح التربوي هما بدورهما متكاملان، فإذا كان عمل المعهد مستغرَقاً في ساحة العمل الفكري المنهجي وتنقية الثقافة، فإنَّ عمل المؤسسة -بالتعاون مع المعهد- عملٌ تربويٌّ؛ كان يهدف إلى التخصص في توظيف الإصلاحات الثقافية في أصل بناء شخصية الإنسان المسلم الوجداني في مراحل الطفولة المختلفة بالأساليب التربوية الفعّالة، وعلى أي حال فإن زخم العمل في المجال التربوي لم يتغير.

إن الأسلوب العلمي الفعال الذي يخدم الإصلاح والتغيير في هذه المرحلة من مراحل حياة الأمة؛ يكمن في الجهود التربوية التي تستثمر الرؤية

---

(١) لإدراك بعض أبعاد تجربة إسلامية المعرفة وخلفيتها الفكرية يمكن الرجوع إلى مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وإلى بعض أعمال المؤلف، مثل: "نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة" (١٩٦٠م)، و"النظرية الإسلامية في العلاقات الدولية: اتجاهات جديدة في الفكر والمنهجية الإسلامية" (١٩٧٢م)، و"السياسة والحكم" الذي قدِّم إلى اللقاء العالمي الثاني للندوة العالمية للشباب الإسلامي (١٩٧٣م)، ونشر في أعمال ذلك اللقاء، و"إسلامية العلوم السياسية" الذي قدِّم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي بمكة المكرمة (١٩٧٧م)، و"إسلامية المعرفة: منهج جديد لإصلاح المعرفة المعاصرة"، وقد قدِّم إلى المؤتمر العالمي الثاني لإسلامية المعرفة بإسلام آباد - باكستان (١٩٨٢م)، والمنشور في أعمال المؤتمر الصادر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وكذلك كتاب "إسلامية المعرفة: الخطة والإنجازات" الذي حرَّر أصله الشهيد الدكتور إسماعيل الفاروقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأصدره المعهد العالمي للفكر الإسلامي بعد الإضافات والتعديلات التي أدخلها الكاتب باللغتين العربية والإنجليزية، ثمّ كتاب "أزمة العقل المسلم" (١٩٨٦م) الذي أصدره المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الاجتماعية السليمة، وتغرس الرؤىٰ والقيم والمبادئ الصحيحة، وتعمل علىٰ توازن الجوانب الفردية والجماعية في الشخصية الإسلامية، وتنمي فيها الشجاعة الأدبية، وتبني في أساسها العقلية العلمية، وتشعلُ -مع مطلع مرحلة الطفولة- روحَ المبادرة والحاسة النقدية الإبداعية، وتتعهدها بالصقل والتهذيب في مراحلها المختلفة.

وإذا كانت الخطوة الأولىٰ هي إسلامية المعرفة بإصلاح مناهج الفكر وتنقية الثقافة، وإذا كانت الخطوة الثانية هي العمل علىٰ إصلاح بناء الأسرة وعلاقات الوالدين علىٰ أسس إسلامية من الحبِّ والثقة والأمن، وتوفير المحضن التربوي المطلوب لتنشئة الطفل المتكامل الشخصية، القوي القادر الأمين، فإنّ الخطوة الثالثة هي التوعية التربوية التي تحوّل إمكانات الأسرة من مَعين الحبِّ والثقة والأمن إلىٰ منهج تربوي إيجابي فعّال، يأخذ بيد الطفل ويرعاه، لتنمية قدراته ومواهبه، وتكوين عقليته العلمية ووجدانه الاجتماعي الحي.

وتكون الخطوة الرابعة هي توفير الوسائل العلمية والتربوية للمدرسين، لمساعدتهم علىٰ أداء مهمتهم. ويتم ذلك بتزويدهم بكل جديد ونافع في المجال التربوي، وإنتاج الأدبيات التي تعينهم وتعمق مداركهم، كما توفر لهم المناهج التي تقدِّم لهم المعارف والعلوم المناسبة لكل مرحلة من مراحل الطفولة.

هذه الخطوات الأربع لا بدّ من أن تكون متلازمة متوازنة متزامنة مع استعادة البُعد الغائب في التجديد والتغيير في تاريخ فكر الأمة وجهادها الحضاري، وأن تُشَكِّلَ البُعدَ التربوي الأساسي للطفل تأسياً بالخطاب النبوي

التربوي الكريم له.

وما تأمله خطـة عمل المعهد لاستكمال مشروعه النموذجي، هو العمل -في الوقت المناسب- على إنشاء مؤسسة تعليمية عالمية تقوم على أساسها سلسلة من المدارس الإسلامية العالمية، لتكون نواة فلسفتها ومناهجها وأساليبها أنموذجاً لتفعيل دور الأسرة والمدرسة، ومساعدتهما على أداء دورهما. فهي مدارس لا يرجى أن تقف برامجها في عملها عند حدّ الطفل ونشاطه داخل أسـوارها، وفي سـاعات الدوام المدرسي فحسب، ولكنّ أثرها واهتمامها وعناياتها تمتدّ إلى الأسرة ومفاهيمها التربوية.

ويبني المعهد خططه التربوية، ومناهجه التعليمية، ونشاطات مدارسه في المجالات الوجدانية والثقافية والعلمية والبدنية، على أساس من الرؤيـة الكونية القرآنية السليمة، والقدوة النبوية، والثقافة الإسلامية الصحيحة النقية، وتُعنى بالبناء النفسي والوجداني والمعرفي، في تكاملٍ وتناسقٍ، بحيث توظَّف المجالات والمراحل كافة لأداء المهمـة التربوية المطلوبـة.

المدارس الإسلامية العالمية:

بدأ المعهد العالمي للفكر الإسلامي هذا المشوار من خلال تجربة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. فقد أقامت الجامعة مركزاً لأبحاث مناهج التربية والتعليم العام، وعملت على بناء مدرسة نموذجية تابعة للجامعة. وقام المركز، من خلال عدد من أساتذة التربية المتخصّصين، وعلى ضوء الخطة التي تم رسمها، وبإشراف مباشر من إدارة الجامعة، وبالتعاون مع عـدّة لجان

متخصّصة من الأساتذة الجامعيين في مختلف المجالات الأكاديمية، بوضع مسوّدات أولية لمناهج تربوية لمختلف مراحل التعليم العام. وقد تمّت فعلاً إقامـةُ مدرسة تابعة للجامعة تشتمل على مختلف مراحل التعليم العام، ونُفِّذَتْ فيها تلك المناهج التي يُرجى أن تستمر على النمط والغايات التي أقيمت من أجلها، وأن يستمر مركز الأبحاث التربوية في تطوير تلك المناهج، وأن ينجح في تأليف كتب منهجيـة كاملة على أساس تلك المناهج التربوية المطورة.

لقد كانت الغايةُ من فصل مركز أبحاث المناهج والخطط التربوية في الجامعة عن إدارة المدرسة؛ حمايةَ المركز من أن تطغى فيه الجوانب الإدارية والاهتمامات اليومية على الجوانب البحثية التربوية العلمية، مع الحرص على بناء روابط التعاون العلمي والتربوي بينهما، وذلك من خلال الإدارة العليا لكلا المؤسستين، وهو ما يرجى أن يطبق في المستقبل بين "المعهد" وسلسلة "المدارس الإسلامية العالمية" أو "سلسلة مدارس التفوق الحضاري"، أو "التربوي". وسيستمر "المعهد العالمي للفكر الإسلامي" بالتعاون مع كافة الجهات المعنية في العالم الإسلامي -بإذن الله- في مواصلة العمل والبحث العلمي من أجل تنميـة الجهود التربوية الرائدة، وتطويرها، وتطوير الكتب المنهجية المطلوبة، والعمل على إنشاء سلسلة المدارس الإسلامية العالمية، والمؤسسة التربوية اللازمـة للإشراف العام عليها، ووضع الخطط التنظيمية اللازمـة لنجاحها وانتشارها بإذن الله.

وليكتمل مشروع إسلامية المعرفة وإصلاح مناهج الفكر الإسلامي في خدمة مشروع الإصلاح الإسلامي الحضاري؛ فإنّ من المهم أن يعمل المعهد

العالمي للفكر الإسلامي ومؤسسة المدارس الإسلامية العالمية تحت مظلة اتحادٍ عامٍّ لمؤسسات الفكر الحضاري الإسلامي، والتعاون مع المراكز الفكرية الحضارية المختلفة التي تعمل للهدف ذاته.

ومن المهم لمشروع إسلامية المعرفة الأكبر -من خلال مَن يتبنون رؤيته ومناهجه في أي مكان من العالم- أن تمتد جهوده العلمية إلى المرحلة الثانية من مراحل التطوير الفكري الحضاري، بأن يوظف إصلاحه الفكري الثقافي المنهجي بشكل فعّال، ويتبلور في دراسات وكتب منهجية، ومن خلال دوريات علمية في مجال الدراسات الاجتماعية والإنسانية والاقتصادية والإستراتيجية، من منظور إسلامي، كما يجب أن تشمل نشاطات مؤسساته العلمية بشكل خاص مجال فلسفة العلوم ورصد النشاط العلمي والتكنولوجي وتوجهاته الحضارية، وتقديم الرؤية الإسلامية فيها، كما يجب أن يتولى الباحثون بالدراسة قضايا حقوق الإنسان المسلم، والاهتمام بها، وتقديم الدراسات والمعلومات الصحيحة عنها، ووضعها بكل صدق وأمانة أمام الأمة والقيادات ووسائل الإعلام.

الحاجة إلى إعلان مبادئ منهجية وفكرية:

في هذه المرحلة التي بلغها الفكر الإسلامي، وعلى الحال التي عليها حال شعوب الأمة ومؤسساتها الاجتماعية والتعليمية، فإنّني أرى أنّه قد آن الأوان للصفوة من المفكرين والعلماء والمثقفين أن يجتمعوا في مؤتمر منظم يخرجون فيه إلى الأمة ببيان مبادئ عام يتناول المجالات الأساسية في حياتها، ترسى فيه الأسس، وتُبْسَط أمامها المقاصد، والكليات، والمبادئ، والثوابت،

والأولويات، والتحديات. ويكون هذا البيان بمنـزلة دليل العمل الذي يضع قواعد المنهجية، ويرسم الإطار، ويضيء بكل اقتناع سبيل التغيير والحركة والإصلاح في مجال المعرفة والثقافة والتربية والتعليم، ويسد الطريق أمام سوء الفهم، وأمام الضلال والتضليل.

إنّ استمرار غياب مثل هذا الدليل في مسيرة التخلّف والتخبّط والتيه التي تعاني منها الأمة، ويعاني منها فكرها ودليل حركتها -حتى اليوم -خطأٌ جسيمٌ، وتقصيرٌ لا يغتفر.

ندعو الله -سبحانه وتعالى- أن يلهم عقلاء الأمة وحكماءها الإسراعَ إلى رتق الفتق، وترشيد المسير؛ خدمةً للأمة، وخدمة للإنسان، وأداءً وتبليغاً للرسالة، إنّه على كل شيء قدير.

خاتمة

حتىٰ نعلَمَ ونعملَ:

من المفيد أن نستخلص -في نهاية المطاف- الرؤية الأساسية للكتاب، والخطوط العامة التي هدف إلىٰ وضعها أمام القارئ، والتي تمثّل في جوهرها استبطاناً وتصوراً لأزمة الأمة، وللعوامل الأساسية المؤثرة فيها، وإبراز العناصر المفقودة في مشاريع الإصلاح الإسلامي المنشود.

فالأمة الإسلامية هي حاملة رسالة الهدىٰ والنور إلىٰ البشرية كافة، وقد قامت بدورها في الماضي بتصحيح مسار الحضارة الإنسانية، ورفعتها إلىٰ آفاق أسمىٰ من الأخلاقية والعلمية والعالمية، وزودتها بالمنطلقات التي تقف خلف كل إنجازات الحضارة الإنسانية المعاصرة.

وعلىٰ الرغم من الطاقة الإيمانية الحضارية السامية العظيمة التي فجرها الإسلام، فإنّ رواسب التقاليد والثقافات والفلسفات، وتغيّر القاعدة السياسية إلىٰ قبلية وشعوبية، قد عملت علىٰ تشويه الرؤية الإسلامية، وتدمير منهجية الفكر والمعرفة الإسلامية، وتلويث ثقافة الإسلام، ممّا أفقد الأمةَ بُعْدَها العام، ومكَّنَ لعقلية الشعوذة والخرافة والعرقية من أن تستحوذ عليها.

وانتهىٰ ذلك الغبش العقدي والفكري والتشوه الثقافي إلىٰ الجمود والتخلّف، وأورث قيادات الأمة الضعف والعجز، ممّا نتج عنه التأخر

والإرهاب السياسي والديني،[1] وأورث الأمة "نفسية العبيد" التي تتسم بالفردية والخوف وعدم المبادرة، وجعل من الأمة جسداً خامداً خِلواً من روح الوحدة والتكافل، ومن روح الشجاعة، ومن طاقات القدرة والإبداع والمبادرة، وأصبحت الأمة فريسة لكل عدو وطامع.

وجاءت محاولات الإصلاح -برغم إخلاصها وتضحياتها- جزئية سياسية، وعلى الرغم من أنّها تسعى دائماً إلى استنهاض الهمم، وصد التعديات ودفعها عن الأمة، فإنّ هذه المحاولات لم تكن على وعي كامل بحقيقة أمراض الأمة المعرفية الثقافية والنفسية الوجدانية.

وطبيعة الخطاب السياسي أنّه يعمل على ضم الصفوف وإحياء الأمل، ولكنّه إذا لم يدع مجالاً للخطاب الفكري الناقد؛ فإنّ الأمة عند ذلك لن تتمكّن من تجديد طاقة مواجهة التحديات وتنميتها، ويؤول مصيرها ومصير جهودها وحركاتها الإصلاحية إلى الاستنزاف والضعف المتزايد.

إنّ عدم فهم الإشكال المعرفي، ومن ثمّ عدم إدراك علاقة المعرفي بالنفسي الوجداني، هما من أهم أسباب انشطار المعرفة الإسلامية إلى معرفة دينية وأخرى مدنية، متواجهتين متنابذتين متدابرتين، انتهى الأمر بهما إلى "تهافت الفلاسفة"، وموات "علوم الدين"؛ أي جمود الكلي القيمي، وضمور دوره، وعقم السنني الإنساني وجموده، وجمود ما يلحق به من العلوم والمعرفة الإنسانية. وهذا أورثنا الاهتمام الكمي بالمعلومات العقيمة، وعدم إدراك

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. "إشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ السياسي الإسلامي"، **مجلة المسلم المعاصر**، العدد ٢٢، السنة ٣١، ٢٠٠٦م.

علاقتها بالعملي وبالوجداني وآثاره النفسية، فأهملنا العلوم الإنسانية، وأهملنا الطفولة والتربية التي هي مجال التغيير، ومجال تنمية الطاقة، واستثمار القدرات، وتزويد الأمة بخزانات وقود الطاقة النوعية المتنامية اللازمة لمواجهة المتغيرات والتصدي لمواجهة التحديات.

وحتى نحرك عجلات النهضة والتقدّم، ونعيد بناء الطاقة النفسية الوجدانية المحركة للإرادة الإنسانية، وبناء القدرات البشرية، والمعرفة العلمية، والجهود الذاتية اللازمة للنهوض بالأمة، فإنه ينبغي أن يقوم المفكرون والعلماء والأساتذة الجامعيون والمثقفون وقيادات الأمة بدورهم في إصلاح أسس الخلل، وإعداد العدة المعرفية والنفسية لتجنيد أبناء الأمة من أجل إنجاز مشروع الإعمار والإصلاح الحضاري الإسلامي.

ولا بدّ من استعادة الرؤية الإسلامية التوحيدية الاستخلافية العمرانية الحضارية الـخَيِّـرة. ومن إصلاح منهج المعرفة، وضمِّ جناحيه القيمي الديني والسنني الإنساني، وتنقية الثقافة الإسلامية من كل ما أصابها من أوضار العقم والتلوث.

ثمّ يأتي بعد ذلك دور تفاعل المعرفي والنفسي والوجداني تربوياً في تكوين الإنسان المسلم؛ حتى يكون على الدوام مؤمناً خيّراً مبدعاً قادراً على توفير الطاقات والمهارات اللازمة لمواجهة التحديات.

والفكر والمفكرون والمثقفون هم المنطلق المعرفي للإصلاح، وتأتي التربية والمربون منطلقاً للإصلاح النفسي والوجداني، وبذلك يصبح الأساتذة الجامعيون، ويصبح التعليم العالي وسائل مهمة في عملية الإصلاح الفكري،

وتصبح التربية والتعليم العام أدوات مساندة للأسرة في مجال الإصلاح النفسي والوجداني.

والمؤسسات على أشكالها المختلفة تعمل جاهدةً من أجل المحافظة على الوضع القائم وإبقائه وديمومته، والحرص على أنّ أيّ تغيير إنّما يتم في إطار هذا الوضع القائم، ولذلك لا بدّ لطلاب الإصلاح والتغيير من معرفة مفتاح تشغيل حركة عملية التغيير. ومن دون معرفة هذا المفتاح، ومعرفة طبيعة عملية التغيير ومتطلبات تحريكها؛ فإنّه لا يمكن إحداث التغيير المطلوب، ويصبح المصلحون كمن يحاولون تحريك عجلات عربة التغيير بأيديهم.

إنّ مفتاح تشغيل التغيير السلمي في المجتمع إلى ما هو أفضل إنّما يكمن تلقائياً في الوازع الفطري في نفوس الآباء، وحرصهم على ما فيه مصلحة أبنائهم، وهو دافع أودعه الله في النفوس، وله القدرة والتأثير الأكبر في تكوين عقلية الفرد ونفسيته في مرحلة الطفولة. وبناء عليه فإنّ تضامن المفكرين والمربين في أداء أدوارهم في فهم الأبوَّة والطفولة، والقيام بالأبحاث العلمية التربوية ضمن منطلقات ومشكلات الفكر والثقافة الإسلامية، أمرٌ ضروريٌّ للقيام بدورهم في تقديم الأدبيات العلمية الفاعلة إلى الآباء المسلمين، والوصول بهم إلى الوعي والاقتناع بما هو مطلوب منهم. ولذلك طوَّرت الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، من منطلق إسلامية المعرفة، ثلاثة مقررات دراسية لطلابها، وقررت دبلومات دراسية لتخريج المدرسين اللازمين لها، وهذه المقررات التي أُريد لها أن تكون متطلبات جامعية لجميع منسوبيها من الطلاب، هي: مقرر "الأسرة والأبوَّة"، ومقرر "الفكر الإبداعي

وحل المشكلات"، ومقرر "قيام الحضارات وانهيارها".

ويأتي الدور المعرفي للمدرسة والمعلّم تَبَعاً ومكملاً للدور الوجداني التربوي للآباء والأمهات، وإذا ما توافر الوعي فإنّ دور المعلّمين يتكامل مع دور الآباء؛ لأنّ المعلّم يحمل -عادةً- الرغبةَ في رعاية التلميذ، وفي جعله قادراً على تحقيق النجاح في حياته، وتوظيف طاقته في مواجهة التحديات والتغلب عليها.

وهكذا يتضح لنا في النهاية أنّ من أهم أسباب قصور الحركات الإصلاحية في تاريخ الأمة عن تحقيق أهدافها، هو عدم إدراكها أهمية الجانب الوجداني في إصلاح العطب النفسي الذي أصاب الأمة، ومن ثم عدم إدراكها أهميةَ دور الطفولة في إحداث الإصلاح النفسي الوجداني، وتحرير الأمة من أزمة "نفسية العبيد"، والانتقال بها إلى دور القدرة والإبداع والمبادرة، كما فعل سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببني إسرائيل في (سيناء).

كما يتضح لنا في النهاية مسؤولية المفكرين والتربويين والمثقفين والأساتذة والمعلّمين في أخذ زمام المبادرة، وتحريكِ مفتاح تشغيل التغيير السلمي والإصلاحِ الجذري، وهو الدور نفسه الذي يقوم به سائق السيارة في تحريك عملية سيرها وانطلاقتها نحو غايتها، وهو هنا تفعيل عنصر الطفولة الغائب واللازم لتفعيل وجدان الأمة، واستكمال أدوات إصلاحها، وتحريرها، وتنمية طاقاتها وقدراتها لما فيه مصلحة الأبناء، ولا بدّ من أن يكون خطاباً علمياً مقنعاً تبنى له مراكز البحث العلمي، من أجل تقديم الأدبيات والبرامج التربوية العلمية، في جهدٍ علمي حيٍّ، وخطابٍ فعّالٍ يتعاون في

بنائه وتسويقه المخلصون كافةً من المثقفين والقادرين، ومن رجال حركات الإصلاح وقيادات المجتمع ومؤسسات المجتمع المدنية، فذلك هو السبيل الوحيد الذي يمكِّن المسلم من أخذ زمامَ مبادرة البناء والتحرير، وعندها فقط تستجيب المؤسسات الرسمية لنبضه، وتوجهات حركته، وتصبح عند ذلك -بالضرورة- عوناً لـه في تحقيق غايته "فكما تكونون يولّىٰ عليكم".

إنّ علىٰ الآباء أن يدركوا أنّهم -في هذه المرحلة- المفتاحُ والأساسُ لتحرير الأمة وبناء طاقاتها، ومستقبل أجيالها، وأنّه دون جهدهم في الاتجاه الصحيح لا سبيل إلىٰ القدرة والعزة والخلاص.

وكلمة أخيرة إلىٰ المفكرين والمثقفين والإصلاحيين بشأن نوعية جهدهم ودورهم، وهي أن من المهم لنجاح جهودهم العمل الجاد في أداء دورهم الرائد في تحريك مفتاح التشغيل لحركة التغيير في الأمة، وذلك بتقديم الرؤية الحضارية الإسلامية، وتنقية ثقافة الأمة، والتبصير بأمراضها الوجدانية، وبسبل علاجها والقضاء عليها. وحياة الرسول ﷺ خير مثل لثمار المثابرة والصبر. فقد أخذ نفسه وأصحابه في مكة لثلاث عشرة سنة بالعمل والصبر والمثابرة في إرساء القواعد، وبناء الأسس، وإعداد "الكوادر"، لتنطلق بعدها طاقة الإصلاح في عشر سنين لتغيّر وجه الدنيا والتاريخ، وتكتسح كل الغثاء وتزيل كل العقبات أمام أمةٍ وحضارةٍ وفجرٍ جديد، وهذا هو ديدن كل حركة تغيير كبرىٰ في التاريخ.

ودون الاعتماد علىٰ النفس، والتخلي عن كل أحلام "الآخر المنقذ" والحل السهل العاجل، سوف تمضي بالأمة العقود والقرون علىٰ ما خبرنا من وَهْم

الآخر وخسفه، ومن وتيرة العجز والقهر والذل. وليس لنا أن نتوقع في المستقبل -كما في الماضي- إلا المزيدَ من الأزماتِ والكوارث التي تستنزف في كل يوم، وفي كل جيلٍ، كلَّ ما يسري في كيان الأمة من طاقةٍ وقدرةٍ متضائلة نحن أحوج ما نكون لها، لكي نصلح بها ذواتنا وننمّي بها طاقاتنا، إلا أن يشاء الله ونصحوَ ويصحوَ المفكرون والمثقفون والإصلاحيون كي يؤدوا دورهم، ويضعوا حركة إصلاح الأمة على الجادة في إصلاح الذات معرفياً ووجدانياً، وإرساء الأسس لبناء أجيال تتمتع بعقلٍ ووجدانٍ حرٍّ صحيحٍ سليمٍ. وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ١١﴾ [الرعد: ١١]، وإذ يقول: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر: ١ - ٣].

نسأل الله سبحانه وتعالى العون والسداد والتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

المراجع العربية:

- البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.
- البزاز، سعيد بن منصور. **سنن سعيد بن منصور**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. ١، ١٩٨٥م.
- أبو حيّان، محمد بن يوسف. **البحر المحيط**، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٢م.
- الترمذي، محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح «سنن الترمذي»**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.).
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. **سنن الدارمي**، تحقيق: فواز زمرلي وخالد السبع، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١٠، ١٤٠٧ هـ.
- السجستاني، سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)
- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **أزمة العقل المسلم**، هرندن والرياض: المعهد العالمي للفكر الإسلامي والدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٩٩٤م.
- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. "إشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ السياسي الإسلامي"، **مجلة المسلم المعاصر**، العدد ٢٢، السنة ٣١، ٢٠٠٦م.
- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، القاهرة: دار السلام، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. "الأمن والسلام الاجتماعي هدف نظام العقوبات الإسلامي: تأملات في نتائج دراسة اجتماعية لسكن الطلاب الجامعيين"، **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد ١٤، خريف ١٩٩٨م.

- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. "الأمة بين شريعتين"، **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد ٢٨، ٢٠٠٢م.

- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **دليل مكتبة الأسرة المسلمة**، هرندن والقاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ودار السلام، ط٣، ٢٠٠٨م.

- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر السياسي الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية**. دمشق وهرندن: دار الفكر والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٢م.

- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة**، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٠م.

- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية**. ترجمة: ناصر أحمد المرشد البريك، الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، (د. ت.).

- الشيباني، أحمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢٠، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- الصالح، صبحي. **منهل الواردين شرح رياض الصالحين**، إستانبول: (د. ن.)، (د. ت.)، ص٩١٣.

- القزويني، محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجة**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، (د. ت.).

- القشيري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت).

- مخلوف، حسنين. **صفوة البيان لمعاني القرآن**، الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، ط٣، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م.

- النسائي، أحمد بن شعيب. **المجتبى من السنن**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م.

المراجع الأجنبية:

- Habibul, Sayed. “Al-Iqta: A Historical Survey of Land Tenure and Land Revenue Administration in Some Muslims Countries, with Special Reference to Persia”, in *the Contemporary Aspects of Economic and Social Thinking in Islam*. Plainfield, ind.: the Muslim Students Association of USA and Canada, 1970.

- Abu Sulayman, AbdulHamid Ahmad. “The Theory of the Economics of Islam,” *Journal of* Economics *and Management*, 6, no. 1 & 2, Kuala Lumpur: International Islamic University, 1998.

الكشاف

ب

ت

خ

غ

ف

ق

ن

هـ

و




الله
هل يستوي الذين يعلمون
والذين لا يعلمون
المعهد
العالمي
للفكر
الإسلامي
IIIT